
إدوارد سعيد
تغطية الإسلام
رؤية
ترجمة: د. محمد عنانى
تصميم الغلاف : جوبي

■ إدوارد سعيد ■

تغطية الإسلام

كيف تتحكم أجهزة الإعلام ويتحكم الخبراء في رؤيتنا لسائر بلدان العالم

ترجمة وتقديم الدكتور

محمد عناني

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب
Covering Islam :
How the Media and the Experts
Determine How We See the Rest
of the World
By Edward Said
الصادر عن دار
Routledge & Kegan Paul, London, 1981

تغطية الإسلام

مرايـا الكتاب

الكتاب : تغطيــة الإســلام
الكاتب : إدوارد سعيد
الترجمة : د. محمد عناني
المدير المسؤول : رضـا عـوض
رؤية للنشر والتوزيع
القاهرة ٣٥٢٩٦٢٨/ ٠١٢
Email: Roueya@hotmail.com
فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤٠
الإخراج الداخلي : جوبى
جمع وتنفيذ : الشركة الدولية لخدمات الكمبيوتر
الطبعة الأولى ٢٠٠٥
رقم الإيداع : ١١٥٢٧/ ٢٠٠٥
الترقيم الدولي : I.S. B. N.
977- 6174 - 00 - 0

رؤية
للنشــر والتوزيــع
2006

■ تصدير ■

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتاب **تغطية الإسلام : كيف تتحكم أجهزة الإعلام ويتحكم الخبراء فى رؤيتنا لسائر بلدان العالم** الذى أبدعه قلم الناقد الفذ إدوارد سعيد ، وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٨١ عن دار نشر Routledge & Kegan Paul فى سلسلة كتب Pantheon ثم ظهرت الطبعة الثانية من الكتاب نفسه عام ١٩٩٧ عن دار نشر Random House فى سلسلة كتب Vintage، وأضاف المؤلف إليها مقدمة ثانية مسهبة يعرض فيها لبعض الأحداث والكتابات التى تؤكد ما انتهى إليه فى الطبعة الأولى وتقتصر على هذا التأكيد، وقد استندت فى الترجمة على الطبعة الأولى ثم راجعتها على الطبعة الثانية المنقحة ، فرأيت الاكتفاء بالصورة الأخيرة دون إضافة المقدمة الجديدة ، وفى ظنى أن إدوارد سعيد لو امتد به

العمر ليصدر طبعة ثالثة بعد غزو العراق (بعد غزو أفغانستان وأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١) لأضاف مقدمة ثالثة تزيد من تأكيد صحة النتائج التى توصل إليها البحث فى الكتاب . وأما أهم ما جاء فى المقدمة الثانية فسوف أعرض له بإيجاز فى هذا التصدير .

يعرض إدوارد سعيد فى مقدمته الجديدة للتحولات التى طرأت على العالم بعد تفكك الاتحاد السوفييتى وانهياره ، قائلاً إن التقسيم المبسط (الساذج) القديم للعالم فى عيون الولايات المتحدة إلى معسكرين: معسكر يناصر الشيوعية ومعسكر يناهضها، قد تحول إلى تقسيم لا يقل تبسيطًا وسذاجة، أى تقسيم العالم كله إلى معسكرين من نوع آخر : معسكر يناصر الإرهاب ومعسكر يناهضه ، ويدلل على صدق ذلك القول بأحداث وكتابات شتى ، ثم يعرض بعض الأفكار الرئيسية التى سبق له

عرضها فى متن الكـتاب ، وبعض الكتب التى صدرت منذ مطلع الثمانينيـات فى هذا الصدد ، ومعظمها يردد الأغلوطة نفـسها عن ''الصدام'' المحتوم بين الحضـارات ، مع استثناء كتاب واحـد كتبه أستـاذ فى جامـعة چورچـتاون اسمـه جون اسـبوزيتـو ، وعنوان الكتاب ''**التهـديد الإسلامى : خرافة أم حـقيقة واقـعة ؟**'' فى عام ١٩٩٢ ، وبعـد ذلك يعـرض لمشاركـة إسـرائيل فى الحـملة على الإسلام ، بمـساعـدة المجلات والصـحف والكتب الموالية لهـا فى أمريكا ، ''على أمل زيادة عدد الأمريكين والأوروبيين الذين يرون أن إسـرائيل من ضـحـايا العنف الإسـلامى''. (ص ٢١). ويأتى بنماذج من الكتابات الصحفيـة الأمريكية التى تفصح عن التعصب العرقى والتـحيز البـغيض واللاعقـلانى، ثم يخصص الصفـحات الباقـية من المقـدمة للهجـوم على الكتاب الذى أصـدرته صحفـية تدعى چوديث مـيلر بعنوان **رحلة صـحـفـيـة فى الشـرق الأوسط المقاتل** الصادر عـام ١٩٩٦ ، وتزعم فيه المعرفـة الفياضـة بالمنطقة وشعوبها وهى لا تعرف أيًّا من لغاتها ، بل وتخطئ حتى فى كتابة الأسماء العربية أخطاءً فاحشة . ولابد لى الآن من أن أشير بإيجاز إلى موقع المفـكر إدوارد سعيـد وأهميتـه فى ميـدان الأدب والنقد أولاً، فهـذا هو تخصـصه الأول ، ثم إلى ما سـاهم به فى الفكر العالمى المعاصر .

ولد إدوارد سعيـد فى القدس ؛ فى فلسطين ، عام ١٩٣٥ ، وتوفى عام ٢٠٠٣، وقـد التحق بالمدارس الابـتدائية والثـانوية فى

القدس وفى القاهرة ، ثـم تخرج متخصـصًا فى الأدب الانجليزى فى جامـعة برنستـون عام ١٩٥٧ ، وحصـل على الماجستيـر عام ١٩٦٠ من جامـعة هارڤارد والدكتـوراه من الجامعـة نفسهـا عام ١٩٦٤، حيث فاز بجائزة أفضل ناقد فبدأ نجمه يسطع. وبدأ حياته العملية أستاذًا يتنقل بين الجامعات الأمريكية الكبرى حتى استقر به المقام فى جـامعـة كولمبيـا أستـاذًا للغة الانجليـزية وآدابها والأدب المقارن. ومـنذ نشر كتـابه الأول عام ١٩٦٦ عن الروائـى جوزيف كونراد وكتبه تحوز الإعـجاب وتفوز بالجوائز ، الأمر الذى أكسب آراءه مصداقيـة وحقق لها الانتشار واتساع التأثير، وخـصوصًا بعد ذيوع المذهب النقـدى الذى ارتبط باسمـه، والذى يشار إليـه عادة باسم نظرية ما بعد الاستعـمار، وهو المذهب الذى ساهم مع غيره من المذاهب النقدية الحديثة (مثل التاريخية الجديدة - فى أمريكا - والمادية الثـقافـية ، فى بريطانيـا) فى تأكيـد 'العودة' إلى النظرة التكاملية أو الكلية للأدب باعتباره نشاطًا إنسانيًّا 'ثقافيًّا' بمعنى أنه ينبع من الثقـافة الخاصة لكل مجـتمع ويصب فيهـا ، ولذلك فقد اقـترن اسـمه كـذلك بالنظرة الجديدة إلى الاسـتشـراق وما فـعله المستشرقون من رسم الصـورة التى يريدها الغرب للشرق حتى بدا أنها صورة حقيقية ، على زيفها ، وهو الذى دعا سعيد إلى إعادة النظر فى كتـاباتهم ، على نحو ما يعيـد النظر فى هذا الكتاب فى كتابات الغـربيين عن الإسلام ، والتنبيه إلـى أوجه الانحراف عن الصواب ، وإلى التعصب المقيت الذى تمليه المصالح المادية المحضة

للرأسمالية المتضافرة مع نظم الحكم فى الغرب عمومًا ، وفى الولايات المتحدة بوجه خاص.

وإذا كان صحيحًا أن أهم تأثير لإدوارد سعيد فى الحياة الأكاديمية الأمريكية ، فى رأى تيرى جولدى ، هو أنه كان من أبرز الذين قدموا نظرية النقد الأوروبية المعاصرة إلى الدارسين ، باعتباره من مؤيدى فوكوه ومن معارضى دريدا ، فإن إسهامه الأصيل فى النقد الأدبى الإنجليزى لا يقل أهمية عن آرائه النقدية فى أصحاب هذه النظرية ، ولا تزال نظرية ما بعد الاستعمار ، بمعنى تحليل العلاقات القائمة بين الدول الكبرى التى كانت لها مستعمرات ، والدول الصغرى التى تحررت من الاستعمار ، نظرية متماسكة يهتدى بها دارسو آداب هذه الدول التى تحررت ، وينظرون من خلالها إلى تركة الأفكار الخاصة التى خلّفها الاستعمار ولا تزال تتحكم فى مسيرة هذه العلاقات على المسرح الدولى. وسوف ألخص معنى هذه النظرية (أو النظريات) فيما يلى:

أهم أعمدة هذه النظرية هو التشكيك فى عدد من الأفكار الأساسية التى خلفتها التركة الاستعمارية ، ومن بينها الإيحاء بأن الاستعمار أفاد البلدان التى تعرضت له ، من حيث 'النهوض' بها صناعيًا ، و'تحديثها' ، بمعنى مساعدتها على الأخذ بأساليب الحياة 'الحديثة' سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا ، حتى تلحق بركب

'الحضارة' ، والمقصود هو الحضارة الغربيـة الحديثة ، كأنما تقتصر الحضارة البشرية على نسق الحياة فى مجـتمعات الغرب الرأسمالية وحده ، ومن حيث الإيحاء 'بتفوق' التراث الأدبى الأوروبى وما بُنى على افـتراض هذا التـفـوق من مناهج لدراسة الأدب المقـارن تقول بالتأثيـر المحتوم لما هو ' متفوق' على ما هو ' متخلف' ، وعمومًا من حيث الإيحاء بتفوق ثقافة القوة المستعمرة (بكسر الميم) على نحو ما يصر عليه البـعض مثل برنارد لويس وأضرابه ، كما إن من عمد هذه الأفكار إثارة قضايا مهـمة تتعلق بالانتماء العرقى والتعصب العنصرى ، والاستـغلال بشتى صوره ، حتى بعد زوال الاستعمار . ويقول جوناثان هارت إن من أهم عناصر هذه النظرة موقع 'أفراد الرعـية' فى البلدان التى تحـررت من الاستعـمار ، ويقصد بذلك مـا أورثه الاستعمـار للفرد فى هذه البلدان من نظرة دونيَّة إلى ذاته ، وهى نظرة تتـصل بالتصوير المتسق لـه ولأمته فى كتابات المستشرقين وأدب الأدباء ، وهو ما يركز عليه إدوارد سعيد تركيزًا خاصًا فى كتابه **الاستشراق** *(Orientalism)* . ويقول سعيد فى هذا الكتـاب الذى سـاهم به فى إرسـاء أسس نظرية مـا بعـد الاستعمار إن الصور التى تمثل الشرق فى الكتابات المذكورة تؤثر لا فى الدراسـات الأكاديميـة فـحسب بل فى رؤيـة أبناء البلدان التى تحررت من الاسـتعـمار لذواتهم ، ويؤكد أن هـذه الصور لا تمثل الحقـيقـة الباطـنة للثقـافة وإن كـانت ترسم الهيكل القـائم الذى ساعـدت على إقامته ظروف الإمـبريالية والعنصـرية . وهكذا فإن

نظرية إدوارد سعيد قد ساهمت بصورة مباشرة فى تدعيم أسس النقد الثقافى الذى أتى بالدراسات الثقافية الخالصة إلى ميدان النقد الأدبى ، وأتى إليه كذلك بنظريات النقد النسوى ، وخصوصًا 'النظرة' التى تقول بضرورة تحرير المرأة فى البلدان التى تحررت من الاستعمار من الصورة النمطية التى رسّخها الغرب لها أو دأب على محاولة ترسيخها ، وهى صورة الأَمَة التى لا حول لها ولا طول ، فى بلدان الشرق عمومًا ، وفى بلدان إفريقيا وآسيا بصفة خاصة ، فهى صورة قد تمثل بعض حقائق الواقع 'القديم' ولكنها لا تمثل الحقيقة كلها ، وما فيها من جوانب الصدق لا يرجع برمته إلى الثقافة الشرقية الأصيلة بل هو فى بعض جوانبه من ثمار عوامل تاريخية معينة ، فرضت فرضًا على تلك المجتمعات ، وعانى منها الرجال مثلما عانت النساء . وهذا الفرع من النقد الثقافى مهم فى نظر إدوارد سعيد لأنه يتصل بالإطار العام للاستعمار وما خلفه وما ترتب عليه من آثار، تهم الناقد الأدبى والدارس الأكاديمى جميعًا.

وقد بدأ ذيوع صيت إدوارد سعيد على المستوى الدولى ، كما نعرف، عندما نشر كتاب **الاستشراق** عام ١٩٧٨ ، ولكنه كان قد أثبت امتيازه ورسوخ قدمه فى ميدان النقد الأدبى بصفة عامة عندما نشر كتابه الأول (الذى كان أصلاً رسالة الدكتوراه التى أنجزها فى هارڤارد) وعنوانه **جوزيف كونراد وخرافة السيرة الذاتية** *Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography* (١٩٦٦) وأذكر أنه أحدث دويًا هائلاً فى أوساط دارسى الرواية ، فالكلمة التى

ترجـمتـها 'بالخـرافة' تتـضمن تورية مـن المحال إخـراجهـا فى الترجمة، فقد تعنـى التخيل أو الوهم (بالمعنى العام) وقد تعنى فن الرواية الخيالية أو القصة الخـيالية ، طالت أم قصرت ، وهو يقارن فيه بين الصورة التى يرسـمها كونراد لنفسه فى خطاباته ، مـعتبرًا إياها ضربًا من ضـروب السيرة الذاتيـة ، وبين الروايات والقصص التى كتبها ، قائلاً إن الكاتب كان يحاول فـيها تحقيق ما عجز عن تحقيقه فى سيرته الذاتية غير المباشرة ، فكان بذلك يطبق 'التعارض الثنائى' أو 'الثنائية المتعارضة' التى أتت بها سيمون دى بوڤوار بين الذات والآخـر (بل وحتى بين الذات والموضـوع) بمعنى أنه يفـسر سيرة الحياة الحقيـقية للكاتب كونراد باعتبارها **الذات** ، ويفسر أدبه وما يتجلى فيه من صورة غـير مباشرة لما كان 'يعتزمه' وعجز عن تحقـيقه باعتـباره **الآخر** ، وهكذا فهو يخـرج لنا نظرة تقوم على التعارض ما بين الذات والآخر فى حـدود التعارض بين القصد (أو العمد) وبـين التحقيق أو العجـز عن التحقيق ، الأمـر الذى يقيم وشائج مهمـة بين منهجه ومنهج 'الظاهراتية' أو الفينومينولوچيا الذى أرسى أسسـه الفيلسوف إدمـوند هوسيرل وطوره الفـيلسوف مـارتن هايديجر فـيمـا بعـد (وأيضًا مـوريس ميـرلو - پونتى). فمذهب الظاهراتية يصر على أن القـصد أو العمد هـو أساس كل وعى إنسانى ، وأن 'الوعى' لا يتحقق إلا بوجـود هذا القصد أو العمـد، وأنا أذكر ذلك لتبيـان التوجه الفلسفى المبكر فى كـتابات إدوارد سعيد ، وما اسـتتبعـه من 'التجريد' الذى يضفـى على

أسلوبه عمـقًا خاصًا ويجـعل ترجمته إلى العـربية شاقة عـسيرة . وربما كنت أذكـره أيضًا لإيضـاح ما يعـتبره مـؤرخو النقـد الأدبى المعاصر أكـبر مساهمة لإدوارد سـعيد فى النقد الأدبى بصفـة عامة وهو كـتـابه المهم **البـدايات : المقـصـد والمنهج** : *Beginnings Intention and Method* الذى أصـدره عام ١٩٧٥ ، فإن اهتمام سعيد بالمقصد لا يتـوقف عند التطبيق (فى حالة كونراد) بل يتطور إلى نظرية كاملة نرى فـيها الاهتـمام الموازى 'بالتعـارض الثنائى' الذى قد تكـون له جذوره فى 'الفكر البنيـوى' ولكنه يتطور عند سعـيد لـيصـبح نظرة عامـة إلى موقف الأديب ، تذكـرنا بموقف هارولد بلوم (الذى أتى فـيـما بعـد) عن 'قلق التـأثير' . وهذه المجردات فى حاجة إلى إيضـاح : يقول سعيد فى مقدمـته لطبعة عام ١٩٨٥ من ذلك الكتاب إنه يفرق بين مفهوم **البُنُوّة** (filiation) **والاتّباع** (affiliation) . أما البنوة فتـتضمـن **حتمـية** ' بيولوجية' فالابن لا يملك إلا أن ينحدر من نسل أبوين ، يرث منهما صفات معينـة ، شاء ذلك أم أبى ، وأما الاتباع فيـقوم على **الاختـيار** أى على القـصد ، والتعـارض بين هذين القطبين (أى هذا التـعارض الثنائى) يفسر فى نظر سعيـد الخطأ الذى وقعت فيه بعض المذاهب التى أتت بها النظرية الحديثـة حين زعمت أن كل نتاج أدبى ينتمى وفقًا لقانون الحـتمية ، أى حتمية البنوة ، إلى مـا سبق إنتاجه من أدب ، فكأنما ينتـمى وفقًا لـقانون البنوة للأسـلاف ، الأمر الذى ينفى إمكان وجود بداية جـديدة لأى شىء ، أى وجود ما يسمـيه

سعـيد 'البدايات' ، ولكن إدوارد سعـيد يرفض هذا التعـميم ، ويقول إننـا حتى لو استطعـنا أن نجد ظلالاً 'لأصول' أى 'فكرة' فيـما سـبق من كتـابات أو أقوال ، فـلابد أن الكاتب أو الشـاعر الأصـيل يسـتطيع أن يأتـى بالجـديد ، وأن يضع فى أدبه جـذوراً جديدة قد تشبه بعض ما سلف فى بعض المظاهر ، ولكنها - حتى ولو كانت تقوم على 'الاتباع' - تأتى قطعًا بالجديد ، ولابد من اعتبارها **بداية** من لون ما .

وليس الغرض من هذا كله أن أقـدم عرضًا مبـسّطًا أو موجزًا لموقف إدوارد سعـيد 'النقدى' أو مكانته بين نقـاد العالم اليوم ، فهى مهمة تتطلب مجلـدًا أو أكثر ، ولكننى أقدم وحسب ما أرى أنه يوضح مذهبه الفكرى فى الكتاب الذى بين أيدينا، فهو مذهب تكاملى دينامىّ ، بمعنى أنه يربط بين الظواهر المختلفـة فى المجتمع (التى يكمل بعضها بعضًا) ويقبل مبدأ الحركة والتغير (أى الدينامية) باعـتبـاره المبدأ الذى لابد من وضـعه أسـاسًا لتـحليل أى ظاهرة إنسانية، ومن بينها الفكر والأدب . فـإعجابه بفكرة الذات والآخر عند بوفوار جعله يطورها ويوسع من نطاقها بحيث تتجاوز العلاقة بين الرجل والمرأة وتضـــم فى إطارها ـواسع العلاقة بين 'الشرق والغرب' ، وإعجابه بفكـرة القصد أو العمد فى الظاهـراتية تجعله يطورها ويوسع من نطاقها فى تحليله لكتابات الغرب عن الشرق ، ونظرة المستشرقـين إلى الشرق ، وما ينسبونه عمدًا (نـتيجة الوعى الذى لابد له من القصـد أو العمد عند هوسيـرل) إلى الإسلام ،

ولذلك فلن أضرب أمثلة لمنهج إدوارد سـعيد النقدى والفكرى من كتابه **البدايات** ، وكنت أحب أن استطرد لعرض حديثه الممتع عـن 'مقصد الكاتب' والتعارض بينـه وبين 'تحقيق غايته' فى كتاباته ، وخصوصًـا ما يسميـه سعيد الصور التى تمثـل هذا القصد أو هذه الغاية ، فهذه الصور الـتمثيلية (representations) يكثر الحديث عنها فى ثنايا كتاب **تغطية الإسلام** ، مثلما يضرب سعيد أمثلة لها ويقدم نماذج مـقنعة فى كـتاب **البدايات** من كتـاب فرويد **تفسير الأحلام** ، ومثلما يعود إليها فى كتابه العمدة **الاستشراق** . ويكفى أن نقول فى هذه العجالة إن سـعيد قد أعاد ' اكتشاف' الفيلسوف ڤيكو الذى يشير إليه فى هذا الكتاب فى مطلع الفصل الأخير عن **المعرفـة والسلطة** باعتـباره تلمـيذ فـرانسيس بيكون ، وهو يعـيد اكتـشافـه بعد أن ظل كـتابه **'العلم الجـديد'** مهـملاً ولا يحظى بالاهتمـام اللائق به على امتداد القرن الثـامن عشر ، حتـى اشتد سـاعد العلم الطـبيـعى فى القـرن التاسع عـشـر فأبدى الكتـاب الأوربيون اهتمامًا (ولو محدودًا) به .

وأمّا جامباتستا ڤيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) فقد ارتبط اسمه فى أذهان دارسى المذاهب النقـدية بالمذهب التـاريخى (القـديم) الذى يعتـبر أقـرب المذاهب إلى المنهج ' السياقى' التكاملى قـبل ظهور التاريخية الجديدة التى أضافت إليه بعض العناصر من بينها معارضة الفـصل بين المبـاحث العلمـيـة ، وضـرورة الاهتـمـام بالعـوامل الاقـتصـادية التى تتحكم فى الـثقـافة ، وتحليل كـتابات الكُتّـاب

باعتبارها دلائل غير مباشرة على تفاعلهم مع ثقافة عصرهم، ومن ثم على التناصّ المحتوم فى كتابات العصور المتوالية . وغير دارسى النقد يرون فى ڤيكو مبدعًا فكريًا فى مجال الدراسات التى أتت فيما بعد بعلوم السلالات البشرية (الأنثروبولوچيا) وعلم الأعراق (إثنولوچيا) ولكن إدوارد سعيد يركز على منهجه العلمى الذى سبق به عصره، بل أغضب رعاته الكنسيين حين أصدر كتابه الذائع عام ١٧٠٩ الذى يدعو فيه إلى الدراسة العقلانية (بالمعنى الحديث) للعصر ، فتخلوا عنه فأصدر على حسابه الخاص كتابه الأهم وهو **العلم الجديد** (١٧٢٥) . فالمنهج العلمى عند إدوارد سعيد هو الذى يجعل من ڤيكو خير شارح لما يدور فى أواخر القرن العشرين لا فى أوائل القرن الثامن عشر فحسب ، وهو من ثم ينتفع بالنتائج التى توصل إليها ڤيكو عن العلاقة التكاملية الدينامية بين السياق التاريخى والنص المكتوب ، لا فى كتب سعيد الأولى فقط بل فى كتابه **الاستشراق** الذى وصفته بالعمدة .

أصدر سعيد كتابه **الاستشراق** عام ١٩٧٨ فكان نقطة تحول بالغة الأهمية فى مسار نظرية النقد الأدبى الحديثة ، لا كما يقول أحد النقاد فى فكر سعيد أو عمله فحسب ، إذ فتح هذا الكتاب الباب أمام دروب جديدة فى الدراسات النقدية لا لكتابات الغربيين عن الشرق فقط ، بل أيضًا لكتابات الدول التى تحررت من الاستعمار عن ذواتها ، خصوصًا فى إطار وعيها المحتوم بما خلفه الاستعمار من آثار 'ثقافية' ، فإذا كان رأى تيرى جولدى يقول إن

كتـاب **الاسـتشـراق** نموذج لما أصـبـح يسمــى نقـد الاستـعمـار (colonial critiquae) فإن سعيـد نفسـه يطلق عليه اسم 'نقد مـا بعــد الاستعمار' (Postcolonial criticism) وتبرز معالمه فى هذا الكتـاب الذى يقتـصر فى ظاهـره على تقديم الكتـاب الأوروبيين للصــور التى تمثل الشــرق (بحـيث أدت إلى تكوين الصــورة التى يريدونها للشــرق والاصرار على صدقهـا بزعم أنها تمثل الحقـيقة) ولكن الكتاب يقدم فى ثنايا عرضه وتعليقاته ما سبق لى أن أشرت إليـه من نظرات نقـدية جـديدة ، ولنكتف بمثـال واحـد من ذلك الكتاب على منـهجه ، فـهو يدلّل بنماذج مـفحمـة على أن صور الشرق كانت 'تباع' للغرب فى ظل نظام 'اقتصادى' يحكمه الربح المادى والفائدة المعنوية ، فـما يريده السوق يقدمـه الكُتّاب ، سواء كانوا يكتبــون كتابات عامـة أو إبداعية أو ' علمية' (مزعومة) ، فالســوق يريد صور مـكان غريب متـخلف عن ركب الحـضارة ، يسوده التفكير اللاعـقلانى ، وتسود فيه المتع الحسيـة ، وخصوصًا الاستغـراق فى الملاذ الجنسية ، سواء كـان ذلك مما يتفق مع الواقع **كله** أو يختلف عنه فى بعـض التفاصيل المهـمة التى قد تغـيّر من ' حقـيقـة' الصورة . وإدوارد سـعيـد يواصل هذا المنهج فى هذا الكتاب ، فيـبين أن الصور التى تمثل 'الإسلام' أى عالم المسلمين منتقـاة بعناية لتلبية احـتياجـات سوق من نوع آخر ، ســواء كانت السياسات الحكومية ، أو ما يسمى 'بالمصلحة القومية' ، وسعيد يثبت أنه ليس فى 'صالح' الغرب بصفة عـامة والولايات المتحدة

بصفة خاصة تكريس هذا الاستقطاب أو العداء أو الصدام المزعوم بين الثقافات أو الحضارات ، بل يقول إن هذا ينشئه إنشاءً ويعمل على تنميته بما يغذوه من تشويه له ، بحيث لن يؤدى استمرار ذلك النهج إلا إلى يأس الشرقيين من تفهم الغربيين لهم ، وقد يدفع اليأس إلى الإرهاب ، أو إلى الهجمات الانتحارية ، أو إلى الحروب ، وهو ما أثبتت الأيام صحته فتحقق فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وما تلا ذلك من غزو أفغانستان والعراق .

والمنهج الذى يتبعه إدوارد سعيد على درب 'النقد الثقافى' يتميز إذن بالاتساق ، فهو يتجلى فى أكثر من نسق من الأنساق التى يتسم بها ما يكتبه فى شتى المجالات حتى حين يتكلم عن الموسيقى فى أحد كتبه وهو '**تنويعات موسيقية**' *(Musical Elaborations)* الصادر عام ١٩٩١، وهو يعتمد على خبرته الخاصة فى العزف على البيانو (وهو من المشهود لهم بالبراعة فى هذا المجال) فى تأكيد مذهبه الذى يقول بوجود الإطار الاجتماعى المحتوم، حتى لعازف البيانو، وهو الذى يبدو أنه يتجاوز المجتمع فى عزفه وإن كان محكومًا فى الواقع بهذا المجتمع ! وهو يدلل على ما يذهب إليه بأمثلة من حياة عازف البيانو الشهير ، والمفكر اللامع جيرالد جولد (الذى قيل إنه يكره الجنس البشرى) وغيره ، كما يضرب أمثلة من غيره ، وليس فى هذا ، كما قال البعض ، 'انحراف' عن منهجه وإن كان يتحدث عن الموسيقى ، فأنا أعرف من خبرتى الخاصة بالموسيقى مدى ارتباط ذلك الفن بالمجتمع

وبالثقافـة بصفة عامة ، وإن كنت أدهـش للتحليلات 'التجريدية' المذهلة التى يأتى بهـا سعيد (ذلـك الذهن العبقـرى) للحدود التى يتقيد بها 'فن الصنعة' الصِّرف ، وهى التى لا يملك أن يتخطاها، وما يدفعه المجتمع وتدفعه الثقافة دفعًا إلى تخطيه .

وتعجّـلاً لاختتـام هذه المقدمة التى أريـد لها أن تقتـصر على 'التعريف' بإدوارد سعيد ، الذى أرجو أن يستمتع القارئ بأفكاره التى كسـوتها ثوبًا عربيًا مـثلما استـمتعت بقراءة النص بإنجليـزيته العمـيقة ، سوف أوجـز عرض الجانب الآخـر لهذا المفكر ، وهو دفاعه العقلانى المتمهل عن القـضية الفلسطينية . وسأبدأ بالإشارة إلى ما بين يدىّ من كتـبه (وما ليس عندى كثير) فـأقول إن منهجه فى النقد الثقافى الاجتماعى يسـتمر فى بعض كتبه الأخرى ، مثل كتـاب **العـالَم والنَّص والناقـد** *(The World, the Text and the Critic)* (١٩٨٣) وهو مجـموعـة مقـالات بالغة الأهمـية ، وفى **العلم والسيف** *(The Pen and the Sword)* (١٩٩٤) وهو حوار مع داڤيد بارسامـيان ، مع مقـدمة بقلم إقـبال أحمـد ، وسوف أقتطف من هذه المقدمة عبارات محدودة ، وهى التى تمهد لمن يريد قراءة كتـبه المهمة الأخرى ، وعـلـى رأسها **المسألة الفلسطينية** *(The Question of Palestine)* (١٩٨٠) وكـذلك **سيـاسـات السلب والتجـريد : كفاح الفلسطينيين فـى سـبيل تقريـر المصـير** *The Politics of Dispossession : The Struggle for Palestinian Self-Determination 1969-1994* (١٩٩٤) وهو من أهم كتبه العامة على الإطلاق . يقول إقبال أحمد :

كان سعيد من أوائل دعاة السلام مع إسرائيل . ولو كان عرفات قد استجاب للاقتـراح الذى عرضه [سعيد] عليه فى بيـروت فى خريف ١٩٧٨ ثم فى مـارس ١٩٧٩ - وهو يكشف هنا عن تفاصيل هذا الاقـتراح لأول مرة - فربما كـان من الممكن التوصل إلى تسـوية معـقولة بين الفلسطينيين والإسـرائيليين . وسعيـد يعتبـر أن الاتفاق الحـالى بين الجـانبين يمثل " اسـتسـلامًـا" من جـانب عرفات، ويقدم الأسباب التى تبرر هذا الرأى . وينبغى لى أن أدع الفصل فى هذه القضية للآخرين وللتاريخ ، لكننى أشـير هـنا وحسب إلى جـوانب اعـتراضـه التى تـعلق بتكوينه الذهنى . وتتـضمن انشـغاله بما يسـمى الذاكـرة ؛ وبوجهـة نظر المقـهورين ؛ وبالتـزامه بعـدم السماح مطلقًا لأسطورة أو وجـهة نظر فاسدة سائدة أن تصبح جـزءًا من التاريخ دون مـا يقابلهـا من أضداد . ومما لا يقل أهمية فى عـمله إحساسه العمـيق بالخسارة الشخصية والجماعية، ونشدانه للبدائل الإيجابية والعالمية لما يتسم بالطائفية من أيديولوجيات وأبنية ومزاعم. وفى ثنايا عمله كله نرى هذه الموضوعات وقـد التحمت معًا بخيوط تربط ما بين المعـرفة وبين السلطة وتقيم الوشائج ما بين الثقافة وبين الإمبريالية . وهو يقيم هذه الوشائج بأساليب تفتح الدروب إلى البـديل الأقوى والإنسانى -

فلنسمه فلسفة مضادة ، أو ثقافة مقاومة ، أو الوعد بتحرير غير طائفى ، وعلمانى . (ص ١١ - ١٢) .

وسوف ألمح إلى أهم كتبه فى هذا المجال وهى دون ترتيب **الثقافة والإمبريالية** *Culture and Imperialism* (١٩٩٣) الذى يضم دراسات منوعة تدور فى الفلك نفسه ، وكتابه الأخير ، وأطول كتبه وهو **تأملات فى المنفى ومقالات أخرى** *(Reflections on Exile and Other Essays)* (٢٠٠٠) والطبعة التى لدى صادرة عام ٢٠٠٢ ، ويضم دراسات عميقة ممتعة ، بعضها عن الأدب الأمريكى ، وبعضها عن موضوعات عربية مثل دراسته عن تحية كاريوكا ، وعن المشهد الأدبى فى مصر ، وعن نشأته الخاصة فى القاهرة ، وعن فن الرواية عند أهداف سويف وغير ذلك .

وليأذن لى القارئ أن أذكر شيئًا عن هذه الترجمة ، فلقد كنت اعتدت قراءة ما يكتب إدوارد سعيد بالانجليزية دون أن أتصور أننى سوف أترجم منه أى شيء ، وكان ينتابنى مزيجٌ من الإشفاق والإعجاب بمن يتصدى لترجمته بسبب إغراق سعيد فى 'التجريد' ، وهو من 'ضرورات' التفكير الفلسفى ، وبسبب تعقيد أبنيته واتكائه على المصطلح الانجليزى القح ، ومزجه النبرة العامية أحيانًا بالنبرات ' المتقعرة' لكبار النقاد الذين اعتدناهم فى دراستنا للأدب الانجليزى ، وعندما اقترح علىّ الناشر ، الأستاذ رضا عوض ، ترجمة هذا الكتاب امتزج الشعور بالإشفاق والوجل بإحساسى الدفين بالتحدى ، وكان لابد أن أقهر الشعور الأول

وأستجيب للتحدى ، وكان مـعنى ذلك قضاء وقت أكثر مما قدرت فى الترجمة والمراجعة ، وحاولت أن أنقل للقارئ بإخلاص وأمانة صورة صادقة لفكر إدوارد سـعيد وأسلوب صوغ هذا الفكر ، ولو اقـتضى ذلك بعض الالتـزام الحرفـى بما يقول ويصـوغ فى بعض المواضع ، ولكن دون جور على الوضـوح الذى أبتغيـه فى كل ما أكتب وأترجم . وأرجو ألآ يجد القارئ صعوبة فى تتبع مسار فكر الرجل العظيم بعد أن أنطقـته بالعربيـة ، وأن تصل رسالة الكاتب بوضوح إلى الجـميع . فإذا وجد الـقارئ هنات هنا وهناك ، وهو أمر مـحتوم ، فـأرجو منه الصفـح ، فالإنسان غـير معـصوم من السهو والخطأ .

محمد عنانى

القاهرة – ٢٠٠٥

■ المقدمة ■

هذا هو الكتاب الثالث والأخير من سلسلة الكتب التى حاولت فيها تناول العلاقة القائمة فى العصر الحديث بين عالم الإسلام والعرب والشرق من ناحية ، وبين الغرب وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة من ناحية أخرى . وكتابى الأول **الاستشراق** هو أشد هذه الكتب تعميمًا إذ يرصد شتى مراحل تلك العلاقة منذ غزو نابليون لمصر ويتناول الفترة الاستعمارية الرئيسية ونشأة دراسات المستشرقين الحديثة فى أوروبا حتى انتهاء الهيمنة الإمبريالية، البريطانية والفرنسية ، على الشرق بعد الحرب العالمية الثانية وظهور السيطرة الأمريكية فى الوقت نفسه . وأما الأساس الفكرى الذى يقوم عليه كتاب **الاستشراق** فهو الارتباط الوثيق بين المعرفة[1] وبين السلطة أو القوة.

ويقدم الكتاب الثانى وعنوانه **المسألة الفلسطينية** تاريخ حالة

خـاصـة، إذ يعـرض للصـراع ما بـين السكان العـرب الأصليين لفلسطين، ومعظمهم من العرب، وبين الحركة الصهيونية (إسرائيل فيمـا بعد) ذات المنشأ الغـربى والتى تنتهج فى تعاملها مع حـقائق الواقع "الشرقى" نهجًا غربيًا إلى حـد كبير . وتحاول دراستى عن فلسطين كـذلك ، وبمنهج أشد صراحـة من منهج **الاستـشراق** ، وصف ما اختفى ويختفى تحت السطح فى الرؤى الغربية للشرق ، وهو فى هذه الحالة ، الكفـاح الوطنى الفلسطينى فى سبـيل تقرير المصير[٢] .

وأما فى **تغطية الإسلام** فإن موضوعى معاصر بصورة مباشرة، وهو المواقف الغربيـة ، والمواقف الأمريكيـة خصوصًـا إزاء العالم الإسلامىّ الذى بدأ الغربيون يرون، منذ مطلع السـبعينيات، أن له صلةً وثيقةً بهم ، ومع ذلك فهو يموج بالقلاقل المعادية لهم، ويمثل

مشكلة لهم . وكـان من بين أسبـاب هذه الرؤية إحساسـهم الحاد بنقص إمـدادات الطاقة ، وهو الإحـساس الذى تركـز على النفط العـربى ونفط الخـليج العـربى ، وعلى منظـمـة البلدان المصـدرة للبترول (أوبك) والآثار الضارة الناجمة عن التضخم فى المجتمعات الغربيـة وارتفاع أسعـار الوقود ارتفاعـًا بالغًا. أضف إلى ذلك أن الثـورة الإيرانية وأزمـة الرهائن قـدمتـا أدلة جديدة ، وتدعـو إلى الانزعـاج ، على صـحـة مـا أصـبـح يشـار إليـه باسم " عودة الإسلام". وأخيرًا لمحنا عودة ظهور المشاعر الوطنية الراديكالية فى العالم الإسلامى ، وما تبعها من اشتداد المنافسة بين الدول العظمى هناك ، وهو ما يؤسف له بصورة خاصـة. فأمّا المثال على الظاهرة الأولى فهـو الحرب بين العـراق وإيران ، وأما المثـال على الظاهرة الثانية فهو التدخل السوڤييتى فى أفغانستان والاستعدادات الأمريكية لما يسمى بقوات الانتشار السريع فى منطقة الخليج .

ورغم أن التورية فى عـنوان هذا الكتاب ، "تغطية الإسلام" سوف تتـضح لأى قارئ له ، فـإنه قد يتطلب تفسـيرًا مـبسطًا فى البـداية. فمن الأفكار التى أطرحـها فى هذا الكـتاب وفى كـتاب **الاستشراق** أن مصطلح "الإسلام" ، فى السياقات التـى يستعمل فيها اليوم ، يعنى فى ظاهـره أمرًا واحدًا بسيطًا ، وأما فى الواقع، فالمصطلح من أحد جوانبه ليست له دلالة واقعية ، وهو من جانب ثان لا يزيد عن كونه بطاقة أيديولوجـية وهو من جانب ثالث اسم لا يتجاوز الحدود الدنيـا فى الإشارة إلى الدين الإسلامى . فنحن

نرى أولاً أن المصطلح بالصورة التى يشيع فيها لدى الغربيين لا ينطبق انطباقًا واقعيًا على صور الحياة البالغة التنوع داخل عالم الإسلام ، وهو الذى يربو عدد سكانه على ثمانمائة مليون نسمة ، وتصل مساحة أراضيه إلى ملايين الأميال المربعة ، معظمها فى إفريقيا وآسيا ، إلى جانب عشرات مجتمعاته ودوله ، وأشكال تاريخه وجغرافيته وأنماطه الثقافية . وفى مقابل ذلك نرى أن "الإسلام" أصبح يرتبط اليوم فى الغرب بالأنباء المثيرة المفجعة بصفة خاصة ، للأسباب التى أناقشها فى غضون هذا الكتاب . فلقد شُغلَتْ أجهزة الإعلام الغربية بتغطية الإسلام فى الأعوام القليلة الماضية ، خصوصًا منذ أن لَفَتَتْ أحداث إيران أنظار الناس فى أوروبا وأمريكا إليه وشَغَلَتْهُمْ حقًا، فإذا بهذه الأجهزة تتصدى لتصوير الإسلام ، وتحديد ملامحه ، وتحليله ، وتقدم دراسات فورية عنه ، ومن ثم فقد جعلته فى ظنهم "معلومًا" .

ولكن هذه التغطية ، كما ألمحت إلى ذلك ضمنًا ، تغطية مضلِّلة حتى ولو بدت شاملة ، ويضاف إليها عمل الخبراء الأكاديميين فى الإسلام ، ورجال الاستراتيجيات الجغرافية السياسية الذين يتحدثون عن "هلال الأزمة" وعمل المفكرين الثقافيين الذين ينعون "تدهور الغرب" . ومصدر التضليل هو أن التغطية توحى لمن يتلقون الأنباء بأنهم قد فهموا الإسلام ، دون أن تقول لهم إن جانبًا كبيرًا من هذه التغطية النشطة يستند إلى مادة أبعد ما تكون عن الموضوعية . فلقد أدى استعمال مصطلح "الإسلام" إلى

السمــاح بقدر واضح من الأخـطاء، وبأقوال تنم عن التـعبـير عن التحيز العرقى الشديد ، والكراهية الثقافية بل والعنصرية ، والعداء العـميق الذى قـد يتذبـذب صعـودًا وهبوطًا ، وهذه من إحـدى المفارقات . ويجرى ذلك كله فى إطار ما يُفترض أنه تغطية منصفة متـوازنة مسـئولة للإسلام . وبـغضّ النظر عن عدم تناول أجـهزة الإعلام للمسيحية أو لليهودية بنفس الحماس الانفعالى الذى تتناول به الإسلام ، وإن كـان كل منهما يمرّ بـنهضة بارزة (أو مـا يسمى "العودة") فالافتراض المسلَّم به هو أنــه من الممكن تحديد صفات الإســلام دونما حـدود باسـتعـمـال حـفنَة من القـوالب اللفظيـة (الكليشـيهات) التى تتسم بالـتعميم الذى ينم عن التـهور ، والتى تستخـدم مرارًا وتكرارًا . ودائمًا مـا يُفترض أن "الإسلام" الذى يتحدثـون عنه شيء حقيقى ثابت له وجـود واقعى فى المكان الذى تصادف أن وُجدت فيه إمداداتُ "بترولهم" .

ولقد صـاحب هذا اللون من التـغطية قدر كـبيـر من التسـتُّر والتكتُّم. فعندمـا تحاول صحيـفة **نيويورك تايمز** أن تشرح المقاومة الإيرانيـة المدهشة للغـزو العـراقى ، نجدها قـد لجأت إلى المقـولة القديمة من أن "للشيعة ولعًا بالاستشهاد" وأمثال هذه المقولات لها حظُّـا من القبـول من الناحيـة السطحيـة ، ولكننى أعـتقد أنـها تستخدم لتـغطية الكثير مما لا يدرى الصحفىّ عنه شـيئًا . والجهل باللغة لا يمثل إلا جانبًـا واحدًا أشمل وأعظم ، إذ كثيـرًا ما تبعث الصحيفة بمراسلها إلى بلد غـريب، دون استعداد ودون خبرة ، لا

لسبب إلاّ لذكائه وقدرته على التقاط الأنباء بسرعة، أى للماحيته، أو لأنه تصادف وجوده فى مكان قريب من الجبهة التى تزوّد الصحيفة بأنباء الصفحة الأولى . وهكذا فبدلاً من محاولة معرفة المزيد عن ذلك البلد، نجد أن الصحفى قد التقط ما هو قريب منه، وعادة ما يكون كليشيهًا أو فكرة صحفية جذابة ليس من المحتمل أن يشك فى صحتها قراء صحيفته فى بلده . وهكذا وجدنا ما يقرب من ثلاثمائة صحفى فى طهران فى الأيام الأولى من أزمة الرهائن ، دون أن يكون من بينهم من يتحدث اللغة الفارسية ، ولم يكن من الغريب إذن أن تكرر جميع الأنباء الصحفية الخارجة من إيران ، فى جوهرها ، نفس المقولات البالية عن الأحداث الجارية هناك . وبطبيعة الحال لم يلحظ أحد ولم يلتفت الناس إلى غيرها من الأحداث والتحولات السياسية فى إيران ، وهى التى تعذر تصنيفها باعتبارها نماذج "للعقلية الإسلامية" أو "لمعاداة أمريكا" .

وقد ساهمت أنشطة **تغطية** الإسلام **والتستر** على الإسلام فيما بينها إلى حد كبير فى صرف النظر عن المرض الذى تعتبر هذه الأنشطة من أعراضه ، ألا وهو المشكلة العامة المتمثلة فى الحياة فى عالم أصبح يتسم بقدر بالغ من التنوع والتعقيد إلى الحد الذى يستحيل معه إطلاق التعميمات الفورية والميسّرة . ومصطلح الإسلام نموذج ينطبق عليه هذا القول ، وهو نموذج ذو خصوصية أيضًا ، بسبب تاريخ الإسلام فى الغرب ، فهو تاريخ قديم وذو

سـمات مـحـددة بدقة ، وأعنى بذلك أن الإسـلام لا ينتـمى إلى أوروبا ولا إلى مجموعة البلدان المتقـدمة صناعيًا مثل اليابان ، بل يشترك فى عدم الانتماء المذكور مع سمات كثيرة أخرى من سمات عالم مـا بعد الاسـتعـمار ، إذ يعتـبر واقـعًا فى نطاق مـا يسمى "المنظورات الانمائية" وهى التـسمـية التى تعنى بأسلوب آخـر أن النظرة السـائدة عـلى امـتداد ثـلاثة عـقـود على الأقل تقـول بأن المجتـمعات الإسـلامية فى حـاجة إلى "**تحديث**" . ونجمت عن أيديولوجـية التـحديث نظـرة خاصـة إلى الإسلام بلغت ذروتهـا وأوجهـا فى شاه إيران، سـواءً فى قمـة مجده باعـتبـاره حاكـمًا "حديثًا" أو عندما انهار نظام حكمه ، باعتبـاره ضحية من ضحايا الحركـة التى اعتبـرها الغربيون نموذجًـا لتعصب العـصور الوسطى واستمساكها بالدين .

ومن ناحـية أخـرى كان الإسـلام دائمًا ولا يزال يمثل تهـديدًا خاصًا للغرب ، للأسباب التى ناقشتها فى كتابى **الاستشراق** وأعيد فحصها فى هذا الكتاب . ومن المحال أن يقال عن أى دين آخر ، أو أى تجمع ثقـافىّ آخر ، وبنفس الدرجة من التـأكيد ، مـا يقال الآن عن الإسلام ، أى إنه يمثل تهديدًا للحـضارة الغربية . وليس من قبيل المصادفة أن تؤدى القلاقل والاضطرابات التى نشهدها فى عـالم المسلمين اليـوم (وهى التى ترجع إلى عـوامل اجتـمـاعيـة واقتصـادية وتاريخية أكثر مما ترجع إلى الإسـلام وحده) إلى فضح مناحى قـصور القـوالب الثـابتة (الـكليشـيهـات) التى وضـعهـا

المستشرقون وهى القوالب الساذجة التى تتحدث عن "الإيمان بالقدر" والتواكل لدى المسلمين ، دون أن يأتوا ببدائل لها سوى الحنين إلى الأيام الخوالى التى كانت الجيوش الأوروبية فيها تسيطر على عالم المسلمين كله تقريبًا ، من شبه القارة الهندية إلى شمالىّ إفريقيا . وما النجاحُ الذى لاقته الكتب والصحف ولاقاه كبار الشخصيات العامة الذين يدعون إلى إعادة احتلال منطقة الخليج ، مبررين دعوتهم بالحديث عن الهمجية الإسلامية، إلا جانب من جوانب هذه الظاهرة . ولا يقل عن ذلك غرابةً أن نشهد هذه الأيام ذيوع صيت بعض "الخبراء" فى أمريكا ، مثل ج.ب. كيلى، الأستاذ السابق للتاريخ الإمبريالى فى جامعة ويسكونسن، والذى كان يومًا ما مستشارًا للشيخ زايد بن سلطان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة (رحمه الله)[٣] والذى غدا ينتقد المسلمين ورجال الغرب الضعفاء الذين يختلفون عنه فى أنهم أسلسوا زمامهم "لعرب النفط" . ولقد عَرَضَتْ بعض المقالات لكتابه وانْتَقَدتْهُ أحيانًا دون أن تقول إحداها كلمة واحدة عن محاكاته للأجداد الإمبرياليين محاكاة صريحة تدعو إلى الدهشة فى الفقرة الأخيرة من هذا الكتاب ، وهى جديرة بالاقتطاف هنا بسبب ما تتضمنه من اشتهاء خالص للغزو الإمبريالى ومن مواقف عنصرية لا ينجح تمامًا فى إخفائها :

من المحال أن نتنبأ بطول المدة الزمنية التى بقيت لأوروبا الغربية حتى تحتفظ أو تستعيد ميراثها الاستراتيجى

شرقىّ السويس . ففى الفترة التى ساد فيها ما يسمى بالسلام البريطانى ، أى من العقد الرابع أو الخامس للقرن التاسع عشر حتى سنوات منتصف هذا القرن (العشرين) ساد الهدوء البحار الشرقية وحول سواحل غربىّ المحيط الهندى . ولا يزال الهدوء المؤقت قائمًا فى تلك المناطق ، لكنه ظلٌّ عابرٌ من ظلال النظام الإمبريالى القديم ، فإذا كان لنا أن نتعلم شيئًا ما من التاريخ فى القرون الأربعة أو الخمسة الماضية ، فهو أن ذلك السلام الهش لن يستطيع الصمود طويلاً . إن معظم بلدان آسيا قد انتكست فعادت إلى الحكم الاستبدادى ، وعادت معظم إفريقيا إلى الهمجية -أى باختصار إلى الحال التى كانت تعيشها قبل أن يكتشف فاسكو دى جاما طريق رأس الرجاء الصالح ويضع أسس سيطرة البرتغال على الشرق . . . لا تزال عُمان مفتاح التحكّم فى الخليج ومداخله البحرية ، مثلما لا تزال عدن مفتاح المرور فى البحر الأحمر . ولقد تخلت الدول الغربية من قبل عن أحد هذين المفتاحين ؛ وأما المفتاح الآخر فلا يزال فى متناول أيديها . لكننا لم نعرف حتى الآن ما إذا كانت لديها الجرأة اللازمة ، مثل ربابنة البرتغال القدماء ، للقبض عليه[٤] .

وإذا كان بعض القراء قد يجدون غرابة وطرافة فيما يوحى به

كـيلى من أن الاستـعـمار البـرتغالى فى الـقرنين الخـامس عشـر والسادس عشر يعتبر أنسب مرشـد للسياسيين الغربيين المعاصرين، فإن تبسيطه للتاريخ هو أشـد ما يمثل الاتجاه الفكرى الراهن . فهو يقول إن الاستعمار أتى بالهدوء ، كـأنما كان إخضاع ملايين البشر نعيمًا مثاليًا وكأنما كانت أيام الاستعمار أفضل أيامٍ عهدوها ، وأما انتهاك مشـاعرهم ، وتشويه تاريخهم ، وتعاسـة مصائرهم ، فلا قيمة لها ''ما دمنا'' ، من وجهة نظره ، نواصل الظفر بما هو مفيد ''لنا'' - أى بالموارد الثـمينة ، والبقـاع الاستـراتيجيـة من الزاوية السـياسـيـة ، وذلك الحشـد الكبـير من الأيدى العـاملة المحليـة الرخيصـة. وأما استقلال البلدان فـى إفريقيا وآسيـا بعد قرون من السيطرة الاستعمارية فهو يرفضه باعتباره انتكاسًا وعودةً إلى حالة الهمـجيـة أو الحكم الاستـبدادى. وهكذا يقـول كيلى إن السـبيل الوحيـد المتاح ، بعد ما وصـفه بأنه وفاة النظام الإمبـريالى القديم التى وصمت أهله بالجبن ، هو القيـام بغزوة جديدة . وفى طيات هذه الدعوة التى يقدمها كيلى إلى الـغرب للحصول على ما ينتمى بحق ''لنا'' ، يكمن احتقـار عميق للثقافة الإسلامـية الوطنية فى آسيا التى يرغب كيلى أن نتولى ''نحن'' حكمها .

فلنضرب صـفحًا عن المنطق المعكوس الذى يستند إليـه كيلى فى كتابته ، وهو الذى أتى له بآيات الترحيب والاحترام من الجناح اليـمـينى من المـفكرين الأمـريكيين ، من ويليـم ف. باكلى إلى صحيفة **نيو ريبيلك** ، فالأهم من ذلك فى النظرة التى يقدمها هو

تفـضـيل الحلول الشـاملـة الجـاهزة فـورًا على كل حلول أخـرى للمشـاكل المعقدة المتـشابكة ، خصـوصًا حين توصى هذه الحلول باتخاذ عمل قوى ضد "الإسلام" . ولا أحد يذكر أى شىء عما عساه يجرى الآن داخل اليمن مثـلاً ، أو فى تركيا ، أو عبر البحر الأحمـر فى السودان، أو موريتـانيا ، أو فى المغـرب أو حتى فـى مصـر . فـالصحـــافـة تلتزم الصــمــت إزاء ذلـك كــله ، إذ لا يشغلها إلاّ تغطية أنباء أزمة الرهائن ، والجامعات تلتزم الصمت ، إذ لا يشغلهـا إلا إسداء المشـورة لرجال صناعة النفط ولـلحكومة بشأن التنبؤ باتجاهات الخليج العـربى ، والحكومة تلتزم الصمت ، إذ إنها لا تطلب المعلومـات إلاّ حيث يوجهنا " أصدقاؤنا" (مثل الشاه أو أنور السـادات) إلى مكان طلبهـا . فلا يهم هذه الجـهات جميعًا إلا القول بأن "الإسلام" هو وحده الذى يمتلك احتياطات النفط اللازمـة للغرب ، ولا اعتـداد بغيـر ذلك ، ولا شىء سواه يستحق الالتفات إليه .

فإذا نظرنا إلى الحـالة الراهنة للدراسات الأكاديميـة للإسلام ، لم نجد فيها ما يكفى لتصحيح الأوضاع ، بل إن المجال برمته يعتبر من بعض زواياه هامشـيا بالنسبـة للثقافـة العامة ، كـما إنه – من زوايا أخرى – قد استقطبته الحكومة والشركات . وقد أدى ذلك ، بصفـة عامة ، إلى عـدم تأهيله لتغطية الإسـلام بالمناهج التى ربما كـشفت لـنا عمـا نجـهله مما يدور تحت السطح فى المجـتـمعـات الإسلامية ، وذلك إلى جانب المشكلات المنهجية والفكرية العديدة

التى لم تحسم حتى الآن: هل يوجد ما يسمى بالسلوك الإسلامى؟ ما الذى يربط الإسلام على مستوى الحياة اليومية بالإسلام على مستوى العقيدة فى شتى المجتمعات الإسلامية ؟ ما مدى فائدة استعمال مصطلح "الإسلام" باعتباره من المفاهيم النظرية فى تفهّم الأحوال القائمة فى نفس الوقت فى المغرب والمملكة العربية السعودية وسوريا وإندونيسيا ؟ فإذا أدركنا ، على نحو ما أشار إليه كثير من العلماء فى الآونة الأخيرة ، أنه من الممكن اعتبار أن العقيدة الإسلامية تبرر الرأسمالية مثلما تبرر الاشتراكية ، وتبرر الكفاح مثلما تبرر التسليم بالقدر ، وتبرر مدّ الأيدى إلى الأديان جميعًا والترابط بينها مثلما تبرر الانفراد والانحصار ، بدأنا فى إدراك الهوة الشاسعة التى تفصل بين التوصيفات الأكاديمية للإسلام (ومن المحتوم ألا تقدم لها أجهزة الإعلام إلا صورًا شائهة) وبين الحقائق المحددة القائمة على أرض الواقع فى العالم الإسلامى .

ومع ذلك فالآراء تتفق على اعتبار "الإسلام" كبش الفداء الذى ننسب إليه كل ما يتصادف أن نكرهه فى الأنساق السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة فى عالم اليوم . فاليمين يرى أن الإسلام يمثل الهمجية ، واليسار يرى أنه يمثل حكم الدين فى القرون الوسطى ، والوسط يرى أنه يمثل الغرابة الممجوجة ، وأما ما تتفق عليه هذه الدوائر جميعًا (وعلى الرغم من ضآلة ما تعرفه عن العالم الإسلامى) فهو استحالة قبول جوانب كثيرة من جوانبه . وينحصر ما تعتبره هذه الدوائر ذا قيمة فى الإسلام ،

وبصفة رئيسية ، فى عدائه للشيوعية ، إلى جانب المفارقة الظاهرة فى أن العداء للشيوعية فى العالم الإسلامى يعتبر فى جميع الأحوال تقريبًا مرادفًا لنظم الحكم القمعية الموالية لأمريكا . والرئيس الباكستانى ضياء الحق خير مثال لذلك .

ما أبعد هذا الكتاب إذن عن أن يكون دفاعًا عن الإسلام ، فذلك أمر بعيد الاحتمال وجهد لا طائل من ورائه فى حدود ما يرمى إليه هذا الكتاب الذى يقتصر على وصف صور استعمال مصطلح "الإسلام" فى الغرب ، وكذلك - ولو أننى أنفق وقتًا أقل فى هذا الصدد - فى كثير من المجتمعات الإسلامية . وهكذا فإن انتقاد صور إساءة استعمال المصطلح فى الغرب لا يعنى على الإطلاق السماح بها أو الموافقة عليها داخل المجتمعات الإسلامية. فالواقع يقول إننا نجد فى الكثير ، بل فى عدد أكبر مما ينبغى من المجتمعات الإسلامية ، أن النظام الحاكم يلجأ إلى القمع ، أو إلى سلب الحريات الشخصية ، أو الاستناد فى الحكم إلى أقلية لا تمثل الشعب وأنه قد يزعم زورًا وبهتانًا أن ذلك مشروع باسم الإسلام ، أو يلجأ إلى السفسطة فى إقامة مبرراته على أسس إسلامية ، والعقيدة الإسلامية بريئة من ذلك كله ، شأنها فى ذلك شأن الأديان العالمية العظمى . والواقع أن إساءة استعمال مصطلح الإسلام تتزامن فى كثير من الحالات مع الزيادة الفاحشة فى القوة والسلطة التى تكتسبها الحكومة المركزية .

لكننا حتى لو لم ننسب كل العلل فى العالم الإسلامى إلى الغرب ، فلابد أن ندرك العلاقة التى تربط ما يقوله الغرب عن الإسلام بما فعلته شتى المجتمعات الإسلامية ردًا على ذلك ، فالعلاقة الجدلية قائمة بين الطرفين ، لأن الغرب شريك مهم فى الحوار الدائر مع الكثير من المجتمعات الإسلامية ، سواء باعتباره القوة الاستعمارية السابقة أو باعتباره الشريك التجارى الحالى ، وقد أثمرت هذه العلاقة الجدلية ضربًا مما أطلق عليه توماس فرانك وإدوارد ويزباند تعبير "سياسة الكلمات"(٥) ومن أغراض هذا الكتاب تحليل هذه السياسة وشرحها . فنحن نلاحظ التراشق بين الغرب والإسلام ، ونلاحظ التحدى والإجابة ، وفتح مجالات تعبيرية معينة وإغلاق غيرها ، وكل ذلك هو ما يشكل " سياسة الكلمات" التى يحاول عن طريقها كل طرف إنشاء مواقف معينة، وتبرير أفعال معينة ، وفرض بدائل معينة على الطرف الآخر. وهكذا فعندما احتل الإيرانيون السفارة الأمريكية فى طهران كانوا لا يردُّون بذلك فحسب على دخول الشاه السابق إلى الولايات المتحدة ، بل أيضًا على ما يعتبرونه تاريخًا طويلاً من الإذلال الذى **لاقوه** على أيدى القوة الأمريكية الفائقة ، أى إن الأفعال الأمريكية الماضية "تحدثت" إليهم عن التدخل الدائم فى حياتهم، ومن ثم أحسوا أنهم مسلمون قد سجنوا داخل وطنهم نفسه ، فقاموا بحبس بعض الأمريكيين واحتجزوهم رهائن على أرض أمريكية ، أى فى السفارة الأمريكية فى طهران . وإذا كانت الأفعال نفسها

قد أقامت الحجة ، فلقد مهدت لها الكلمات ، وتحركات القوة رسمت الكلمات ظلالها ، بل وإلى حد كبير يمكن القول بأنه لولا الكلمات ما كانت الأفعال .

وأعتقد أن هذا النسق ذو أهمية كبرى لأنه يؤكد الرابطة الوثيقة بين اللغة والواقع السياسى ، على الأقل فيما يتعلق بالمناقشات الخاصة بالإسلام . وما أشق أن تجعل معظم الخبراء الأكاديميين فى الإسلام يعترفون بأن ما يقولونه ويفعلونه باعتبارهم علماء باحثين يقع فى سياق ذى صبغة سياسية عميقة ، وأحيانًا ما تكون معادية. فكل ما يختص بدراسة الإسلام فى الغرب المعاصر اليوم مشبع بالأهمية السياسية ، ومع ذلك فما أندر أن نجد كاتبًا عن الإسلام، سواء كان خبيرًا أو ممن يكتبون بصفة عامة ، يعترف بهذه الحقيقة فيما يقوله . فنحن نفترض التزام الموضوعية فى حديث العلماء عن المجتمعات الأخرى ، على الرغم من التاريخ الطويل الذى عرفت فيه جميع المجتمعات ضروب القلق السياسى والخلقى والدينى ، سواء كانت غربية أو إسلامية، بشأن كل أجنبى وغريب ومختلف. ففى أوروبا على سبيل المثال، كان المستشرق يرتبط بصورة مباشرة، وعلى مر الزمن ، بالجهود الاستعمارية ، ولقد بدأنا فحسب ندرك مدى التعاون الوثيق بين الدراسة العلمية والغزو العسكرى الاستعمارى المباشر ، وهو ما تعلمنا منه درسًا مفيدًا وإن كان محزنًا (على نحو ما حدث فى حالة المستشرق الهولندى المبجل سى. سنوك هنجرونيي ، الذى استغل الثقة التى أولاه المسلمون

إياها ، فى تخطيط وتنفيذ الحرب الهولندية الوحشية ضد أبناء شعب أتشه المقيمين فى سومطره)[٦] . ومع ذلك فلا تزال الكتب والمقالات تتدفق علينا وتفيض بالثناء على الطابع غير السياسى للدراسة العلمية الغربية ، وثمار العلم الذى أتى به المستشرقون ، وقيمة الخبرة "الموضوعية" . وفى الوقت نفسه يندر أن نرى خبيرًا من خبراء "الإسلام" لم يكن مستشارًا للحكومة أو حتى موظفًا فيها، أو فى مختلف الشركات أو أجهزة الإعلام . وما أرمى إليه هو أنه لابد من الاعتراف بذلك التعاون ومن أخذه فى الاعتبار ، لا لأسباب أخلاقية فحسب ، بل أيضًا لأسباب فكرية .

فلنقل إذن إن الكلام عن الإسلام يتعرض للتلوّن دون شك بألوان الأحوال السياسية والاقتصادية والفكرية التى ينشأ فيها ، إن لم يصبه الفساد المطلق من جرّاء ذلك ، ويصدق ذلك على الشرق مثلما يصدق على الغرب . وليس من المبالغة أن نقول ، ولأسباب كثيرة واضحة ، إن كل كلامٍ عن الإسلام يسعى لتحقيق درجة ما من السلطة أو القوة . ولكننى ، من ناحيةأخرى ، لا أقصد أن أقول إن جميع الدراسات أو الكتابات عن الإسلام لا نفع لها ، فالعكس هو الصحيح ، وهى أقرب قطعًا إلى النفع بما تميط عنه اللثام باعتبارها دليلاً يشير إلى "المصلحة" التى تسعى لتحقيقها . ولا أستطيع أن أقول بالتأكيد إذا ما كنا سنصادف فى مجال الشئون المتعلقة بالمجتمع البشرى ما يسمى بالحقيقة المطلقة أو المعرفة الصادقة الكاملة ، وربما وجدنا أمثال هذه أو تلك فى عالم

المجردات - وهو قول لا أجد صعوبة فى قبوله - ولكننى أرى فى إطار الواقع القائم أن الحقيقة فى سياق الحديث عن أمور معينة مثل "الإسلام" مرتبطة بالمصدر الذى تأتى منه ، وأرجو أن يلاحظ القارئ أن هذا الموقف لا يستبعد وجود درجات من المعرفة (الصحيحة أو الفاسدة أو التى لا لون لها) ولا يستبعد إمكان تحرّى الدّقة فى القول ، ولكنه يطلب فحسب من أى إنسان يتكلم عن "الإسلام" أن يتذكر ما يعرفه كل دارس مبتدئ للأدب ، وهو أن كتابة نصوص عن الواقع الإنسانى أو قراءة هذه النصوص نشاط يشارك فيه من العوامل ما يزيد كثيرًا عما يمكن تفسيره (أو حمايته) بعناوين مثل "الموضوعية" .

وهذا هو السبب الذى يدفعنى إلى بذل الجهد فى تحديد السياق الذى تنشأ فيه كل مقولة ، وسبب اهتمامى بذكر مختلف الفئات الاجتماعية المهتمة "بالإسلام" . وأما بالنسبة للغرب بصفة عامة ، وللولايات المتحدة بصفة خاصة ، فإن تلاقى القوى ذات العلاقة "بالإسلام" واضح جلىّ ، سواء فيما يتعلق بالجماعات التى تشكل هذه القوى (الحياة الأكاديمية ، والشركات ، وأجهزة الإعلام ، والحكومة) أو الغياب النسبى للمنشقين عن الطريق الذى جعلته هذه القوى 'الطريق الصحيح' أو المعتمد . وكانت النتيجة هى التبسيط الشديد والمخلّ "للإسلام" الذى يتيح التلاعب به لتحقيق عدة أهداف معًا ، من إثارة حرب باردة جديدة ، إلى إثارة الكراهية العنصرية ، إلى تعبئة الرأى العام لإمكان القيام بغزوة

جديدة ، إلى استمرار تحـقير المسلمين والعرب[٧] . وأعتقد أنه لا يكاد يكون فى هذا كله أى نشدان للحقيقة ؛ بل إن القائمين بذلك دائمًا مـا ينكرون ، بكل تأكيد ، أنهم يقصـدون التلاعب تحقـيقًا لأهدافهم، ولكننـا نجد أن أقوالهم تصـدر وأهدافهم تتحـقق وقد تسترت برداء البحث الأكاديمى بل الخبرة العلمية التى تخفيها. ومن العواقب الطريفة أنه حين تتبرع البلدان الإسـلامية بالمال للجامعات الأمريكية لإنفاقه على الدراسات العربية أو الإسلامية تعلو أصوات الغضب الليـبرالية احتجـاجًا على التدخل الأجنبى فى الجـامعات الأمريكية ، وحين تتبرع اليابان أو ألمانيا بالمال فلا يسمع أحد صوتًا لشاك. وأمـا عن تأثير ضغوط الشـركات على الجامعـات، فذلك أيضًا يعتبر بصفة عامة أمرًا مقبولاً ولا غبار عليه[٨] .

وحتى لا ينطبق علـىّ ، فيما يبـدو ، التعريف الذى وضـعه أوسكار وايلد للمـتهكم السـاخر بدقة - وهو فى رأيـه من يعرف لكل شىء سعـرًا ولا يعرف لأى شىء قيمة - أجـد لزامًا علىّ أن أقول فى الخـتام إننى أدرك الحـاجة إلى آراء الخبـراء المطلعين على بواطن الأمـور ، وإنه من المحتـمل أن تتخـذ الولايات المتـحـدة باعـتبـارها دولة عظمى مواقـف إزاء العالم الخـارجى لا تتخـذها الدول الصغرى ، وأن تضع لنفسها سـياسات خاصة بها بناءً على تلك المواقف ؛ كما إننى لا يزال يحدونى أمل كبير فى أن تتحسَّنَ الأحوال السيـئة السائدة الآن ، ومع ذلك فأنا لا أشـارك الكثيرين من الخبراء وواضعى السياسات والمثـقفين بصفة عامة إيمانهم القوى

والراسخ بمفهوم ''الإسلام'' لديهم ، بل إننى ، على العكس من ذلك ، كثيرًا ما أرى فيه عقبة ، بدلاً من أن يكون عونًا على تفهّم الدوافع التى تحرك الناس والمجتمعات . أما ما أومن به حقًا فهو وجود حاسة نقدية ، ووجود المواطنين القادرين والمستعدين لاستخدامها فى تخطىّ وتجاوز المصالح الخاصة للخبراء وأفكارهم التقليدية . ويستطيع كل قارئ أن يعتمد على المهارات التى يتمتع بها صاحب النظرة النقدية الصائبة فى التمييز بين الخطأ والصواب، وبين الغث والسمين ، وأن يطرح الأسئلة المناسبة ويتوقع الإجابات المناسبة ، ومن ثم يتمكن من معرفة ما يريد إما عن الدين الإسلامى أو عن عالم الإسلام ، وعن الرجال والنساء والثقافات التى تعيش فيه ، وتتكلم لغاته وتتنفس هواءه وتصنع تاريخ كل بلد فيه وتنشئ كل مجتمع من مجتمعاته . وعندها تبدأ المعرفة الإنسانية الحقة ، ويبدأ الناس فى تحمل المسئولية الجماعية عن تلك المعرفة ، وما كتبت هذا الكتاب إلا فى سبيل ذلك الهدف .

ولقد سبق نشر بعض أجزاء من الفصلين الأول والثانى فى صحيفتى '**ذانيشن**' **وكولمبيا چورناليزم ريڤيو**، وأود أن أعرب عن امتنانى الخاص إلى روبرت مانوف ، الذى تولى رئاسة تحرير الصحيفة الأخيرة لفترة قصيرة فجعل منها فى إبانها مجلة ناجحة.

وفى غضون جمعى للمادة الخاصة ببعض أقسام هذا الكتاب تلقيت العون من مساعدْين قديرين هما دَجْلاس بولدوين وفيليب

شحـاده ، وتولى پول ليبارى إعـداد المخطوط فى صورته النهـائية بمهارة علمـية وكفاءة فـائقة . وأعرب عن امتنانى كـذلك لألبرت سعيد لما قدمه لى من سخيّ العون .

أمـا عن النقد الفكرى والملاحـظات الحصـيفـة فأنا أدين بهـا للكثيـرين ، ومنهم من لم يقدر لى أن أقابله وإن كنت قـد تلقيت الرسائل التى تحمل أفكارًا ودراسات وتعليقات أفدت منها جميعًا، وأخص بالذكر فريد هاليداى ، وميريام روزن ، ووليم جرايدر ، وإرڤارد أبراهاميان ، ووليم دورمـان ، ومنصور فرهنك ، ونيكى كيدى ، وميلودى كيميل ، وتشارلز كيمبول ، وستيوارت شار .

وأود أن أشيـر إلى الديْن الخاص الذى أدين به لرفيـقى العزيز إقبـال أحمد ، صاحب المعـرفة الموسوعيـة الذى لا يضنُّ بالإجابة على سـؤال سائل فـزدونا بالغـذاء الفكـرى فى فـتـرات التخـبط والمحن. وقام چيمس پيك بقراءة المخطوط فى إحدى صوره المبكرة وقدم لى اقتراحـات رائعة مفصلة لمراجعته ، وإن كـان لا يعتبر ، بطبيعة الحال، مسئولاً عما بقى به من مثالب ، ويسرنى أن أشكره وأقدر له مساعدته التى لا غنى عنها . وتولت چين مورتون ، من دار نشر **پانثيـون بوكس** تحرير المخطوط بلبـاقة ويقظة ، فـأنا لها ممتن. ولا يفوتنى أن أتقـدم بالشكر كذلك إلى أندريه شيـفرين لما أبداه من حكمة وحـصافـة فكرية ، إذ يتحلى بالشـجاعة صـديقًا ومحررًا وناشرًا .

وأما مريم سعيد ، التى أُهدى إليها هذا الكتاب ، فأكاد أقول إنه لولاها لما بقى المؤلف فى قيد الحياة فى أثناء كتابة الكتاب . ومن ثم أعرب لها عن شكرى العميق على حبها ومرافقتها إياى ووجودها الملهم .

أ. و. س.
نيويورك
أكتوبر ١٩٨٠

استدراك :

فى ٢٠ يناير ١٩٨١ غادر إيران ، آخر الأمر ، الأمريكيون الاثنان والخمسون ، بعد أن ظلوا محتجزين فى سفارة الولايات المتحدة لمدة ٤٤٤ يومًا . وبعد عدة أيام وصلوا إلى الولايات المتحدة ، فقوبلوا بترحاب شديد وبفرحة البلد الصادقة لعودتهم. وغدت "عودة المحتجزين" ، كما أصبحت تسمى ، بمثابة احتفال إعلامى دام أسبوعًا كاملاً ، فخصص التليفزيون ساعات طويلة حلت محل برامجه العادية ، أفعمها المعلقون بالأشجان ، للتغطية المباشرة لمراحل نقل "العائدين" إلى الجزائر ، ثم إلى ألمانيا، ثم إلى قاعدة 'وست بوينت' الأمريكية ثم إلى واشنطن ، وأخيرًا إلى بلدانهم الأصلية. وأصدرت معظم الصحف والمجلات الأسبوعية ملاحق خاصة بالعودة ، تتراوح بين التحليلات العلمية لكيفية التوصل إلى الاتفاق النهائى بين إيران والولايات المتحدة وما

استـتبعه ذلك ، وبين الاحـتفالات بالبطولة الأمـريكية والهمجـية الإيرانيـة . وقد تخللت ذلك كـله قصص شـخصـية عن مـحنة الرهائن ، مزركشة بأقلام الصحفيين المبرزين ، وبما بدا بمثابة العدد الكبيـر (المثيـر للفزع) من الأطباء النفـسيين الحـريصين على شرح **حقـيقـة** ما كـابده المحتـجزون . أما إذا تجـاوزت المناقشـة الجادة للماضى وللمستقبل 'الشرائط الصفراء' التى كانت ترمز للأَسْر فى إيران ، فإن الإدارة الأمـريكية الجـديدة حددت ' نغمة' ما يقال ورسمت حدوده . فكان تحليل الماضى يتركز فيما إذا كان للولايات المتحدة أن تعقد ذلك الاتفاق مـع إيران (وإذا ما كان عليها الالتزام به) وفى يوم ٣١ يناير ١٩٨١ نشرت صحيفة **نيوريببلك** هجومها المتـوقع على " الفدية" ، وانتـقدت إدارة الرئيـس كارتر بسـبب استسـلامها للإرهابيين ، ثم أدانت "الفكرة المشكوك فى صحـتها القـانونية برمـتهـا" أى مـجرد التـعـامل مع مطالب الإيرانيين ، واستـخدام وسـاطة الجزائر ، قائلة إنـها بلد "طالت ممارسة أهله لاستضافـة الإرهابيين وغسيل أموال كل فدية يحـصلون عليها" ، وأما مناقـشة المستقـبل فقد وضع حدودها مـا أعلنته إدارة الرئيس ريجان من حـرب على الإرهاب ، قالت الصـحيـفة إن الأولوية الجـديدة لسيـاسات الولايات المتحـدة لا يجب أن تكون حقـوق الإنسان بل مـحاربة الإرهاب ، ولو اقـتضى الأمر مـساندة بعض "نظم الحكم المعتدلة فى قمعها للشعب" إذا كانت من حلفائنا .

وبناءً على ذلك كـتب الصـحفـى بيتـر س. سـتيـوارت فى

كـريستـيـان سيـانس مـونيتـور يوم ٢٩ يناير ١٩٨١ يقول إنه من المحتمل أن يعقد الكونجـرس جلسات لمناقشة "الشروط الواردة فى الاتفاق الخاص بإطلاق سراح الرهائن . . . ومعاملة الرهائن . . . وإجراءات أمن السفـارة . . . [وباعتبار ذلك ذيلاً عارضًا] مـستقبل العلاقات بين الولايـات المتحدة وإيران" . وكان مما يتفق تمامًا مع النطاق الضيق والمُركّز للمشكلات التى بحثـتها أجهزة الإعلام أثناء الأزمة (وباستثناءات قليلة) أن أحدًا لم يتـعمق فى فحص ما تعنيه محنة الرهائن ، وما توحى به حول المستقبل ، وما يمكن أن نتعلمه منهـا. وذكرت صـحـيفـة **صنداى تايمز** اللندنيـة يوم ٢٦ يناير أن الرئيس كارتر أشار على وزارة الخارجيـة الأمريكية ، قبل أن يترك منصبه ، فيما زعمت ، "بالتركيز فى عملها الجماهيرى كله على إثارة موجـة سخط واستـياء من الإيرانيين" . وسواء كان هذا قد حـدث فى الواقع أم لا ، فـإنه يقـبل التـصـديق ، على الأقل ، خصوصًا لأننا لم نجد من يبدى اهتمامًا بإعادة تقييم التاريخ الطويل لتدخل أمـريكا فى إيران وغيـرها من بلدان العالـم الإسلامى بين المسئـولين الحكوميين ، وإن تعرضت لذلـك قلة لا تكاد تذكر من كتـاب الصحف والصـحفيين . وكـثر الحديث عن مـرابطة بعض القوات بـصفة دائمـة فى الشرق الأوسط ، وعلى نقـيض ذلك ، وجـدنا أنه عندمـا عُقـد مـؤتمر القمـة الإسـلامى فى الطائف فى الأسبـوع الأخير من يـناير ، كان نصيـبه التجـاهل شبـه التام فى أجهزة الإعلام الأمريكية .

وكانت الآراء تطرح قضـية القصاص وتعلو فيهـا نبرات تأكيد قوة الولايات المتـحدة مـصحوبةبعـزف سيمـفونية مـحنة الرهائن وعودتهم المظفرة بتفـصيلات شجية . وتحوّل الضحـايا مباشرة إلى أبطال (الأمر الذى أغـضب شتى هيـئات قدامى المحـاربين وأسرى الحرب السابقين – وهو أمر مفهوم) كما تحولوا إلى رموز للحرية، وتحول محـتجزوهم إلى وحوشٍ دون المـستوى الآدمى . وتحقـيقًا لهذه الغاية قالت صـحيفة **نيويورك تايمز** فى مقالها الافتتاحى يوم ٢٢ يناير "فلنعرب عن مشاعر الغضب والسخط فى هذه الساعات الأولى من إطلاق سراحهم" وبعد أيام تأمل فيها المحررون الموقف جاءت الصـحيفـة يوم ٢٨ يناير بالأسئلة التـالية : "ما الذى كان ينبغى أن نفـعله ؟ إن بث الألغام فى المرافئ أو إنزال قوات مـشاة البـحـرية ، أو إلقـاء بعض القنابل ، قـد يبث الخـوف فى قلوب الأعـداء العـقـلاء ، ولكن هل كـانت إيران ، وهل إيران الآن ، عاقلة ؟" لا شك ، كمـا قال فـريد هاليداى فى صـحيـفة **لوس أنجيليس تايمز** يوم ٢٥ يناير ، أن إيران كانت تزخر بما يمكن توجيه الانتقاد إليه ، بعد فشل الحـماس الدينى والغليان الثورى المتواصل فى إيجاد دولة حديثة قادرة على اتخاذ القرارات اليومية الكفيلة بأن تعود بالفائدة على الشعب كله ، كما كانت إيران تعانى من العزلة الدولية والتعرض للأخطار ، كما كان من الواضح ، دون شك ، أن الطلاب الذين احتلوا السفارة لم يتلطّفـوا فى معاملة أسراهم . ولكن أحدًا لم يقل ، حـتى المحتجزون الاثنان والخـمسون ، إنهم

قد تعرضوا لـلتعذيب أو المعاملة الوحشيـة المنتظمة ، وهو ما تجلّى فى نص الأقوال التى أدلوا بهـا فى المؤتمر الصحفى الذى عُـقد فى قاعدة **وست بوينت** (انظر صحيفة **نيويورك تايمز** بتاريخ ٢٨ يناير) حيث تقـول إليزابيث سويـفت بصراحة تامـة إن مجلة **نيوزويك** كذبت فيما روته عـنها ، واخترعت قصة عن التعذيب (ضـخّمتها أجهزة الإعـلام إلى حد بعيد) دون أن يكون لها أسـاس تستند إليه فى الواقع .

وهكذا أدت عـودة المحتجـزين إلى ''الترخـيص'' بالانتـقال المفاجئ من تجربة مـحددة - مضنية ومحـزنة وطويلة الأمد بصورة مريرة - إلى التعميمات الشاسعة عن إيران وعن الإسلام فى أجهزة الإعلام وفى الثقـافة بصفة عامـة . وهكذا ، وبتعبير آخـر ، محا الإعلاميـون ببساطة معالم القـوى السياسيـة المحركة فى باطن هذه التجربة التـاريخية المعقدة والمتشـابكة تحقيقًا لحالة غريـبة من فقدان الذاكرة ، فإذا بنا نعود إلى المبادئ الأسـاسية القديمة ، إذ قال بوب إنجل فى صحيفة **أتلانتا كونستيتيوشن** يوم ٢٣ يناير إن الإيرانيين لا يزيدون عن كونهم ''مخبولين أصوليين'' ، وقالت كلير ستيرلينج فى **واشنطن بوست** يوم ٢٣ يناير إن قصـة إيران من معالم ' عقد الخوف الأول' أى شن الإرهابيين الحرب على الحضارة . وقال بيل جـرين فى الصفـحة نفـسهـا من **واشنطن بوست** إن '' البشـاعة الإيرانية'' قد تؤدى إلى أن تتـحول ''حرية الصـحافة'' فى تغطية أنباء إيران ''إلى سلاح موجـه مباشرة إلى قلب القوميـة الأمريكية

وكرامة أمريكا'' ، وقد عاد جرين بعد قليل إلى التلطيف من حدة هذا الجمع الغريب بين التعبيـر عن الثقة والقلق حين تساءل إذا ما كانت الصحافة قد ''ساعدتنا'' فى تفهم ''ثورة الإيرانيين'' ، وهو السؤال الذى أجاب عنه بسهولة مارتن كوندريك فى **وول ستريت چورنال** بتاريخ ٢٠ يناير إذ كـتب يقول ''إن التليفـزيون الأمريكى [باستثناءات قليـلة] عالج الأزمة الإيرانية معـالجته ''لعرض للشواذ الذين يضمون من يضربون أنفسهم ويلوّحون بقبضاتهم فى الهواء، أو معالجته للمسلسلات الدرامية التليفزيونية'' .

ومع ذلك فقد تميز عدد من الصحفيين بتأملاتهم الصادقة مثل هـ. د. س. جرينواى الذى أقر فى صـحيفة **بوسطن جلوب** يوم ٢١ يناير بأن ''مـصالح الولايات المتـحدة قـد تضررّت من جـراء تسلُّط أزمة الرهائن على العقل الأمريكى ، دون غيرها من القضايا الملحة'' ، لكنه اسـتطاع أن يصل إلى نتـيجـة واضحـة وهى أن ''حقـائق التعددية فى عالـم اليوم لن تتغيـر ، وأن الإدارة الجديدة سوف تلتزم بالحـدود العملية للقوة فى أواخر القـرن العشرين'' . وفى العدد نفسه من هذه الصحيفة كتب ستيڤن إرلانجر مقالاً يمتدح فيـه الرئيس كارتر لأنه نجح فـى نزع فتيل الأزمـة ومن ثم فى أن جعل المناظرة أقدر على ''إيجاد المزيد من التعـقل وتقليل الشحنة الانفعـالية'' . أما صحـيفة **نيوريـبـبلك** فقـد أنحت باللائمة من ناحيـتها (٣١ ينايـر) على صحيـفة ''الجلوب المتصـالحة دومًا مع الواقع'' أو قل إنها قالت ، بعبارة أخرى ، إن أفضل سبل التعامل

مع إيران هو اعتبارها انحرافًا فى مسيرة بناء القوة الأمريكية ومحاربة الشيوعية . بل إن هذا الاتجاه الهجومى فى جوهره قد وجد من يرقى به إلى مصاف الأيديولوجية شبه الرسمية لأمريكا . إذ كتب روبرت و. تاكر مقالاً بعنوان "أغراض القوة الأمريكية" فى مجلة **فورين أفيرز** (شتاء ١٩٨٠ - ١٩٨١) يقول فيه إنه يسير فى خط جديد ، يقع ما بين دعاة "النهضة الأمريكية" ودعاة " الانعزالية" . أما فيما يتصل بالخليج العربى وأمريكا الوسطى فيقترح اعتماد سياسة التدخل الصريح ، لأن الولايات المتحدة لا تستطيع أن "تسمح" بأىّ تغييرٍ فى النظام الداخلى لكل من هاتين المنطقتين أو بانتشار النفوذ السوڤييتى . وفى أى حال من هذين ، لابد أن تتولى الولايات المتحدة بنفسها البت فيما كان التغيير مما يُسمح أو لا يسمح به . كما اقترح أحد الزملاء الذين يشاركونه نفس التفكير ، وهو الأستاذ ريتشارد پايپس من جامعة هارڤارد ، أن تقسم الولايات المتحدة العالم إلى معسكرين بسيطين : الأمم الموالية للشيوعية ، والأمم المعادية للشيوعية .

وإذا كانت العودة إلى الحرب الباردة تتضمن على أحد مستوياتها ، فيما يبدو ، الإلحاح الجديد على القوة الذاتية ، فلقد أدت أيضًا إلى تشجيع ما برز من خداع النفس . وأما الأعداء فيضمون أى شخص يسأل الغرب النظر فى ماضيه ، لا بغرض الإحساس بالذنب بل من أجل الوعى بذاته ، وأمثال هؤلاء لابد من تجاهلهم وحسب . وقد وقعت حادثة رمزية بالغة الدلالة على

ذلك أثناء المؤتمر الصحفى الذى عُقد فى قاعدة 'وست بوينت' ، إذ قال أحد الحاضرين "إن حكومة الولايات المتحدة بلغت ذروة النفاق عندما تحدثت عن التعذيب" بعد أن سمحت وتغاضت عن تشويه أجسام الإيرانيين فى ظل حكم الشاه السابق . وهنا قال بروس لينجن ، القائم بالأعمال فى السفارة الأمريكية فى طهران، ويعتبر أعلى الدبلوماسيين الأمريكيين منصبًا فى إيران ، إنه لم يسمع السؤال ، بل زعم ذلك مرتين ، ثم انتقل بسرعة إلى الحديث عن الموضوع الأنسب والأقرب إلى قلبه وهو الوحشية الإيرانية والبراءة الأمريكية .

ولم يتساءل أحد ، لا من الخبراء أو الإعلاميين أو من المسئولين الحكوميين، عما كان عساه أن يحدث لو خصصوا ولو جانبًا ضئيلاً من الوقت الذى أنفقوه فى عزل وتضخيم وتغطية حادث الاستيلاء غير المشروع على السفارة وعودة المحتجزين ، فى فضح ما شهده عهد الشاه السابق من ظلم ومن وحشية . ألم يضع أحد حدودًا لاستخدام جهاز جمع المعلومات الشاسع فى إعلام الجمهور الذى أصابه القلق ، وله ما يبرره فعلاً ، بما كان يجرى فى الحقيقة داخل إيران ؟ وهل انحصرت البدائل حتمًا فى إثارة المشاعر الوطنية أو زيادة إشعال ذلك اللون من الغضب الجماعى من جنون إيران ؟

ليست هذه أسئلة فارغة المضمون ، بعد أن انتهت أحداث هذه الواقعة التى بالغوا فى تضخيمها مع الأسف . وسوف يكون

من المفيـد ، ومن المطلوب من الناحـية العمـلية للولايات المتـحدة بخاصة وللغرب بصفة عامة ، أن نتفـهّم التغيير فى تجمعات القوى فى السياسـة العالمية : هل يظل "الإسلام" محصورًا أو مـقصورًا على دور المورّد الإرهابى للنفط ؟ هل تركز الصحف والتـحقيقات على "من أضاع علينا إيران" أم تناقش وتنفق وقـتًا مـا فى تأملٍ أجدى وأنفـع لموضوعات أخـرى أكثـر ملاءمـة للمجتـمع الدولى والتنمية السلمية ؟

ولقد وجدنا ما يدلنا على قدرة أجهزة الإعلام ، مثلاً ، على تحمل مسئـوليتها وبذل طاقتها الهائلة فى الإعـلام الجماهيرى حين شهدنا البرنامج الخاص الذى بثته شبكة إيه . بى . سى . واستمر ثلاث ساعـات عن "المفـاوضات السـرية" يومى ٢٢ و ٢٨ يناير ١٩٨١ . ففى إطار الكشف عن شـتى الأساليب التى استـخدمت لتحرير الرهائن ، أماط البرنامج اللثام عن قدر هائل من المعلومات التى لم نكن نحـيط بها ، وكان أشـدها دلالةً تلك اللحظات التى أسقط البرنامج الضوء فيها ، فـجأة ، على بعض المواقف العميقة الراسخة فى اللاوعى .

ومن بين هذه اللحظات اللحظة التى وصف فـيهـا كريستـيان بورجـيه مـقابلتـه فى أواخر مـارس ١٩٨٠ للرئيس چيمى كـارتر واجتمـاعه به فى البيت الأبيض . وكـان بورجيه محـاميًا فرنسيًا يرتبط ببعض الروابط مع الإيرانيين ، وقـد عمل من ثَمّ وسيطًا بين الولايات المتحدة وإيران .

وكان قد جاء إلى واشنطن لأن الـشاه المخلوع رحل فجأة إلى مصر ، رغم اتخاذ الترتيبات اللازمـة مع الحكومة الپانامية للقبض عليه ، وهكذا عاد الجميع إلى نقطة الصفر . يقول بورجيه :

"مرت لحظة تحدث فيـها [كارتر] عن الرهائن قائلاً : هؤلاء أمـريكيون كـما تعـرف . وهم أبرياء . وقلت له : سيدى الرئيس : أفـهم ما تقوله عن براءتهم لكننى أرى أن عليك أن تفهم أنهم ليسوا أبرياء فى نظر الإيرانيين . وحتى لو لم يكن أحد منهم قـد ارتكب بنفسه فعلاً مـا ، فليسوا أبرياء لأنهم دبلوماسـيـون ، يمثلون بلدًا فعـل أشياء كـثيرة فى إيران .

"يجب أن تفـهم أن الاحتـجاز ليس مـوجهًا إليـهم بصفتهم الشخصيـة . تستطيع أن تدرك ذلك بطبيعة الحال. ولم يمسسهم أحد بأى أذى ، ولم يعـتد عليهم أحد . ولم يحاول أحـد قتلهم . يجب أن تفـهم أن الاحتجـاز رمز ، يجب أن نضع هذا الأمر على مستوى الرموز فى تفكيرنا .

[نص الحديث المذاع قدمته مع الشكر ڤيرونيكا بولارد من شبكة إيه . بى . سى نيويورك]

والواقع ، فيما يبدو ، أن كارتر كان ينظر إلى الاستيلاء على السفارة نظرته إلى العمل الرمزى ، ولكنه كان يختلف عن المحامى الفـرنسى فى الإطار الفكرى الذى يضـعه فـيه . إذ كـان يرى أن

جميع الأمريكيين – تعريفًا – أبرياء وأنهم يعيشون ، من زاوية ما، خارج التاريخ . وقد قال فى مناسبة أخرى إن شكاوى إيران من الولايات المتحدة تعتبر تاريخًا عفّى عليه الزمن، ولا يهم الآن سوى أن الإيرانيين إرهابيون ، وربما كانوا على مر الدهر أمة إرهابية بالنّيّة والمقصد إن لم يكن بالفعل ، وأضاف قائلاً إن كل من يكره أمريكا ويحتجز رعاياها رجل خطر مريض، تجاوز العقلانية ، وتجاوز الإنسانية ، وتجاوز دماثة الخلق البسيطة .

لم يكن كارتر يستطيع أن يربط بين ما يقوله بعض الأجانب عن مساندة الولايات المتحدة التى طال أمدها للحكام المستبدين فى بعض البلدان ، وبين ما يحدث للأمريكيين المحتجزين دون وجه حق فى طهران ، وعجزه عن هذا الربط من الأعراض البارزة لما نتحدث عنه . فَمَهْمَا يبلغْ من معارضتنا الشاملة لاحتجاز الرهائن، وفرحتنا بإطلاق سراحهم وعودتهم ، فلا نستطيع تجاهل الدروس المفزعة المستفادة مما يبدو أنه اتجاه رسمى وقومى لتناسى بعض حقائق الواقع ، فنحن نعلم أن جميع العلاقات فيما بين الناس والأمم تضم طرفين ، وأنه لا يوجد على الإطلاق ما يوجب "علينا" أن نحب أو أن نوافق " عليهم" ، ولكن يجب علينا على الأقل أن نتبيّن (أ) "أنهم" موجودون ، و(ب) أن رؤيتهم لنا تجمع بين ما "نحن" عليه (من وجهة نظرهم) وبين سائر ما أضافته إلى صورتنا خبرتُهم فى التعامل معنا وما عرفوه عنا . وليست القضية إذن قضية براءة أو ذنب ، ولا هى مسألة وطنية وخيانة ، فلا يسيطر أحد الطرفين على الواقع سيطرة كاملة تسمح

له بتجاهل الطرف الآخر . هذا إلا إذا اعتقدنا ، بطبيعة الحال ، وباعتبارنا أمريكيين ، أنه إذا كان الطرف الآخر مُذْنِبًا بجوهر وجوده ، فلابد أن نكون أبرياء .

ولننظر الآن فى هذه الوثيقة المفيدة التى قدمتها أجهزة الإعلام، وهى البرقية السرية التى أرسلها بروس لينجن من طهران إلى سيروس ڤانس وزير الخارجية يوم ١٣ أغسطس ١٩٧٩ ، فهى وثيقة تتمشى تمامًا مع الموقف الذى اتخذه كارتر فى أحاديثه مع بورجيه ، ونشرتها صحيفة نيويورك تايمز فى صفحتين متقابلتين يوم ٢٧ يناير ١٩٨١ ، ربما للمساعدة فى تركيز انتباه الأمة على طبيعة الإيرانيين الحقة ، وربما باعتبارها هامشًا أو حاشية ساخرة على الأزمة التى انفرجت قبل قليل . ولكن رسالة لينجن ليست وصفًا علميًا ''للنفسية الفارسية'' التى يناقشها ، رغم تظاهر المؤلف بالموضوعية الهادئة ومعرفته الفياضة بالثقافة ''الفارسية'' ، بل يُعتبر نصُّ البرقية بيانًا أيديولوجيًا يهدف ، فى رأيى ، إلى تحويل بلاد ''فارس'' إلى جوهر لازمنى مثير للقلق الحاد ، ويُعْلى من ثَمّ من الشرعة الأخلاقية الفائقة والصحة النفسية القومية للطرف الأمريكى فى المفاوضات . وهكذا فكل مقولة عن بلاد ''فارس'' تضيف أدلة إدانة إلى الصورة وتقدم الدرع اللازم لحماية أمريكا من أى فحص أو تحليل لموقفها .

ويتحقق هذا التعامى لغويًا بأسلوبين جديرين بأن ننعم النظر فى كل منهما . الأول هو حذف التاريخ أو استبعاده من جانب

واحد [أى من جـانب أمريكا] فإذا بالكاتب وقـد أقلع عن الحديث عن "الآثار الناجمة عـن الثورة الإيرانية" وأخذ يتـحدث بدلاً من ذلك عن "الخصـائص النفسية والثـقافيـة . . الثابتة نسبـيًا" والتى تتسم بها "النفسيـة الفارسية" . وهكذا تحولت إيران الحديثة إلى بلاد فارس غيـر المحددة بزمن . فإذا اتبعنا هذا المنهج غـير العلمى أصـبح الإيطالى يشار إليـه بتعـبيـر " داجو" (أى أسمـر اللون) واليهـودى بتعبـير "يديش" (أى يهودى ألمانى) والأسـود بتعبـير "زنجى" وهكذا . (وهى ألفاظ التـحقيـر التى يستخـدمها صبـيان الشـوارع فى مـشـاجـراتهم ، فـهل تراهـم أشـد صـراحـة من الدبلوماسى؟) والأسلوب الثانى هو أن لينجن لا يصـور الشخصية القومية " الفارسية" إلا فى حدود ما يزعـجه من توهّم الإيرانيين للواقع (أى نتـيـجـة للخـيـلاء المرضى [وهو جنـون العظمـة أو الاضطهـاد]) فـهو لا يسلّم بأن الإيـرانيين قد شـعـروا فى الواقع بالخيانة والمعاناة ، بل ينكر عليهم ذلك ، كما ينكر عليهم الحق فى تكوين رأى خـاص عن الولايات المتحـدة استنادًا إلى مـا يرون أن الولايات المتحدة قد قامت به فعلاً فى إيران ، وليس معنى هذا فى رأيه أن الولايات المتحـدة لم تفعل شيـئًا على الإطلاق فى إيران، لكنه يعنى فحـسب أن من حقها أن تفعـل ما تشاء ، دون شكاوى أو ردود أفـعال لا صلة لهـا بالقضـيـة من جانب الإيرانيين، فـإن لينجن لا يرى ما يُعـتدُّ به فى إيران إلا "النفسـية الفارسـية" التى تلغى جميع الحقائق الأخرى .

ويتفق معظم قراء رسالة لينجن ، وهو نفسه بالتأكيد لا ينكر أننا يجب ألاّ نختزل غيرنا من الناس أو من المجتمعات ونحصرهم فى مثل ذلك الجوهر البسيط النمطى الذى أتى به ، ونحن لا نسمح اليوم للناس فى الحياة العامة بمعاملة السود أو اليهود بهذا الأسلوب مثلما قد نسخر بل ونضحك حقًا من التصوير الإيرانى لأمريكا فى صورة الشيطان الأكبر ، فهذا كله أشد إغراقًا مما ينبغى فى التبسيط والأيديولوجية والعنصرية ، ولكن الاختزال يحقق الغاية المنشودة فيما يتعلق بهذا العدو تحديدًا ، أى إيران التى يشير إليها باسم بلاد الفُرْس ، تمامًا مثلما فعل الكاتب مارتن بيريتز فى صحيفة **نيوريبيبلك** إذ نشر صفحة كاملة من النثر الذى ينضح بالعنصرية الصريحة (٧ فبراير ١٩٨١) كتبها كاتب انجليزى فى القرن السابع عشر عن "الأتراك" وقال مارتن بيريتز إنها قطعة "كلاسيكية" تفيد دارسى ثقافة الشرق الأوسط ، ثم أردف قائلاً إنها تدلنا على طرائق سلوك المسلمين . ونحن نتساءل ماذا يكون رد فعل بيريتز لو نشر أحدهم صفحة من نثر القرن السابع عشر عن "اليهود" وقال إنها مرشد يدلنا على طرائق السلوك "اليهودى" . والسؤال هو ما الهدف من نشر أمثال هذه الوثائق (رسالة لينجن أو 'صفحة' بيريتز) ما دامت لا تعيننا ، كما سوف أشرح ، على أن نحيط بأى شىء عن الإسلام أو إيران ، ولا تساعدنا - فى سياق التوتر الناشئ بين الولايات المتحدة وإيران بعد الثورة - فى تحديد ما يمكن للغرب أن يفعله هناك .

أما حجـة لينجن فتقول إنه مهـما يحدث "فالفُرْس ميالون" إلى مقاومة "المفهوم العقلانى نفسه [من وجهة النظر الغربية] لعملية التـفاوض" أى إننا نسـتطيع أن نكون عـقـلانيين لكن الفُـرْس لا يستطيعون . لماذا ؟ لأنهم فى رأيه يغلّبون أنانيتهم على كل شىء ، والواقع فى نظرهم شـر ، وعقليـة "السـوق الشرقـية" (البازار) تفضل تحقيق المزية الحاضرة على الكسب فى الأجل الطويل ، والله القدير (سبحانه) عند المسلمين يجـعل من المحال عليهم أن يفهموا قـانون العلة والمـعلول ، واللغـة لديهم غـيـر مـرتبـطة بالواقع . وباختصار - وبناءً على هذه الدروس الخمـسة التى يستخلصها من تحليله - ينتهى لينجن إلى القول بأن "الفارسى" مفاوض لا يعتمد عليه ، لأنه لا يشعر بوجود "الطرف الآخر" ، ولا يتمتع بالقدرة على الوثوق به أو حسن الظن به لا بل ولا بقوة الشخصية اللازمة للوفاء بما وعد به بلسانه .

وترجع رشاقة هذه الفكرة المتواضعـة وجاذبيتها إلى أن كل ما جـاء بها منسـوبًا إلى " الفارسى" أو المسلم ، دون أية أدلة على الإطلاق ، يمكن تطبيقه بحذافيره على "الأمريكى" ، ذلك المؤلف شبـه الخيالى وغـير المسـمى والمستتـر خلف الرسالة . ومَنْ غـيرُ الأمريكىّ ينـكرُ التاريخ والواقع عندما يـزعم ، من طرف واحد ، أن هذين لا يعنيان أى شىء "للفارسى" ؟ ولتلعب الآن إذا أردت هذه اللعبة المنزليـة : اذكر خصيصة رئيسـية ثقافية واجتـماعية فى

'اليهودية - المسيحية' مرادفة لإحدى الخصائص التى ينسبها لينجن إلى " الفارسى" . الأنانية الـغلابة ؟ چان چاك روسو . تـصوير الواقع فى صـورة الشرير ؟ كـافكا . الله القـادر على كل شىء ؟ العهد القديم والعهـد الجديد . عدم سريان منطق العلة والمعلول ؟ بيكيت . عـقلية البازار ؟ بـورصة نيويورك . الخلـط بين الألفاظ والواقع ؟ الفيلسـوفان أوستن وسيرل . ولكن يندر أن يـقوم أحد بتكوين الصورة التى تمثل جـوهر الغرب اقتصـارًا علـى اقـتباس مـا قاله كـريسـتـوفـر لاش عن النرجـسيـة ، أو كلمـات واعظ مستمسك بحرفية العقيدة ، أو محاورة **كراتيلوس** لأفلاطون ، أو إعـلان مسـجوع مـنغّم أو إعـلانين ، أو (إذا أراد تبـيان عـجـز الغـرب عن الإيمان بوجود واقع ثابت خيّر) كتاب **مسخ الكائنات** للشاعر أوڤيد مع زركشـته بآيات مـختارة من سـفر **اللاويين** فى الكتاب المقدس .

إن رسالة لينجـن تقوم بوظيفـة معادلة لمثـل هذه الصورة التى رسمناها ، وكان من المحتمل ألا تزيد الرسالة لو وردت فى سياق آخر عن صورة كاريكاتورية فى أفـضل الحالات ، وأما فى أسوئها فكان يمكن اعتبارها هجومًا فظًا محدود الضرر ، بل وليست ذات تأثير يذكر باعـتبارها جزءًا من الحرب النفسـية ، لأنها تكشف من نقاط ضعف الكاتب أكثر مما تكشف عنه من نقاط ضعف خصمه، إذ تُبيِّن ، عـلى سبيل المثـال ، أن المؤلف يساوره قلـق شديد إزاء

نظرائه ، وأنه لا يستطيع أن يرى الآخرين إلاّ مرايا تعكس له صورة ذاته . ترى أين ذهبت قدرته على تفهم وجهة النظر **الإيرانية** ، أو حتى الثورة الإسلامية نفسها وهى التى نفترض أنها ما اندلعت إلا نتيجة مباشرة للاستبداد **الفارسى** الذى لا يطاق ولضرورة الإطاحة به ؟

وأما عن حُسْنِ الظّن والثقة فى عقلانية عملية التفاوض ، فحتى لو تناسينا أو أغفلنا ذكر أحداث عام ١٩٥٣ ، فلنا أن نقول الكثير عن محاولة الانقلاب التى قام بها الجيش لإجهاض الثورة، والتى لقيت التشجيع المباشر من الجنرال الأمريكى هايزر فى أواخر يناير ١٩٧٩ ، وكذلك عما فعلته مصارف أمريكية كثيرة (وهى التى عادةً ما كانت تطيع الحكومة فتتحايل على القواعد لإرضاء الشاه) فإذا بها تبدى استعدادها فى عام ١٩٧٩ لإلغاء عقود القروض الإيرانية المبرمة عام ١٩٧٧ محتجة بأن إيران لم تدفع الفوائد فى مواعيدها ، وإن كان محرر صحيفة **لوموند** الفرنسية إريك رولو قد ذكر فى ٢٥ - ٢٦ نوفمبر ١٩٧٩ أنه شاهد بعينه الدليل على أن إيران قد دفعت الفوائد **قبل حلول** مواعيدها . ولا غرو إذن أن ينظر "الفارسى" إلى نظيره باعتباره غريمًا ، فهو **ولا شك** غريم ، وغريم غير مطمئن لذاته ، فذلك ما يقوله لبنجن صراحة .

ولكن فلنقل إن القضية ليست قضـية إنصاف بل قضية دقة :
إن ممثل الولايات المتحدة فى المنطقـة يسدى المشورة إلى واشنطن ، فما الذى تراه يـستند إليه ؟ حفنة من القـوالب اللفظية المأثورة عن المستـشرقين والتى كان يمكن أن تكون تكرارًا حـرفيًا لما قاله السـير ألفـريد ليـال فى وصف العـقل الشـرقى ، أو من حـديث اللورد كـرومر عن تعـامله مع أبناء الـبلد فى مصـر . وإذا كـان إبراهيم يازدى ، وزير خـارجـية إيران آنذاك ، يـرفض فى رأى لينجن ، الإقرار بأن ''تكون للسلوك الإيرانى عواقـبه على صورة إيران فى الولايات المتـحدة'' فـمن ذا الذى تراه على اسـتعـداد ، من بين صانعى القرار الأمـريكيين ، للإقرار مقدمًـا بأن للسلوك الأمريكى عواقبه على صورة الولايات المتـحدة فى إيران ؟ ولماذا إذن سمحنا للشاه بدخول أمـريكا ؟ أم ترانا نشارك أبناء ''بلاد فارس'' ''ذلك النفور من تحمل الإنسان مسئوليته عما يفعل'' ؟

إن رسالة لينجن ثـمرة من ثمار القـوة الجاهلة الغبـية ، وهى بالتـأكيـد لا تكاد تساهم بشىء يـذكر فى تفـهمنا للمـجتـمعـات الأخرى. فإذا كـانت الرسالة نموذجًا لأسلوب مواجـهتنا للعالم ، فإنها لا توحى بأية ثقة ، وأما إذا كـانت صورة يرسمها الأمريكى **لأمريكا** فهى تسئ إلينا إساءة صريحة . ما فائدتها إذن ؟ إنها تبيّن لنا كيف يقـوم ممثلو الولايات المتحـدة ، ومعهـم جانب كبـير من المؤسسة الاستشراقية ، بخلق واقع وهمىّ لا يتفق مع عالمنا ، ولا

مع عـالم إيران . أمـا إذا عَـجَـزَتْ الرسـالة عن إيضـاح حكمـة التخلص إلى الأبد من هذه الصور الشائهـة للغير ، فلسوف يواجه الأمريكيـون المزيد من المتاعب الدولية ، ويعـرّضون براءتهم ، مع الأسف ، لتحمّل إساءة جديدة دون نفع يرجى .

ولنُسَلِّمْ إذن بأن إيران والولايات المتـحدة قـد تعرضـتا لمعـاناة مريرة ، ولنُسلِّمْ أيضًا بأن الاستـيلاء على السفارة حادث يدل على وقوع الإيرانيين بِرُمَّتهم فى هوة الفوضى العقيم والرجعية . ولكننا مع ذلك لا نحـتاج إلى استـخلاص حكمـة ناقصـة من استـقراء التاريخ القريب ، فـالواقع يقول إن التغيير يجـرى على قدم وساق فى عالم " الإسلام" مـثلما يجـرى فى الغـرب ، فإذا اخـتلفت الأساليب وسـرعة التغيـير ، فإن التشـابه قائم بين بعض الأخطار وبعض مـصادر القلـق هنا وهناك . وصيـحـات النداء التى تلتف حولها الجماهير المؤمنة بها ، مثل "الإسلام" هناك و"الغرب" هنا (أو "أمريكا") مصدرُ حـفزٍ للهمم أكثر ممـا تُعتبر دعوةً للتـبصّر والتعـمق ، وقد ينشأ عن تـشويه صورة الحـقائق الواقعـة ردٌّ فعلٍ مـسـاوٍ له فى المقـدار ومـضـادٌّ له فى الاتجـاه ، فـإذا بمصطلحى "الإسلام" و"الغرب" وقد أحالا التـحليل إلى مسألة خـلافية ، وأحالا الخـبرة العملية إلى شطـحات خيال . مطلبى هو الاحـترام الواجب للتفـاصيل الملموسة للخـبرة البشرية ، والتـفهم النابع من النظر إلى " الآخر" نظرة ود وتراحم ؛ والمعـرفـة التى تُكتـسب وتُنشر بأمانة أخلاقية وفكرية ؛ فهذه بالتأكيد أهدافٌ أفضلُ وإن لم

تكن أيسر تحـقيـقًا فى الوقت الحاضـر من المواجهـة والعداء الذى يختزل الخصوم ويحقّـرهم . وحبذا لو استطعنا فى سبيل ذلك أن نتخلص نهـائيًا من رواسب الكراهية القديمة والعناوين الـعامة التى تؤذى بعـمومـيتـها الإحـساس مـثل ''المسلم'' أو '' الفارسى'' أو ''التركى'' أو ''العربى'' أو ''الغربى'' .

ا.و.س.
٩ فبراير ١٩٨١
نيويورك

الفصل

الأول

1

تصويـــر الإســـلام

فى الأخبار

أولاً: الإسلام والغرب:

عندما أرادت شركة إديسون المتحدة بنيويورك (شركة كون إيد) أن تُقْنع الأمريكيين بضـرورة توفير مصـادر بديلة للطاقة ، أذاعت إعلانًا تليـفزيونيًا مـثيرًا فى صـيف عام ١٩٨٠، يتـضمن لقطات متـحركـة قديمة لبـعض الشخـصيات المعـروفة فى منظمـة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) - مثل الدكتور أحمد زكى يمانى ، والعقيد معـمر القـذافى ، وبعض الشخـصيـات العربيـة التى تلبس الزى العـربى وإن تكن أقل شـهـرة - ويمزج بينهـا ، بالتناوب ، وبين بعض اللقطات الثـابتة الأخـرى، إلى جانب لقطات لشـخصـيات أخرى ارتبطـت أسمـاؤها بالنفـط والإسـلام مثل الخـومينى ، وعرفـات ، وحافظ الأسـد . ولم يشر الإعـلان إلى أى من هذه الشخصـيات بأسمائها ، ولكن المذيع قـال بصوت المنذر المحذّر إن

"هؤلاء الرجال" يتحكمـون فى مصـادر النفط الأمريكيـة. وكان صوت المذيع القادم من الخلفيـة ذا نبرات وقورة ، ولم يفصح عن أسماء "هؤلاء الرجال" ولا عن البلدان التى ينتمـون إليها ، بل ترك المشاهدين يشـعرون بأن هذه الكوكبة من الأشـرار الذكور قد أوقعـوا الأمريكيين فى قـبضة من يتلذذ بتـعذيبـهم دونما ضابط أو رابط . وكان يكفـى أن يظهر "هؤلاء الرجال" على النحو الذى ظهروا به فى الصحف والتـليفزيون حتى يعتـرى الأمريكيين مزيجٌ من مشاعـر الغضب والاستياء والخوف . وكـانت هـذه المشاعـر هى التى عمـدت شركـة 'كون إيد' إلـى إثارتهـا واستغـلالها فورًا لأسبـاب تجارية محلية ، تمامًـا كما حدث قـبل عام واحد ، عندما ألح ستيوارت أيزنستات ، مستشار الرئيس كارتر للسياسات المحليـة ، على الرئيس أن "يتـخـذ خطوات قـوية لحشـد الأمـة

والالتفـاف حول أزمة حـقيقـية وتحديد عدو واضـح لنا - منظمة أوبك" .

ويتضــمن إعلان شـركة 'كون إيد' عنصرين يشكلان مـعًا موضوع هذا الكتاب . الأول هو ، بطبـيعة الحال ، الإسلام ، أو بعـبارة أخـرى صـورة الإسلام فى الـغرب بصـفـة عامـة ، وفى الولايات المتحدة بصفة خاصة . والثانى هو استخدام هذه الصورة فى الغرب وخصوصًا فى الولايات المتـحدة . وكما سوف نرى ، يرتبط العنصران بعضهما بالبعض ارتباطًا يكشف لنا فى النهاية عن الكثـير فى الغـرب وفى الولايات المتحـدة ، مثلمـا يكشف لنا ، بوسـائل أقل وضـوحًا وطرافـة ، عن بعض جـوانب الإسـلام . ولكن لننظر فى تاريخ العلاقات بين الإسلام والغرب المسيحى قبل أن ننتقل إلى فحص المرحلة الراهنة .

منذ أواخر الـقرن الثامن عـشر ، على الأقل ، وحـتى يومنا هذا، وردود الأفعال الغربية الحديثـة إزاء الإسلام يسيطر عليها نمط تفكير تعرض للتبسيط بصورة جذرية ما زلنا نستطيع أن نطلق عليها صفة التـفكير الاستشـراقى . والأساس العام للفكر الاســتشراقى يقوم عـلى هيكل جغـرافى ينم عن خيـال خصب وإن كان يـتسم بالاسـتـقطاب الجـوهرى ، إذ يقـسم العـالم إلى قـسمين غـيـر متـساويين، أما القسم الأكـبر "المختلف" فاسمـه الشرق ، وأما القسم الآخر ، الذى يُعرف أيضًا باسم "عالمنا" فهو الغرب[1] . ودائمًا ما تنشأ أمـثال هذه التقسيمات عندما ينزع أحـد المجتمعات

(أو إحدى الثقافات) إلى تأمّل مجتمع آخر مختلف أو ثقافة أخرى مختلفة . لكن الطريف هنا هو أن الشرق ، حتى مع اعتباره وباستمرار أدنى مرتبة من الغرب ، دائمًا ما تمتع بما أضفاه الغربيون عليه من تفوق على الغرب فى الحجم وفى القوة الهائلة الكامنة فيه (والتى عادةً ما توصف بأنها هدامة) . ولما كان الإسلام ينتمى فى نظرهم دائمًا إلى الشرق ، أصبح مصيره الخاص داخل هيكل الاستشراق العام هو أن ينظروا إليه فى أول الأمر كما لو كان وحدة متجانسة جامدة ، ثم ينظروا إليه بعد ذلك بمشاعر بالغة الخصوصية من العداء والخوف معًا . ولا شك أن لذلك أسبابه الدينية والنفسية والسياسية الكثيرة ، ولكن كل هذه الأسباب ترجع إلى إحساس الغرب بأن الإسلام لا يقتصر على كونه منافسًا قويًا بل يمثل كذلك تحديًا حديث العهد للمسيحية .

كان الغربيون يعتقدون فى معظم فترات العصور الوسطى وفى إبان مطلع عصر النهضة فى أوروبا أن الإسلام دينٌ شيطانىٌّ يتضمن الرِّدَّة والتجديف والغموض[٢] ولم يكن يعنيهم أن المسلمين يعتبرون محمدًا نبيًّا لا إلها ، وأما الذى كان يعنى المسيحيين فهو أن يصفوا محمدًا بأنه نبىٌّ كاذب ، رجل يبذر بذور الشقاق ، ويحب الملاذ الحسية ، ومنافق وعميل للشيطان . ولكن هذه النظرة إلى محمد لم تكن تقوم على أسس العقيدة ، إن شئنا الدقة فى التعبير ، فالأحداث الواقعية فى العالم الحقيقى من حولهم جعلت من الإسلام قوة سياسية جبارة ، إذ استمرت الجيوش

والأساطيل البحرية الإسلامية العظمى على مدى قرون طويلة تهدد أوروبا ، وتدمر مواقعـها المتقدمة ، وتستعمـر أملاكها. وبدا لهم كأنما بـرزت فى الشرق صورة أخـرى للمسيـحية ، أكـثر شـبابًا ورجولة وطـاقة ، فتـسلحت بعلوم اليـونان القدماء ، وتـدعمت بعقـيدة حربية بسـيطة لا تعرف للخوف سـبيلاً فـانثنت تبغى هدم المسيـحية . واستـمر الخوف مما أطلق الغربيـون عليه اسم ''الديانة المحمدية'' حتى بعد أن تعرض عالم الإسـلام لفترة من التدهور ، وبدأت أوروبا عصـر الرقىّ والنهضة ، ولما كان العـالم الإسلامى أقـوب إلى أوروبا من أى دين غـير مـسيـحى آخـر ، فقـد أدت مـجـاورته لأوروبا فى ذاتهـا إلـى إثارة ذكـريات غـزواته لأوروبا وتذكيرها دائمًا بقدرته الكامنة على إزعاج الغرب ، المرة بعد المرة. أما حضارات الشرق الكبرى الأخرى - ومن بينها الهند والصين - فيـمكن اعتبـارها منهزمة ونائيـة ومن ثم فهى ليست مـصدر قلق مستمر ، وبدا لهم أن الإسلام وحده هو الذى لم يستسلم تمامًا فى أى يوم للغرب ، وعندما بدا أن الـعالم الإسلامى يوشك أن يكرر انتصاراته القـديمة من جديد فى أعقاب الارتفاع الكبيـر فى أسعار النفط فى أوائل السبعينيات ، سرى فى جـسد الغرب كله ما يشبه رجفة الرعب .

ثم جـاء عـام ١٩٧٨ لتـحتل إيران قـلب مســرح الأحـداث وتتسبب فى إحساس الأمريكيين بمشاعر متزايدة من القلق والتوتر. ولم يسبق لبلدان كثيرة تبعـد هذه المسافة وتختلف ذلك الاختلاف

عن الولايات المتحدة أن شغلت الأمريكيين بمثل هذا العمق ، ولم يحدث من قبل أن أحس الأمريكيون ، فيما يبدو ، بمثل هذا الشلل ، إذ بدا أنهم لا يستطيعون أن يحولوا دون تتابع وقوع تلك الأحداث الدرامية المتوالية ، بل ولم يتمكنوا في غمار ذلك كله من نسيان أو تناسى إيران ، إذ كان ذلك البلد يمدُّ يده بتحدٍّ سافرٍ، فيما يبدو ، وعلى مستويات كثيرة ، ليؤثر فى حياتهم . فلقد كانت إيران من كبار موردى النفط فى فترة شحّت فيها موارد الطاقة . وهى تقع فى منطقة شاع اعتبارها غير مستقرة وذات أهمية استراتيجية حيوية ، وكانت حليفًا مُهمًّا ، لكنها فقدت نظامها الامبراطورى ، وجيشها ، وقيمتها فى الحسابات العالمية التى وضعتها أمريكا فى غضون عام واحد من الاضطرابات الثورية الصاخبة التى لم يسبق لها مثيل تقريبًا ، وعلى مثل هذا النطاق الهائل ، منذ أكتوبر ١٩١٧ ، وكان النظام الجديد الذى وصف نفسه بالنظام الإسلامى ، ويتمتع بشعبية ويتسم بعدائه للإمبريالية ، فيما يبدو ، يكافح حتى يخرج إلى الحياة . واستولت صورة آية الله الخومينى واستولى حضوره على أجهزة الإعلام التى لم تستطع إيضاح شىء عنه ، سوى وصفه بأنه عنيد وقوى وغاضب أشد الغضب من الولايات المتحدة . وأخيرًا ، كان من نتيجة دخول الشاه السابق إلى الولايات المتحدة يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٩ أن قامت مجموعة من الطلاب الإيرانيين باحتلال سفارة الولايات المتحدة فى طهران يوم ٤ نوفمبر، واحتجاز عدد كبير من

الرهائن الأمريكيين. وقد كادت الأزمة أن تنفرج وأنا أكتب هذا الكتاب .

ولكن ردود الفعل على أحداث إيران لم تقع فى فراغ ، فوراء تخوم الوعى الثقافى للجمهور كان يكمن الموقف الذى طال أمده تجاه الإسلام ، والعرب ، والشرق بصفة عامة ، وهو الذى كنت ولا أزال أطلق عليه صفة الاستشراق . فسواء قرأت رواية حديثة هلّل لها النقاد مثل رواية "**منحنى فى النهر**" التى كتبها ف. س. نايبول ، ومثل رواية **الضربة الرابحة** التى كتبها چون أپدايك ، أو كتب التاريخ المدرسية ، أو القصص المرسومة بالكاريكاتير ، أو مسلسلات التليفزيون ، أو الأفلام أو الرسوم الكاريكاتورية، فسوف تجد التصوير الذى لا يختلف أبدًا للإسلام، وتحس وجوده دون تغيير فى كل مكان ، وترى أنه يستمد مادته من نفس الصورة القديمة التى ثَبَّتَها الزمن للإسلام ، ومن هنا جاءت الصورة الكاريكاتورية المتواترة للمسلمين باعتبارهم موردين للنفط ، وإرهابيين ، وأخيرًا باعتبارهم جماهير غوغائية متعطشة للدم . وعلى العكس ، لم تفسح الثقافة الأمريكية بصفة عامة ، ولم يفسح الحديث عن غير الغربيين بصفة خاصة ، مساحة تذكر للحديث أو للتفكير ، ناهيك برسم صورة الإسلام أو أىِّ شىءٍ إسلامىٍّ بتعاطفٍ ووُدٍّ . ومن المحتمل أنك إذا سألت أحدًا أن يذكر اسم كاتب **إسلامى** يعرفه ، أن تلتقى معظم الإجابات حول خليل جبران (الذى لم يكن إسلاميًّا) . وأما

الخبراء الأكـاديميون المتخصصون فى الإســلام فقد دأبوا على تناول هذا الدين وشتى ثقـافاته فى إطار أيديولوچى اختـرعوه أو حددت الثقافة صورته ، فامتلأ بالانفـعال ، وبالتعصب المعهود فى الدفاع النفسى ، وأحـيانًا بالنفور . وهـذا الإطار هو الذى يجعل **تفهّم** الإسلام مـهمـة بالغـة الصعـوبة . فإذا اسـتندنا فى أحكامنا إلى الدراسات المعمّقة والأحاديث الـتى زخرت بها أجهزة الإعلام عن الثورة الإيـرانية فى ربيع عـام ١٩٧٩ ، فسوف نلمـح الإتجاه إلى عدم تقـبل الثورة الإيرانيـة إلاّ باعتـبارها هزيمةً للولايات المتـحدة (وهو ما كانتـه الثورة من زاوية معينة وحسب ، بطبيـعة الحال) أو انتصاراً للظلام على النور .

وقد لعب ف. س. نايبول دورًا طريفًـا فى مجال المسـاعدة على توضـيح هذا العداء العام لـلإسلام ، فقـد أشار فى مـقابلة صحفية نشرتها فى الآونة الأخيرة مجلة **نيوزويك انترناشونال** (١٨ أغسطس ١٩٨٠) إلى كـتاب يكتـبه عن "الإسلام" ، ثم قال ، دون أن يسأله أحد رأيه ، إن "الأصولية الإسلاميـة تفتقر إلى أى جوهر فكرى، ومن ثم فلابد أن تنهار" . لكنه لم يحدد الأصولية الإسلامية التى يعنيها ، ولا الجوهر الفكرى الذى يشير إليه ، وإن كـان يقـصـــد إيران دون شك ، وأيضًـا - وبنفـس الدرجـة من الغموض - مَوْجَةَ العداء للإمـبريالية من جانب الإسلام فى العالم الثالث فى الفـترة التى تلت الحرب العـالمية الثانية ، فـالمعروف أن نايبول يضمر كراهية مريرة إلى أقصى حد لهذه الموجة . ففى آخر

روايتين له ، وهما **رجال حرب العصابات ومنحنى فى النهر** ، يُشكّك المؤلف فى الإسلام ؛ وفى إطار إدانة نايبول العامة للعالم الثالث (وهى الإدانة التى يحبها القراء الغربيون الليبراليون) نجده يجمع بين الفساد والشر الكامن فى عدد من الحكام الذين يرسم لهم صورًا بشعة مضحكة ، وبين نهاية الاستعمار الأوروبى ، وبين الجهود المبذولة بعد زوال الاستعمار فى بناء المجتمعات الوطنية المحلية ، باعتبار هذه الظواهر دليلاً على الفشل الفكرى الشامل فى إفريقيا وآسيا . ويقول نايبول إن "الإسلام" يلعب دورًا كبيرًا ، سواء فى الأسماء الإسلامية العائلية التى يتسمى بها رجال حرب العصابات فى جزر الهند الغربية ، وهو يرسم لهم صورة من يُرثى لحاله ، أو فى الآثار الباقية من تجارة الرقيق الإفريقية . وهكذا يتحول "الإسلام" عند نايبول وقرائه إلى عنوان يشمل كل ما يرفضه الإنسان من موقف العقلانية المتحضرة والغربية[٣] .

إننا نشعر كأنما يصبح من المحال التمييز بين العاطفة الدينية المشبوبة وبين الكفاح فى سبيل قضية عادلة وبين الضعف البشرى العادى وبين المنافسة السياسية وبين تاريخ الرجال والنساء والمجتمعات ، عندما يتناول الروائيون والصحفيون ، وواضعو السياسات ، و"الخبراء" موضوع "الإسلام" أو الإسلام الذى نشهده الآن فى إيران وغيرها من مناطق العالم الإسلامى ، فمصطلح "الإسلام" لديهم يشمل ، فيما يبدو ، جميع جوانب

العالم الإسلامى الشاسع المتنوع ، واختزالها جميعًا فى جوهر خاص يضمر الشر ولا يعرف التفكير . ولا يمكن أن نجنى من ذلك، بدلاً من التحليل والتفهم ، إلا أشد أشكال المواجهة سذاجة بيننا وبينهم ، أى صيغة "نحن" فى مقابل "هم" ! وإذن فمهما يَقُلْ الإيرانيون أو المسلمون عن مفهومهم الخاص للعدالة ، أو عن تاريخ الظلم الذى تعرضوا له ، أو عن رؤيتهم لمجتمعاتهم، فسوف يبدو ذلك لا صلة له بالموضوع ؛ وأما ما يعنى الولايات المتحدة ، بدلاً من ذلك ، فهو ما تفعله "الثورة الإسلامية" الآن، وعدد الأشخاص الذين أصدرت المحاكم الثورية الحكم بإعدامهم ، وعدد الفظائع الغريبةَ التى أمر آية الله المذكور بارتكابها باسم الإسلام . ولم يحاول أحد بطبيعة الحال أن يوازى بين أىٍّ من ذلك وبين مذبحة جونز تاون ، أو اللوثة الجماهيرية الهدامة فى الحفل الغنائى الذى قدمه فريق "هُوُ" فى سنسيناتى ، أو الخراب الذى أحدثته المسيحية فى الهند الصينية، أو الثقافة الغربية أو الأمريكية بوجه عام. فمثل هذا التوازى يقتصر على ما يسمونه "الإسلام".

لماذا شهدنا كثيرًا إذن قيامهم بضغط شتى الأحداث السياسية والثقافية والاجتماعية بل والاقتصادية ، على تنوعها الهائل ، واختزالها بذلك الأسلوب الباڤلوفى فى مصطلح "الإسلام" ؟ ترى ما الذى يتميز به " الإسلام" حتى يحدث ذلك الرد التلقائى السريع المنفلت من كل عقال ؟ ترى ما أوجه اختلاف "الإسلام"

والعالم الإسلامى عند الغـربيين عن بقية العالم الثـالث مثلاً وعن الاتحاد السوڤييتى ؟ هذه أسئلة أبعد ما تكون عن البساطة ، ولذلك فلابد من تجزئة الإجابة عليها ، وتبيان عناصرها ووصف كل على حدة والتمييز فى تمهل بينها .

تشتـهر الأسماء العـامة التى يُقصـد بهـا الدلالة على شرائح بالغة الضخامة والتعقـيد من دنيا الواقع بالغموض ، على كراهيتنا له ، وبأنها فـى الوقت نفسه مـحتومـة . فإذا كـان صحيـحًا أن مصطلح "الإسلام" اسم عام يفـتقـر إلى الدقة ، إلى جـانب ما يحـمله من الشـحنة الأيديولوجـية ، فـمن الصـحيح كـذلك أن مـصطلحى " الغرب" و"المسـيـحيـة" من المصطلحـات المشكلة كذلك. ومع ذلك فـالسبيل غـير ميـسّر لنا لتجنب هذه الأسـماء العامة ، ما دام المسلمون يتكلمـون عن الإسلام ، والمسيحيون عن المسيحـية ، والغربيون عن الغـرب ، وما دام كل طرف يتكلم عن الأطراف الأخرى جميعًا بأساليب تـبدو مقنعة ودقيقة . وأظن أنه من الأجدى الآن علينا ألاّ نحـاول أن نقترح وسائل التـفاف حول هذه الأسماء العـامة ، بل أن نعترف بدايةً بوجـودها وبأنها ظلت تستعمل ردحًا طويلاً من الزمن باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من التاريخ الثقافى لا باعتـبارها تصنيفات موضوعـية . وسوف أعود فى هذا الفصل بعد قليـل إلى الحديث عنها باعتبـارها تفسيرات وضعـتها لنفسهـا المجتمعات التى تأخـذ بتفـسيرات معينة ، وهـى التـسمية التى سأضـعها لهـا . وهكـذا فإن علينا أن نذكر أن مـصطلحات "الإسلام" و"الغرب" بل و" المسيحية" تقوم كل منهـا بوظيفتين

مخـتلفتين ، ويدل كل منها على مـعنيين اثنين على الأقل فى كل مرة يستـخدم فيهـا المصطلح. فهى أولاً تنهض بوظيفـة التعريف البسيطة ، ومـثال ذلك قولنا إن الخومينى مـسلم أو إن البابا يوحنا بولس الثانى مسيحى . فـأمثال هذه الأقوال تحمل الحد الأدنى من الدلالة على ماهـية الشىء فى مقـابل الأشياء الأخـرى جميـعًا . وعلى هذا المستوى نستطيع التمييز بين البرتقالة والتفاحة (مثلما نميز بين المسلم والمسيحى) وإن كان ذلك لا يتعدى حدود معرفتنا أنهما فاكهتان مـختلفتان ، تنمو كل منهما على شجـرة مختلفة ، وهلم جرًّا .

وأما الوظيفة الثـانية لهذه الأسماء العامـة المتعددة فهى الدلالة على معانٍ أشد تعقيدًا . فالحديث عن "الإسلام" فى الغرب اليوم يعنى الإشـارة إلى الكثير مـن المساوئ التى ذكرتـها . أضف إلى ذلك أنه من المحتمل أن يدل مصطلح "الإسلام" على شىء يعرفه المرء مـعرفة مـباشـرة أو موضـوعيـة . ويصدق هذا القـول على استعمالنا لمصطلح "الغرب" . ترى كم عدد الذين يستعملون هذه المصطلحات بغضب أو بثـقة وهم يحيطون إحاطة مُحكمـةً بجميع جوانب التقاليد الغربية ، أو الفقه الا نونى الإسلامى ، أو اللغات المستـعملة فـعلاً فى العـالم الإسلامى ؟ الواضح أن عـددهم بالغ الضـآلة ، ولكن ذلك لا يمنع الناس من وضع الصـفـات المميـزة "للإسلام" أو "للغرب" ، أو من الاعتـقاد بأنهم يعـرفون على وجه الدقة ما يتحدثون عنه .

وهذا هو ما يدعونا إلى أن نأخذ الأسماء العامة مأخذ الجد . فـالمسلم يتـحـدث عن "الغـرب" ، والأمـريكى يتـحـدث عن "الإسلام" ، وكل منهما يرى وراء هذه التعمـيمات الهائلة تاريخًا طويلاً يُعينه ويَعُوقُـه فى الوقت نفسه ، فإن لها طابعًـا أيديولوجيا يزخر بمشاعر مشبوبة جارفة ، كما إنها نجحت فى البقاء بعد المرور بتجـارب وخبـرات كثيـرة واستطاعت التكيّف مع كـل جديد من الأحـداث والمعلومات وحـقـائق الواقع . ولقـد اكتـسب كل من مصطلحى "الإسلام" و"الغرب" حاليًا وجودًا حاضرًا مُلحًّا وقويًّا فى كل مكان ، وعلينا أن نـشيـر فورًا هنـا إلى أن الطرفين اللذين يجرى تحـريض أحدهمـا على الآخر دائمًـا ، فيـما يبـدو ، هما الغرب والإسلام لا المسـيحية والإسلام . وأمـا السبب فيكمن فى افتراض أن "الغرب" أكبر من المسيـحية وأنه تخطى مرحلة الدين المسيحى ، وهو الدين الأساسى فى الغرب ، وأن عالم الإسلام - على الرغم من تنوع مجـتمعاته وتواريخه ولغـاته - لا يزال غارقًا فى الدِّين ، وفى الحياة البدائيـة والتخلف . والافتراض يعنى إذن أن الغرب حـديث الطابع ، وأكبر من مـجموع أجـزائه ، وحافل بالمتناقضـات الثرية المثرية ، ومع ذلك فـهو دائمًا ذو هوية ثقافـية "غربـية" ، وأمـا عالم الإسـلام ، فـهـو لا يتجـاوز مـصطلح "الإسلام" ، ويقـبل الاختـزال فى عدد محـدود من الخصـائص الثابتـة رغم ما يبدو فـيه من تناقـضات وخبرات الـتنوع التى تبدو على السطح بالكثرة التى يتميز الغرب بها .

وهاك مثالاً قريب العهد على ما أعنيه ، وهو مقال منشور في باب "استعراض أنباء الأسبوع" من صحيفة **نيويورك تايمز** بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٨٠ . والمقال كتبه جون كيفنر وهو مراسل الصحيفة الكفء في بيروت ، وموضوع المقال هو مدى تغلغل الاتحاد السوفييتي في العالم الإسلامي. وأما الفكرة التي يطرحها كيفنر فيدل عنوان المقال عليها بوضوح كاف ، فالعنوان هو "لا يزال التنافر قائمًا بين ماركس والمسجد" ، ولكن الجدير بالإشارة أنه يستخدم مصطلح "الإسلام" في إقامة رابطة مباشرة ومطلقة ، وكان يمكن أن تكون مرفوضة في سياقات أخرى ، بين أحد المفهومات المجردة وبين حقائق الواقع البالغ التعقيد . وحتى إذا سلّمنا بأن الإسلام يختلف عن سائر الأديان الأخرى في أنه دين جامع لا يفصل بين الكنيسة والدولة ، أو بين الدين والحياة اليومية، فإن الفقرات التالية من مقال كيفنر تتضمن ما يعتبر دليلاً على الجهل وداعيًا للتضليل بصورة فريدة ، وربما بصورة متعمدة ، وإن كان كلامًا تقليديًا لا جديد فيه :

> إن سبب انحسار نفوذ موسكو يتسم ببساطة خادعة ، ألا وهو أن ماركس والمسجد لا يتفقان . [ترى نفترض إذن أن ماركس أقرب إلى الاتفاق مع الكنيسة أو مع المعبد ؟] .
>
> وفيما يتعلق بالذهن الغربي [وهذا هو بيت القصيد كما هو واضح] فلقد تكيّف منذ حركة الإصلاح الديني مع التطورات التاريخية والفكرية التي عملت بانتظام على تقليل

الدور المنوط بالدين ، وهكذا فهو يواجـه صعوبة فى تفهم القوة التى يمارسـها الإسلام [وإذن فالمفـترض أنه لم يتكيف مع التطورات التـاريخـيـة أو الفكرية] ومع ذلك فلقـد ظل الإسلام على امتداد قرون طويلة يمـثل القوة الرئيسـية فى حيـاة هذه المنطقة ، ويبـدو ، ولو مؤقـتًا على الأقل ، أن قوته فى ازدياد .

لا يفصل الإسلام بين الدين والدولة ، فهو نظام جامع لا يقتصر على العقيدة بل يشمل العمل كذلك ، وبه قواعد ثابتة تحكم الحـياة اليومـية ، ودافع روحى يدفع المسلم إلى مواجـهة الكافـر أو هدايته للإسلام . وفى نظـر المتدينين، وخـصوصًـا العلمـاء وفقـهاء الـدين منهم ، بل وفى نظر الجمـاهير أيضًـا [أى لا استـثناء لأحد] تبـدو الماركسـية ، بنظرتها الدنيوية المحـضة للإنسان مذهبًا غـريبًا بل ومذهب تجديف كذلك .

أى إن كيفنر لا يقتصر على تجـاهل التاريخ وبعض التعقيدات الأخرى مـثل سلسلة الموازنات التى يقيـمها مكسـيم رودنسون بين الماركسية والإسلام (ويدرسها فى كـتاب يحاول إيضاح سبب نجاح الماركسية ، فيما يبدو ، فى النفـاذ إلى بعض المجتمعات الإسلامية على مر السنين)[٤] بل إن كفنر يقيم حجتـه على مقارنة خفيّة بين "الإسلام" و"الغرب" وهو الذى يتميز فى نظره بتنوع حـــــتى ليصعب تحديد طابعه بالمقارنة بالإسلام الذى يوحى كفنر بأنه يتسم

بالبساطة والجمود والشمولية . والطريف هو أن كفنر قادر على أن يقول ما يقوله دون المخاطرة بأن يبدو مخطئًا أو مغفّلا !

الإسلام فى مقابل الغرب – هذا هو اللحن ' القرارى ' الذى تصاحبه مجموعة من التنويعات ذات الخصوبة المذهلة ، ومن الأفكار الموسيقية التى تتضمنها هذه التنويعات فكرة أوروبا فى مقابل الإسلام ، وأمريكا فى مقابل الإسلام[٥] . وإن كنا نلمح الدور المهم الذى تلعبه الخبرات العملية المختلفة مع الغرب أيضًا ، بصورة عامة ، إذ لابد من رصد وجه الاختلاف البالغ الأهمية بين الوعى الأمريكى والوعى الأوروبى بالإسلام . فحتى عهد قريب كانت فرنسا وانجلترا ، مثلاً ، تمتلكان امبراطوريات إسلامية شاسعة ، وسوف نجد فى كل من هاتين الدولتين ، وإلى حد أقل فى إيطاليا وهولندا اللتين كانتا تحتلان مستعمرات إسلامية أيضًا ، تراثًا طويلاً متصلاً من الخبرة المباشرة بالعالم الإسلامى[٦] . ويتجلى هذا فى المبحث الأكاديمى الأوروبى المتميز الذى نسميه الاستشراق، والذى ازدهر فى البلدان ذات المستعمرات وكذلك فى بعض البلدان الأخرى (مثل ألمانيا وإسبانيا وروسيا قبل الثورة) التى كانت تريد لنفسها مستعمرات أو كانت قريبة من الأقاليم الإسلامية أو كانت هى نفسها دولاً إسلامية . ويعيش اليوم فى الاتحاد السوفييتى قرابة ٥٠ مليون مسلم ، كما قام فى أواخر عام ١٩٧٩ باحتلال دولة أفغانستان المسلمة . ولن نجد نظائر لأى من ذلك كله فى الولايات المتحدة ، وإن كنا سوف نجد عددًا هائلاً ، بل لم

يسبق له مثيل ، من الأمريكيين الذين كتبوا أو فكروا أو تحدثوا عن الإسلام .

وهكذا فـإن عدم وجـود الماضى الاستـعمـارى أو الاهتمـام الثقافى الطويل الأمد بالإسلام فى أمـريكا يزيد من غرابة انشغالها إلى حد الهوس حـاليًا به ، ويجعله أشـد تجريدًا ، وأقرب إلى أن يكون خـبرة نقلهـا عن الآخـرين . إذ إن عدد الأمـريكيين الذين يتمتعون بخبرة التعامل المباشر مع المسلمين بالغ الضآلة نسبيًا ، فإن شئنا المقـارنة وجدنا أن الدين الثـانى فى فرنسا ، من حـيث عدد معتنقـيه ، هو الإسلام ، وقد لا يكون فى هذا سـبب لحبه ولكنه بالتأكـيد يزيد المعـرفة به . وكانت مـوجة الاهتـمام الأوروبى فى العصر الحديث بالإسلام تمثل أحد عناصر ما وصف بأنه "النهضة الاستشراقية" ، وهى الفترة التى تمتد من أواخر القرن الثامن عشر حتـى مطلع القرن التـاسع عشـر وقام فـيهـا العلماء الفـرنسـيون والبريطانيون بإعـادة اكتشاف "الشرق" - الهند والصين واليابان ومصـر وبلاد ما بين النهـرين ، والأراضى المقدسة . وسـواء كان ذلك خيرًا أم شرًا ، فإنهم كانوا ينظرون إلى الإسلام باعتباره جزءًا من الشرق ، يشـاركه غمـوضه وغرابتـه وفساده وقـوته الكامنة . صحيح أن الإسلام ظل يشكل تهديدًا عسكريًا مباشرًا لأوروبا على امتداد قـرون سابقة ، وصحيح أيضًا أن الإسـلام كان يمثل مشكلة للمفكرين المسيـحيين فى العصور الوسطى ومطلع النهـضة بعد أن استـمروا على مدى مـئات السنين ينظرون إليـه وإلى نبى الإسلام

محمد ، على أنهـما يمثلان أحطّ لون من ألوان الرّدّة ، ولكنه كان على الأقل يمثل لكثير من الأوروبيين ضربًا من الـتحدى الثـقافى الدينى الذى لم يمنع الإمـبريالية الأوروبيـة من بناء مؤسسـاتها فى الأراضى الإسلاميـة . ومهما يكن العـداء بين أوروبا والإسلام ، فلقد نشأت أيضًـا خبرة مباشـرة به ، كما أبدى كثيـر من الشعراء والروائيين والعلماء - مـثل جيته، وجـيرار دى نيرڤال، وريتشارد بيرتون ، وفلوبير ، ولويس ماسينيون - افتتانهم به الذى تجلّى فى إبداعاتهم وأعمالهم المرهفة المستهلمة من الإسلام .

ومع ذلك ، وعلى الرغـم من جـهـود هؤلاء والآخـرين من أمثـالهم ، لم يكن الإسلام فى يوم من الأيام مـوضع ترحيب فى أوروبا ، ولم يكن معظم فلاسفـة التاريخ الكبار ، من هيجل إلى شبنجلـر ، يبدون حمـاسًا شديدًا للإسـلام . ولقد كـتب ألبرت حورانى مقالاً يتميـز بالوضوح والبعد عن الهوى بعنوان "الإسلام وفلسفة التاريخ" ناقش فيه الخطّ المـستمر ، وإلى درجة مـثيرة ، للإسلام باعتـباره نظامًا من نظم العـقيدة(٧) . فإذا اسـتثنينا بعض الاهتمامات العارضة بكاتب من متصوفة الإسلام أو بإمام من أئمة الصوفيـة ، وجدنا أن موجات الإقبال الشـعبى فى أوروبا على ما يسمى "حكمة الشرق" نادرًا ما كانت تتضمن الحكماء أو الشعراء المسلمين ، وتكاد مـعـرفـة الأوروبيين المحـدثين بالشـخصـيـات الإسلاميـة الشهيرة تقتـصر على عمر الخيـام ، وهارون الرشيد ، والسندباد، وعـلاء الدين ، وحاچى بابا ، وشـهرزاد ، وصـلاح

الدين ولم يستطع حتى كارلايل أن يأتى بالقبول على نطاق واسع للنبى محمد ، وأما جوهر العقيدة التى دعا إليها محمد ، فلقد بدت للأوروبيين ومنذ زمن بعيد غير مقبولة لأسباب مسيحية أساسًا، وإن كانت لم تخْلُ من طرافة لهذه الأسباب ذاتها . وفى أواخر القرن التاسع عشر ، ومع زيادة الوطنية الإسلامية فى آسيا وإفريقيا ، شاع الرأى القائل بأن المستعمرات الإسلامية كُتب عليها أن تبقى تحت الوصاية الأوروبية لسببين مجتمعين : الأول أنها مربحة والثانى أنها متخلفة وتحتاج إلى الانضباط الغربى[٨] . فإذا تغاضينا عن ذلك ، وعن تواتر دلائل العنصرية وأحداث العدوان على العالم الإسلامى ، وجدنا أن الأوروبيين قد أفصحوا فعلاً عما كان الإسلام يعنيه لهم . ومن هنا تكاثرت صور الإسلام فى شتى مجالات الثقافة الأوروبية - فى الدراسة العلمية، وفى الفن والأدب والموسيقى والأحاديث العامة - منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى يومنا الحالى .

ولن نجد فى الخبرة الأمريكية بالإسلام شيئًا يذكر من هذه الظواهر الملموسة ، فلقد كانت صلات الأمريكيين بالمسلمين فى القرن التاسع عشر محدودة إلى حد بعيد ، وقد نذكر بعض الرحالة العابرين مثل مارك توين أو هرمان ملفيل ، أو بعض رجال التبشير الدينى المتفرقين ، أو الحملات العسكرية التى لم تستمر طويلاً إلى شمالىّ إفريقيا . وأما فى المجال الثقافى فلم يكن الإسلام يشغل مكانًا متميزًا فى أمريكا قبل الحرب العالمية الثانية ،

إذ كان الخبراء الأكاديميون عـادة ما يقومون بدراساتهم للإسلام فى أركـان هادئة فى مدارس اللاهوت ، بـعيـدًا عن الأضواء البـاهرة للاستشراق وبعيدًا عن صفـحات المجلات الكبرى . واستمر على مدى المائة عام الأخيرة تقـريبًا ضرب من التكافل الحيوى (المدهش رغم هدوئه) بين أسـر المبشرين الأمـريكيين فى البلدان الإسلامـية وبين رجال وزارة الخـارجية وشركـات النفط . وكان هذا التكافل يلوح على السطح بين الفـينة والفينـة فى صورة تعليـقات مـعادية "للمسـتعربين" فى وزارة الخارجـية وشركـات النفط، وقيل إنهم كانوا يضمرون حبًّا للإسلام يتميز بخبثـه ومعاداته للسامية . ومن ناحية أخرى فإن جميع كبـار الخبراء فى الإسلام الذين ذاع صيتهم فى الولايات المتـحدة قـد ولدوا فى بلدان أجنبـية، مـثل اللبنانى فيلـيب حتىّ ، بجـامعة برنسـتون ، والنمـسوى جـوستـاف فون جرونيـباوم ، فى جـامعـة شيكاغـو وجامـعة كالـيفورنيـا بلوس أنچيليس، والبريطانى هـ. أ. ر. جـيب ، فى جامعة هارڤارد ، والألمانى چوزيف شاخت فى جامعـة كولمبيا . ومع ذلك فلم يكن أى من هؤلاء الرجال يتمـتعون بالتفوق النسبى فى المكانة الثـقافية المهيبة مثل چاك بيرك فى فرنسا أو ألبرت حورانى فى انجلترا .

ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم - حتّى وجـيب وفون جرونيباوم وشاخت - قـد اختفوا من المسـرح الأمريكى ، كما إنه من غـير المحتمل أن يُعقب علماء مثل بيـرك وحورانى خلفاء لهم فى فرنسا وانجلترا ، فـلا يتمـتع اليوم أحد بثـقافتـهم العريضـة ولا باتساع

المجالات التى يعتبرون حجة فيها ، فالخبراء الأكاديميون الغربيون فى الإسلام اليوم عادة ما يتخصصون فى مدارس فقه القانون الإسلامى فى القرن العاشر الميلادى فى بغداد ، أو فى أنماط المدن المغربية فى القرن التاسع عشر ، دون أن يحيطوا مطلقًا (أو بصورة شبه مطلقة) بالحضارة الإسلامية كلها - بالأدب ، وبالقانون ، وبالسياسة ، وبالتاريخ، وبعلم الاجتماع وهلم جرا. ولكن هذا لم يمنع الخبراء من إطلاق الأحكام العامة من حين إلى آخر على "العقلية الإسلامية" أو "الولوع الشيعى بالاستشهاد" ، وإن كانت مثل هذه الأقوال مقصورة على المجالات الجماهيرية وأجهزة الإعلام ، فهى التى كانت تطلب منهم أصلاً إبداء آرائهم. ومما يزيد عن هذا فى مغزاه هو أن فرص المناقشات العامة للإسلام ، من جانب الخبراء وغير الخبراء، لا تأتى بها فى معظم الأحيان إلا الأزمات السياسية ، ومن أندر النادر أن نجد مقالات توفر بعض المعلومات عن الثقافة الإسلامية فى مجلة **نيويورك ريفيو أوف بوكس** (مجلة نيويورك لمراجعة الكتب) أو مجلة **هاربر** مثلاً . ولم يكد موضوع " الإسلام" يبدو جديرًا بالتعليق العام إلا حين يتعرض استقرار المملكة العربية السعودية أو استقرار إيران لهزّة ما.

علينا إذن أن نذكر أن الإسلام قد وجد سبيله إلى وعى معظم الأمريكيين - بل إلى وعى أساتذة الجامعات وأصحاب الثقافة العامة الذين يحيطون إحاطة وافية بأوروبا وأمريكا اللاتينية -

لسبب رئيسى ، وإن لم يكن السبب الأوحد ، وهو ارتباط الإسلام بقضايا تشغل وكالات الأنباء مثل قضايا النفط ، وإيران وأفغانستان والإرهاب(٩) . وما إن حلّ منتصف عام ١٩٧٩ حتى اكتسب ذلك كله صفة الثورة الإسلامية ، وأصبح يشار إليه باسم "أزمة الهلال" أو "قوس القلقلة" أو "عودة الإسلام" . ومن الأمثلة ذات الدلالة الكبيرة فى هذا السياق ما فعله الفريق العامل الخاص بالشرق الأوسط التابع لمجلس دول الأطلسى (وهو الفريق الذى كان يضم برينت سكوكروفت ، وجورج بول ، وريتشارد هلمز ، وليمان ليميتزر ، ووولتر ليڤى ، ويوچين روستر ، وكيرميت روزڤلت ، وجوزيف سيسكو ، وغيرهم) ، فعندما أصدر الفريق تقريره فى خريف ١٩٧٩ وضع له عنوانًا خاصًا هو "النفط والبلبلة : اختيارات الغرب فى الشرق الأوسط" (١٠)

وعندما خصصت مجلة **تايم** موضوعها الرئيسى للإسلام بتاريخ ١٦ إبريل ١٩٧٩ زينت غلافها بلوحة للفنان الفرنسى چيروم تصور مؤذنًا ملتحيًا يقف على مئذنة ويدعو المؤمنين بوقار إلى الصلاة ، وكانت اللوحة تتميز بالتنميق الشديد والمبالغة الصارخة مثل جميع فنون الاستشراق التى شهدها القرن التاسع عشر ، ومن دلائل التناقض الزمنى أن تكون هذه اللوحة الوقورة مُزيّنة بكلمات لا علاقة لها بها وهى "إحياء الجهاد" ولم أجد أفضل من هذا الغلاف للدلالة على الفرق بين موقف أوروبا وموقف أمريكا تجاه موضوع الإسلام ، إذ حوّلت المجلة لوحة هادئة زخرفية ، كانت

تعتبر في أوروبا جزءاً من الثقافة العامة لا أكثر، إلى صورة قادرة - بفضل الكلمتين المضافتين - على الدلالة على ما يشغل العقل الأمريكي لحد الهوس .

لكنني ولا شك أبالغ ؟ ألم يكن موضوع صورة الغلاف لمجلة **تايم** عن الإسلام نموذجًا وحسب للسوقية ، يبتغى إرضاء ما هو مفترض من نشدان الإثارة ؟ هل تراه يكشف **حقًا** عما هو أخطر من هذا ؟ ومنذ متى كانت لأجهزة الإعلام أهمية كبرى فيما يتعلق بالقضايا الخطيرة ، أو قضايا السياسات ، أو قضايا الثقافة ؟ ثُم **أليس** صحيحًا أن الإسلام قد فرض نفسه على اهتمام العالم وشغل أنظاره ؟ وماذا جرى للخبراء المتخصصين فى الإسلام ، ولماذا تتعرض إسهاماتهم للتجاهل التام أو للدفن تحت الصورة التى تناقشها وتنشرها أجهزة الإعلام "للإسلام" ؟

لا بأس أولاً من إيراد بعض الإيضاحات البسيطة . لم يحدث، كما سبق لى أن ذكرت أن تمتع أحد الخبراء الأمريكيين المتخصصين فى العالم الإسلامى بجمهور عريض من القراء . وباستثناء كتاب **مغامرات الإسلام** الذى يقع فى ثلاثة مجلدات وكتبه المرحوم مارشال هودجسون ونشر بعد وفاته عام ١٩٧٥ ، لم يحدث أن وجد جمهور المثقفين كتابًا عامًّا عن الإسلام يعرضه عليهم بالأمانة المطلوبة[١١] . فإمّا أن الخبراء كانوا على درجة من التخصص لا تسمح لهم إلاّ بمخاطبة غيرهم من المتخصصين ، وإما أن عملهم لم يكن متميّزًا فكريًّا بما يكفى لاجتذاب الجمهور

الذى أقبل على الكتب المكتوبة عن اليابان أو أوروبا الغربية أو الهند . ولكن هذا الأمر يقابله أمر مضاد . فإذا كان صحيحًا أننا لا نستطيع ذكر اسم "مستشرق" أمريكى يتمتع بأى صيت خارج نطاق الاستشراق ، كشأن بيرك أو رودنسون فى فرنسا ، فمن الصحيح أيضًا أن دراسة الإسلام لا تتمتع بتشجيع حقيقى داخل الجامعات الأمريكية ، ولا تجد من يساندها فى مجال الشخصيات العامة التى تتمتع بذيوع الصيت والامتياز الذاتى الكفيلين بجعل خبرات هذه الشخصيات بالإسلام مهمة فى ذاتها[١٢] ، من هم النظراء الأمريكيون للكتّاب الأوروبيين من أمثال ربيكا وست ، وفريا ستارك ، وت. أ. لورنس ، وولفريد ثيسنجر ، وجرترود بل ، وب. هـ. نيوبى ، وأخيرًا چوناثان رابان ؟ إنهم، فى أفضل الحالات ، من رجال المخابرات الأمريكية السابقين مثل مايلز كوبلاند أو كيرمت روزفلت ، ونادرًا ما يكونون من الكُتّاب أو المفكرين المتميزين ثقافيًا على الإطلاق .

والسبب الثانى لافتقار الساحة الأمريكية (وهو افتقار له حساسيته) إلى آراء الخبراء فى الإسلام هو هامشية الخبراء إزاء الأحداث الظاهرة فى عالم الإسلام عندما بدأت هذه الأحداث تشغل مكانًا فى نشرات الأنباء فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين . أما الحقائق المهمة بل التى لا جدال فى أهميتها فهى أن دول الخليج المنتجة للنفط بدت فجأة بالغة القوة ؛ واندلعت حرب أهلية شرسة بصورة رهيبة ولا تبدو لها نهاية فى لبنان ؛ واشتبكت

إثيوبيا مع الصومال فى حرب طويلة الأمد ؛ وأصبحت المشكلة الكردية مشكلة محورية من حيث لم نكن نتوقع ، ثم انحسرت وصفا الجو بعد ١٩٧٥ ، من حيث لم نكن نتوقع أيضًا؛ وخلعت إيران ملكها (الشاه) فى أعقاب ثورة "إسلامية" هائلة فاجأت الجميع ؛ وشهدت أفغانستان انقلابًا ماركسيًا عام ١٩٧٨، ثم وقع الغزو السوفييتى فى أواخر عام ١٩٧٩ ؛ واشتبكت الجزائر مع المغرب فى صراع طويل الأجل حول قضية الصحراء الغربية (الجنوبية) ؛ وأعدمت باكستان رئيسها السابق وجاءت إلى الحكم دكتاتورية عسكرية ، كما وقعت أحداث أخرى كثيرة ، كان آخرها الحرب بين إيران والعراق ، ولكن الأحداث المذكورة تكفى . وأعتقد بصفة عامة أنه من الإنصاف أن نقول إن كتابات خبراء الإسلام فى الغرب لم تستطع إيضاح الكثير من هذه الأحداث . إذ لم يقتصر الأمر على عجز الخبراء عن التنبؤ بهذه الأحداث أو عدم تهيئة قرائهم لها ، بل إنهم لجأوا بدلاً من ذلك إلى كتابة نصوص إذا قورنت بما يحدث بدت كأنما تتناول إقليمًا نائيًا من المحال الوصول إليه فى هذا العالم ، ولا علاقة له تقريبًا بالقلاقل المستمرة وما تمثله من تهديد نشهده وهى تتفجر أمام أعيننا فى أجهزة الإعلام .

هذا موضوع أساسى ، وإن لم يحاول أحد مناقشته مناقشة عقلانية حتى الآن ، وإذن فعلينا أن نلتزم الحذر فى تناولنا له . فالخبراء الأكاديميون فى مجال الإسلام قبل القرن السابع عشر كانوا

يدرسون عالمًا ينتمى بصفة أساسية إلى مجال الآثار ، وإلى جانب هذا ، فإنهم مثل سائر المتخصصين ، كانوا يعملون فى تخصصات بالغة الانفصال عن بعضها البعض ، فلم يكونوا يريدون أو يحاولون أن يشغلوا أنفسهم بما ترتب على التاريخ الإسلامى من آثار حاضرة فى عالم اليوم . وكان عملهم مرتبطًا إلى حد ما بالأفكار الخاصة بالإسلام "الكلاسيكى" أو ما افترضوا أنه أنساق لا تتغير للحياة الإسلامية ، أو بعض المسائل القديمة فى فقه اللغة. ولكنه كان من المحال ، على أية حال ، الانتفاع بما يدرسونه فى تفهم العالم الإسلامى الحديث ، وهو الذى يتطور فى حقيقة الأمر بصورٍ بالغة الاختلاف عما توقعه الناس فى القرون الأولى للإسلام (أى من القرن السابع إلى القرن التاسع) وإن تفاوت هذا التطور من منطقة إلى منطقة فيه .

وكان الخبراء الذين يعملون فى مجال "الإسلام" الحديث - أو إن شئنا الدقة ، فى مجال يضم المجتمعات والأشخاص والمؤسسات القائمة داخل العالم الإسلامى منذ القرن الثامن عشر - يعملون فى حدود إطار متفق عليه للبحث العلمى ، وهو الإطار الذى تشكّل وفقًا لأفكار **لا علاقة لها قطعًا** بالعالم الإسلامى . ومهما كررنا وفصّلنا القول فى هذه الحقيقة ، على تعقيدها وتنوعها ، فلن نكون مبالغين . فلا شك فى أن الباحث الذى يمارس بحثه فى أوكسفورد أو فى بوسطن ، يكتب ويجرى أبحاثه استنادًا بصفة أساسية إلى معايير وأعراف وتوقعات وضعها

أقرانه لا المسلمون الذين يدرسهم ، وإن لم يقتصر عليها . ربما كانت هذه بديهية ، ولكننا لابد أن نؤكدها على أية حال . فالدراسات الإسلامية الحديثة فى الجامعات تنتمى إلى ما يسمى 'برامج المناطق' بصفة عامة - أى أوروبا الغربية ، والاتحاد السوفييتى ، وجنوب شرقىّ آسيا ، وهلم جرًا . ومن ثم فهى ترتبط بالآليات التى تُرسم بها السياسة القومية . وهذا أمر مطروح لاختيار الباحثين كل على حدة . فإذا كان باحث فى جامعة برنستون يقوم ببحثه فى المدارس الإسلامية المعاصرة فى أفغانستان، فمن الواضح (خصوصًا فى فترة كالتى نمر بها) أن مثل هذه الدراسة من المحتمل أن تترتب عليها فوائد للسياسات القومية ، وسواء شاء الباحث أم أبى فسوف يجد أنه قد ارتبط بخيوط تشده إلى الحكومة أو إلى الشركات أو السياسة الخارجية ، وهو ما تنسحب آثاره على التمويل ، ونوع الأشخاص الذين يقابلهم ، وبصفة عامة ، يجد أنه يواجه أنماطًا خاصة من الثمار لعمله والتفاعل مع ما حوله . وهكذا يتحول الباحث رغم أنفه إلى ''خبير بالمنطقة'' .

والباحثون الذين ترتبط اهتماماتهم ارتباطًا مباشرًا بقضايا السياسات (وهم أساسًا المتخصصون فى العلوم السياسية ، ولكنّ من بينهم أيضًا المتخصصين فى التاريخ الحديث ، والاقتصاد وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا) يواجهون مسائل حساسة ، إن لم نقل خطيرة . فعلى سبيل المثال كيف يمكن التوفيق بين مكانة الباحث

العلمى والمطالب التى تفرضها الحكومة عليه ؟ وحالة إيران نموذج ينطبق عليه ذلك كل الانطباق . ففى إبان حكم الشاه ، كان المتخصصون فى إيران يتوافر لهم التمويل من المؤسسة البهلوية ، وكذلك أيضًا من المؤسسات الأمريكية ، بطبيعة الحال . وكانت هذه الأموال مخصصة للإنفاق على الدراسات القائمة على الوضع الراهن (وفى هذه الحالة وجود النظام البهلوى المرتبط عسكريًا واقتصاديًا بالولايات المتحدة) ومن ثم أصبحت هذه الدراسات من زاوية معينة النموذج البحثى المتاح لمن يدرسون ذلك البلد . وفى مرحلة متأخرة من مراحل الأزمة أصدرت لجنة دائمة مختارة تابعة لمجلس النواب ومختصة بالعاملين فى الاستخبارات دراسة جاء فيها أن تقييم الولايات المتحدة للنظام يتأثر فى كل مرة بالسياسة القائمة "ليس بصورة مباشرة عن طريق التستر عمدًا على الأنباء غير المواتية ولكن بصورة غير مباشرة. . . فواضعو السياسات لم يتساءلوا عما إذا كان نظام حكم الشاه سوف يستمر إلى ما لا نهاية؛ وكانت السياسات توضع على أساس ذلك الافتراض"[(١٣)]. وقد أدى هذا بدوره إلى ضآلة عدد الدراسات التى تتضمن التقييم الجاد لنظام حكم الشاه وتحديد مصادر المعارضة الشعبية له . وفى حدود ما أعلم ، لم ينجح إلا باحث واحد ، هو حامد الجار ، من بيركلى ، فى وضع التقدير الصحيح للقوة السياسية المعاصرة للمشاعر الدينية الإيرانية ، وكان وحده هو الذى ذهب فى تقييمه إلى حد التنبؤ باحتمال قيام آية الله الخومينى بإسقاط النظام . وكان

هناك باحثون آخرون – من بينهم ريتشارد كوتام وإرڤاند إبراهاميان – لم يلتزموا بالوضع الراهن فيما كتبوه ، ولكنهم كانوا يمثلون حفنة ضئيلة إلى أبعد حد(١٤) . (ومن الإنصاف أن نذكر أن الباحثين اليساريين الأوروبيين ، الذين لم يكونوا يتسمون بالتفاؤل نفسه إزاء بقاء الشاه ، لم ينجحوا من جانبهم كذلك فى تحديد المصادر الدينية للمعارضة الإيرانية(١٥) .

وحتى لو نحيّنا إيران جانبًا ، فسوف نجد نماذج كثيرة ومهمة للفشل الفكرى فى مناطق أخرى ، ولقد كانت جميعًا نتيجة الاعتماد دون تمييز على ما أملته السياسة الحكومية والكليشيهات ولنا أن نتعلم دروسًا مهمة من لبنان وفلسطين ، إذ ظلت لبنان على امتداد سنوات طويلة نموذجًا لما ينبغى أن تكون عليه الثقافة التعددية أو المركّبة . ومع ذلك فلقد بلغت النماذج البحثية المستخدمة فى دراسة لبنان درجة من الجمود والثبات تعذر معها توقع ما صاحب الحرب الأهلية من شراسة وعنف (وهى التى استمرت من ١٩٧٥ حتى ١٩٨٠ على الأقل) . ويبدو أن أعين الخبراء قد أصابها الشلل فى الماضى بدرجة غير معهودة أمام سحر صور "استقرار" لبنان ، فوجهوا دراستهم إلى الزعماء التقليديين، والنُّخب ، والأحزاب ، والشخصية القومية ، ونجاح جهود التحديث فى لبنان .

وحتى عندما وُصف نظام الحكم فى لبنان بالتأرجح ، وعندما قام الخبراء بتحليل عدم اكتمال "تحضّره" ، كان الافتراض السائد

والموحّد هو أن مشكلاته كانت بصفة عامة قابلة للحل ، وأنها أبعد ما تكون عن التسبب فى فصم عرى الوحدة بصورة جذرية(١٦) . وكان الخبراء يصورون لبنان فى صورة البلد المستقر فى الستينيات لأن النظام القائم بين البلدان العربية كان مستقرًا فى نظر أحد الخبراء ، وما دامت تلك المعادلة قائمة فى رأيه ، ظل لبنان فى مأمن(١٧) . ولم يفترض أحد على الإطلاق أن يسود الاستقرار ما بين البلدان العربية **وينهدم الاستقرار** رغم ذلك فى لبنان ، والسبب الرئيسى هو - كما هو الحال فى هذا المجال الذى يعانى من آفة 'اتفاق الآراء' - أن الحكمة التقليدية قررت بقاء ''التعددية'' واستمرار التوافق إلى الأبد فى لبنان ، على الرغم من انقساماته الداخلية وانتفاء تأثير جيرانه العرب فيه ، كما قالت تلك الحكمة إن أى مشكلة للبنان لابد أن يكون مصدرها المناخ **العربى** المحيط بلبنان ، ولا يمكن أبدًا أن يكون مصدرها إسرائيل أو الولايات المتحدة ، ولكل منهما أطماعه المحددة ، وإن لم يتناولها أحد بالتحليل ، فى لبنان . وإلى جانب ذلك فقد كان الخبراء مغرمين بصورة لبنان التى تجسّد أسطورة التحديث . وعندما نقرأ اليوم دراسة راسخة من هذا اللون الذى يتميز بحكمة النعامة ، يروعنا كيف استمرت الأسطورة مطروحة حتى عام ١٩٧٣ ، وهو العام الذى بدأت فيه الحرب الأهلية فعليًا . قيل لنا إن لبنان يمكن أن تتعرض لتغيير ثورى ، ولكن ذلك احتمال ''بعيد'' الوقوع . أما الأرجح فهو ''التحديث فى المستقبل الذى تشارك الجماهير فيه

[وهذه كناية ساخرة مـحزنة عن الحرب الأهلية التى سال فـيها من الدمـاء أكثـر مما سـال فى التاريخ العـربى الحـديث كله] فى إطار الهيكل السياسى السائد'' (١٩) أو كما قال عالم أنثروبولوجى مبرز ''لا تزال 'لوحة الفـسيفساء الجـميلة' فى لبنان قائمة لم يمـسـسها سوء. بل إن لبنان لا يزال أنجح بلد تمكن من التحكم فى انقساماته الأزلية العميقة'' (٢٠) .

وكان من نتـائج هذا الاتجاه أن عجز الخبـراء ، بدليل أحداث لبنان وغيرها ، عن أن يدركوا أن جانبًا من الظواهر المهمة حقًا فى البلدان التى تحررت من الاستعمـار لا يمكن بسهولة أن يجمع تحت عنوان ''الاسـتقـرار'' . أمـا فى لبنان فـإن الذى مـزق البلد هذا التمـزيق الوحشىّ كان على وجه الدقـة تلك القوى غير الثـابتة ، وذات الحراك المدمـر ، التى أغفل الخبـراء تسجيـلها أو هوّنوا من شأنها بانتظام ، ألا وهى قوى الانفصام الاجتماعى ، والانتقالات الديموغرافية ، والانتماءات الدينية ، والتيارات الأيديولوجية(٢١) .

وعلى غرار ذلك كـانت الحكمة التقليدية على امـتداد سنوات تقـول بأن الفلسطينيين لا يزيدون عن كـونهم لاجـئين من الممكن إعادة توطينهم، لا اعتبارهم قوة سياسية ذات عواقب لا مناص من تقدير أبعادها فى أى تقيـيم يتميز بدرجة معـقولة من الدقة للحالة فى الشرق الأدنى . ومع ذلك فلقد أصبح الفلسطينيون ، فى نحو منتـصف السبعـينيات إحـدى المشكلات الكبـرى المعترف بـها فى سياسـات الولايات المتحدة ، وما زال العالم ينتظر منهـا الاهتمام

العلمى والفكرى الذى تقتضيه أهميتهم(٢٢) ؛ ولكن الاتجاه الذى لا يزال قائمًا هو معـاملتهم باعتبارهم يمثلون بعض الملحـقات المرفقة بسياسة الولايات المتحدة تجـاه مصر وإسرائيل ، بل وتجاهلهم تمامًا فى الأحداث التى تـفجرت فى لبنان . ولم تواجـه هذه السيـاسة ثقلاً موازنًا مُهـمًّا فى دراسات **الباحثين** أو الخبراء ، ومن المحتمل إذن أن تواجه المصـالحَ القوميةَ الأمـريكيةَ عواقبُ وخـيمةٌ نتيـجةً لذلك ، خصـوصًا لأن الحـرب الإيرانية العراقـية فيـما يبـدو قد فـاجأت رجـال المخابرات أو أخـذتهم على غرة للمـرة الثانيـة ، وأثبـتت خطأهم الفـادح فى التقـديرات التى وضـعوها للقـدرات الحربية للدولتين .

وتضـاف إلى هذا التوافق بين الدراسـات المطيعـة التى تسـير بخطى السلحـفـاة وبين عـدم الإدراك الحق لمصلحـة الحكومـة ، الحقيقة المؤسفة التى تقـول إن عددًا أكبر مما ينبغى من الخبراء الذين كتبوا عن العالم الإسـلامى لم يكونوا يحيطون بلغات البلدان التى تناولوها فـاضطروا إلى الاعتـماد على الصـحافـة أو غيـرهم من الكتـاب الغـربيين فى الحصـول على مـعلومـاتهم . وهكذا ازداد اعتـمادهم على الصـورة الرسمـية أو التـقليدية للأمـور ، بحيث أصبحت الفخ الذى وقعت فيه أجهـزة الإعلام فى مجمل تغطيتها لأخبار إيران قبل اندلاع الثورة . فلقد ساد الاتجاه إلى دراسة نفس الشىء وإعادة دراسته ، والتركيـز عليه المرة بعد المرة ، مثل دراسة النُّخَب الاجتماعية وبرامج التحديث ، والدور المنوط بالعسكريين،

والزعماء الذين يتمتعون ببروز خاص ، والاستراتيجية الجغرافية السياسية (من وجهة النظر الأمريكية) والتدخلات الشيوعية[٢٣] .

وربما كانت هذه المسائل تبدو فى ذلك الوقت مهمة للولايات المتحدة على المستوى القومى ، ولكن الواقع يقول إن الثورة قد اكتسحتها جميعًا فى أيام معدودة فى إيران ، إذ انهار البلاط الإمبراطورى برمته ، وتشتت الجيش الذى أُغدقت عليه مليارات الدولارات وتوارت النُّخَبُ المزعومة وتكيفت مع النظام الجديد ، ولا يمكن القول فى أى من الحالين ، على نحو ما كان يقال قديمًا، إنها هى التى تحدد السلوك السياسى الإيرانى . ولنسمع ما قاله أحد الخبراء ، الذى يرجع إليه الفضل فى التنبؤ بما يمكن أن تؤدى إليه "أزمة ١٩٧٨" ، وهو چيمس بِلْ من جامعة تكساس الذى كان يقدم المشورة إلى واضعى السياسات الأمريكيين فأشار عليهم فى ديسمبر ١٩٧٨ (وقد تأخر الوقت) بأنه ينبغى على حكومة الولايات المتحدة أن تشجع "الشاه . . على أن يبدأ فى الأخذ بالانفتاح فى نظام الحكم" [٢٤] . وبعبارة أخرى كان صوت الخبير المذكور الذى يفترض فيه الانشقاق ما زال ملتزمًا بالحفاظ على نظام كانت الملايين ، دون مبالغة ، قد هبّت لمعارضته وخرجت تهتف ضده فى حركة تمرد من أكبر الحركات التى شهدها التاريخ الحديث ، حتى فى اللحظة التى كان يسدى تلك المشورة فيها .

ومع ذلك فإن بِلْ قد أبدى ملاحظات مهمة بشأن الجهل العام بإيران فى الولايات المتحدة ، فلقد أصاب حين قال إن تغطية

أجهزة الإعـلام كانت سطحية ، وإن السيـاسة الإعلامية الرسـمية كانت مُسـخّرة لتحقيق ما يريده الشـاه ، وإن الولايات المتحدة لم تبذل الجهد اللازم سواء لاكتساب مـعرفة عميقة بالبلد أو للاتصال بالمعـارضة . ولقد كـانت مظاهر الإخـفاق المذكـورة من أعراض الموقف العـام الذى اتخذته الولايات المتـحدة وأوروبا إزاء العـالم الإسـلامى ، وأيضًا ، وعلى نحـو مـا سوف نرى ، إزاء مـعظم بلدان العالـم الثالث ، وإن لم يصرح بذلك جـيمس بِلْ ، بَلْ إن عدم ربطه بين ما كان يقوله مُحقًّا عن إيران بسائر العالم الإسلامى يدخل فى إطار ذلك الموقف نفـسه . فلم يـتعـرض أحد، أولاً ، لإجابة الأسـئلة المنهجـية الرئيسـية وهى : ما قـيمـة الحديث عن "الإسلام" و"النهضة الإسـلامية" (إن كانت للحديث قـيمة) ؟ وثانيًا : ما هى ، أو كيف ينبغى أن تكون ، العـلاقة بين سياسات الحكومة والبحث العلمى ؟ هل من المفترض أن يسـمو الخبير على مستـوى السياسة أو يصبح ملـحقًا متصـلاً بالحكومات ؟ وقال بِلْ المذكور، ووليم بيمان، من جامعة براون، فى مناسبتين منفصلتين، إن أحد الأسـباب الرئيسـية للأزمة النـاشبة بين الولايات المتـحدة وإيران فى ١٩٧٩ هو عدم استشارة الخبراء الأكاديميين الذين أُنفقت على تعليمـهم مبالغ طائلة لهـدف محدد وهو اكتـساب المزيد من المعرفة بالعالم الإسلامى[٢٥] . أما الذى فات بِلْ وبيمان أن ينظرا فيـه فهو مـا يلى : ربما كان سـعى الباحثين نفـسه للنهـوض بهذا الدور، حتى وهم يطلقون على أنفـسهم لقب الباحثين ، سببًا فى

أن يظهـروا بمظهـر من يفتـقـر إلى الوضـوح والحسم فـيـفقـدوا مصداقيتهم فى عيون الحكومة وفئة المثقفين جميعًا[٢٦] .

ولنتـساءل أيضًـا ، إلى جـانب ذلك ، عـما إذا كـان المفكّر المسـتقل (وهـو الذى لا بد أن يكونه كل باحث أكـاديمى على أية حال) يستطيع أن يحافظ على استقلاله وهو يعمل فى الوقت نفسه لحساب الدولة ؟ ومـا الصلة بين المشاركة السياسيـة الصريحة وبين البصـيرة الصائبـة ؟ هل تنفى إحداهمـا الأخرى ، أم أن ذلك لا يصدق إلا فى بـعض الحالات ؟ لماذا حُرم البـاحثـون فى الإسلام جميعًا فى أمريكا (على قلة عـددهم) من مخاطبة جمهور أوسع ؟ لماذا حدث ذلك فى الوقت الـذى بدت فيه الولايات المتـحدة فى مـسيس الحـاجـة إلى المشـورة ؟ ومن المحال إجـابة هذه الأسـئلة جميـعًا، بطبيعة الحال ، إلا بـالرجوع إلى الإطار الفعلى ، الذى يغلب عليه الطابع السياسى ، ويحكم العلاقات تاريخيًا بين الغرب والعالم الإسلامـى . فلننظر إذن إلى ذلك الإطار حتى نرى الدور المنوط بالخبير فيه .

لم أستطع أن أكـتشف فـترة فى التاريـخ الأوروبى أو التاريخ الأمريكى منذ العصور الوسطى ناقش أحد فيها الإسلام أو فكر فيه خارج إطار صاغـته العـاطفة المشبـوبة ، والتعـصب ، والمصالح السياسيـة . وقد لا يبدو ذلك اكتشافًـا يدعو إلى الدهشة ، ولكنه يضم فى ثناياه جميع ألوان المباحث العلمـية والأكاديمية التى كانت منذ مطلع القـرن الثامن عـشر تطلق على نفـسهـا اسمًا كُلّـيًا هو

مبـحث الاستشـراق أو كانت تحاول ، بانتظام ، دراسـة الشرق . ولن يختلف أحد مع القول بأن أوائل الذين علّقوا على الإسلام ، مـثل بطرس المبـجل ، وبارتليـمى دربيلو ، قـد اتخـذوا مـوقف المجادلة المسيحية المشبوبة فيما قالوه . ولكنّ أمامنا افتراضًا لم ينظر أحد فى صـحته يقـول إنه حين تقدمت أوروبا والغرب فـاتخذت خطواتها فى العصر العلمى الحديث ، وحـررت نفسها من الخرافة والجهل ، كانـت مسيرتها بالـضرورة تتضمن الاستـشراق . أليس صحيحًا أن سيلڤستر دى ساسـى ، وإدوارد لين ، وإرنست رينان، وهاملتون جِبْ ، ولويس ماسينيـون ، كانوا من الباحثين والعلماء الموضوعيين ، وأليس صحيحًا أن من آثار التقدم الذى شهده القرن العشرون بشتى ألوانه فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللغويات والتاريخ أن أصـبح الباحثون الأمـريكيون الذين يقومـون بتدريس الشـرق الأوسط والإسلام فـى جامـعات كـبـرى مثـل برنستـون وهارڤـارد وشـيكاغو ، بالضـرورة ، غيـر منحازين ولا يمارسـون الدعوة إلى شىء فيما يفـعلونه ؟ أما الإجابة عندى فهى بالنفى . وليس ذلك لأن الاسـتشراق أكـثر تحيّـزًا من العلوم الاجتـماعـية والإنسـانية الأخـرى ؛ لكنه وحـسب ، مـثل غيـره من المبـاحث المذكورة ، له سماته الأيديولوجية ويتأثر مثلها بالعالم من حوله . أما الفارق الأوحـد فهو أن باحثى الاسـتشراق يبادرون باسـتخدام مواقعهم ، باعتبارهم خـبراء ، فى إنكار (وأحيانًا حتى فى إخفاء) مشاعرهم العميقة تجاه الإسلام بلغة الثقات التى تهدف إلى الشهادة "بموضوعيتهم" وكذلك "بحيادهم العلمى" .

هذه واحـدة . أما الأخـرى فـهى مـا يتمـيـز به هذا النسق التـاريخى المعين ، ولولاه لتسـاوت مظاهر الاسـتشـراق جمـيعًـا واستحال تمـييز أحدها عن سواها . وأما هذا النسق فـهو أنه كلما شعر الناس ، فى العصور الحديثة ، بتوتر سياسىّ حادّ بين الغرب والشرق **التـابع له** (أو بين الغـرب وبين الإسلام **التـابع له**) ظهر النزوع فى الغرب إلى العزوف عن اللجوء إلى العنف مباشرة، بل اللجـوء أولاً إلى رسم صورة الخَـصم بالأدوات والوسائل الهـادئة التى تتمـتع بالتجرّد النسبى والتى يتـميز بها كل رسم عِلْـمىّ شبه مـوضـوعى ، وهكذا يزداد وضـوح صـورة " الإسلام" ويظهـر "الطابع الحـقيـقى" لما يمثله من تهـديد ، وهو مـا يوحى ضـمنًا بالخطوات التى سوف تتـخذ إزاءه . وفى مثل هذا السيـاق ، يبدو للكثير من المسلمين ، الذين يعيشون فى ظل ظروف بالغة التنوع ، أن العلـم والعنف المبـاشـر شكلان من أشـكال العـدوان على الإسلام .

وفيـما يلى مثـالان بارزان يشهدان على صـحة القضـية التى أطرحـها . فنحن حين نسـترجـع التاريخ القـريب نرى أن فرنسـا وانجلترا سبقـتا احتلالهما فى القرن التاسع عـشر لبعض أجزاء من الشرق الإسـلامىّ بفتـرة تعرضت فيـها شـتى الأساليب العلمـية المستخدمة فى تحديد ملامح الشرق وتفهمه لقدر باهر من التحديث والتطور التقنيين[٢٧] . فلقد جـاء الاحتلال الفرنسى للجـزائر عام ١٨٣٠ فى أعـقاب مـرحلة امتـدت قرابـة عقـدين أحال العلمـاء

الفرنسيون فيها دراسة الشرق من مجال الآثار إلى مبحث علمى حديث . وكان قد سبق هذا ، كما هو معروف ، قيام نابليون بونابرت باحتلال مصر عام ١٧٩٨ ، ونحن نذكر أنه قد مهد لحملته بأن جمع حشدًا من العلماء النابهين حتى يكفل لمشروعه النجاح . ولكن ما أقوله هو إن احتلال نابليون لمصر الذى لم يطل عهده كان بمثابة انتهاء فصل ، وأما الفصل الجديد فقد بدأ بالفترة الطويلة التى تولّى فيها سلفستر دى ساسى رعاية المؤسسات الفرنسية للدراسات الشرقية ، فأصبحت فرنسا تتزعم العالم فى الاستشراق ؛ ثم وصل هذا إلى ذروته بعد قليل حين قامت الجيوش الفرنسية باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠ .

ولا أريد على الإطلاق أن أوحى بوجود علاقة سببية بين شىء وآخر أو أن أتخذ الموقف المناقض للعقلانية الذى يقول إن المعارف العلمية تؤدى بالضرورة إلى العنف والمعاناة . فكل ما أريد قوله هو إن الامبراطوريات لا تولد فى التوّ واللحظة ، كما إنها لم تعتمد على الارتجال فى إدارتها فى العصر الحديث . فإذا كان تطور العلم يتضمن إعادة تعريف وإعادة تشكيل مجالات الخبرة البشرية على أيدى علماء يتسامون على المادة التى يدرسونها، فليس من قبيل الخروج عن موضوعى أن أرى التطور نفسه عند السياسيين الذين يعاد تحديد وتعريف نطاق سلطانهم حتى يضم مناطق العالم "الأدنى" منزلة حيث يمكن اكتشاف مصالح "قومية" جديدة - وينتهى الرأى فى وقت لاحق إلى أنها تحتاج

إلى الإشراف الوثيق عليـها(٢٨) . وأشك كثيـرًا فى أن انجلترا كان يمكن أن تحـتل مـصر تلك الفـتـرة الطويلة احـتلالاً قـائمًـا على مـؤسـسات هائـلة لولا استـثـمـارها الثـابت الطويل للدراسـات الاستشراقية الـتى بذر بذورها بعض الباحثين أول الأمر مثل إدوارد وليم لين ، ووليم چونز . فأمّا مـا أثبته المستشرقـون بشأن الشرق فهو أنهم أتاحوا المعرفة به ، ويُسر الوصول إليه ، وسُهولة تصويره فى عـيون الغـرب. أى إن الشـرق يمكن أن يُرى ، وأن يُدرس ، وأن يخضـع للإدارة ، ومن ثم فلا حاجـة بنا إلى أن نصبـر على استمرار بُـعد ذلك المكان الحافل بالأعاجيب والزاخر بما يسـتعصى على الفهم ، وهـو المكان البالغ الثراء ! وإذن فـمن الممكن لنا أن ننقله إلى ديارنا، أو بعبارة أبسط ، تستطيع أوروبا أن تجعله امتدادًا لأوطانها، على نحـو ما فعلت فى الواقع بعد ذلك !

أما المثال الثانى الذى أسوقه فهو معاصر . فالشرق الإسلامى اليـوم ذو أهميـة واضـحة إمـا بسـبب موارده أو بسـبب مـوقعـه الجغرافى، وإن كان كل من هذين السـببين لا يتفق مع المصالح أو الحاجات أو الآمال الخاصة للشرقيين من أبناء تلك البلدان . ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانيـة والولايات المتحدة تحتل مواقع السيطرة والهيـمنة التى كانت تشغلـها بريطانيا وفـرنسا يومًا مـا فى العالم الإسـلامى . وقد صـاحب الإبدال المذكور لـنظام إمبـريالى بنظام إمبـريالى آخر بروز ظاهرتين ، الأولـى هى تفتح براعم الاهتـمام العلمى والأكـاديمى بالإسلام ، وهو الاهتمـام الموجه للتـعامل مع

الأزمات ، والثانية هى الثورة الهائلة فى التـقنيات المتاحة للصحافة التى يملكهـا القطاع الخاص بصـفة رئيـسيـة وصناعات الـصحـافة الإلكترونية . فلم يسبق فى التاريخ أن قامت أجهزة الإعلام بتغطية أنباء بـقعة من بقـاع التوتر مـثل إيران بمثل هذه السرعـة والانتظام حتى بدا كأن إيران قد **دخلت** حياة الأمريكيين ، وإن كانت غريبة عليهم ، بعمق وتركيز غيـر مسبوق . وتضافرت هاتان الظاهرتان – وتأثير الثانية أكبر من الأولى – وهما اللتـان جعلتا جانبًا ضخمًا من جهاز خبراء الجامعـة والحكومة وقطاع الأعمال التجارية يتولى دراسة الإسلام والشـرق الأوسط ، حتى أصبح الإسلام مـوضوعًا مألوفًا لكل ' مستهلك' للأنباء فى الغـرب، أقول إنهما تضـافرتا حـتى جـعلتـا الإسلام نزيـلاً فى منازل الغـربيين، أو على الأقل جوانبه التى تعتبر جديرة بتنـاقل أخبارها . ولم يقتصر الأمر على أن أصبح ذلك العـالم موضوعًـا لأعمق حـالات التشبع الثـقافى والاقتـصادى الغـربى فى التاريخ – إذ لا يوجـد إقليم غيـر غربى يتعرض لسيطرة الولايات المتحدة اليوم مثل العالم العربى الإسلامى – بل إن ميزان المبادلات بين الإسلام والغرب (الذى تمثله الولايات المتحدة فى هذه الحالة) يميل مـيلاً شديدًا إلى جانب دون الآخر ، كمـا إنه يتسم كذلك بالانحـراف الشديد عن ميـزان المبادلات بين الغـرب وسائر مـناطـق العالـم الإسلامى التى لا تـشغل نشـرات الأنباء.

وقد لا أبالغ إلا مبـالغة طفيفـة إذا قلت إن المسلمين والعرب

يتعرضون للتغطية الإعلاميـة ، وللمناقشة ، وللخشية منهم بصفة أساسيـة إما باعتبارهم مـوردين للنفط أو بسبب احتمـال مزاولتهم للإرهاب . ولم يتسـرب إلا أقل القليل من تفاصيل الحيـاة العربية الإسلامية وكثـافتها الإنسانية ومشاعـرها المشبوبة إلى وعى أحد ، حتى أولئك الأشخاص الذين يحتـرفون نقل أنباء العالم الإسلامى، وبدلاً من هذا لا نجد إلا سلسلة محدودة من الصور الكاريكاتورية العامة والفـجّة للعالم الإسلامى ، وهى تقـدم بأسلوب يعرّضه ، فيما يعـرّضه له ، للعدوان العسكرى[٢٩] . ولا أعتقد أنه كان من قبـيل المصادفة أن يكون الحديث الذى دار فى الآونة الأخـيرة عن قيام الولايات المتحدة بالتدخل العسكرى فى الخليج العربى ، أو ما يسمى بمبدأ كارتر ، أو المناقشـات التى دارت حول قوات الانتشار السريع ، قـد سبقته فـترة من التصوير الـعقلانى "للإسلام" من خلال البرامج التليفزيونية الهـادئة ، ومن خلال دراسة المستشرقين "الموضوعية" (ومن المفارقـات أنها كانت على أحد حـالين : إمّا أنها "لم تكن لهـا صلة" بحـقائق الواقـع الحالى، أو أنهـا حين اتخذت طابع الدعاية "الموضوعية" لم تنجح إلا فى تنفير الجمهور من ذلك 'العالم'): إن الوضع الحالى يتسم بعدة أوجه شبَه مثيرة للرّعدة مع الوضع الذى نشـأ فى القرن التاسع عشـر عندما قامت بريطانيا وفرنسا بغزو العالم العربى الإسلامى.

ولهذا أسبـاب سياسية وثقـافية أخرى . ففى أعـقاب الحرب العالمية الثانية ، عندما نهـضت الولايات المتحدة بالدور الامبريالى

الذى كانت تـنهض به فرنسا وبريـطانيا ، وضعت مـجمـوعة من السياسات اللازمة للتعـامل مع العالم الخارجى والتى كانت مناسبة لخـصـائص ومشكـلات كل إقليم يؤثر ويتـأثر بمصـالح الولايات المتحـدة ، فوضـعت مشروعًـا لنهضـة أوروبا من كبـوة الحرب ، واتخذت له الخطوات المناسبة ومن بينهـا خطة مارشال وغيرها من السياسات المماثلة . وبرز الاتحاد السوفييتى بطبيعة الحـال باعتباره أقوى منافس للولايات المتحدة، وكما لا يحتاج أحد إلى التذكير، أدت الحرب البـاردة إلى وضع سيـاسات ودراسات بـل وإلى نشأة منهج فى الـتـفكيـر لا يزال يسـيطر على الـعـلاقـة بين الدولتين العظمـيين. وكان مـن جرّاء ذلك ترك مـا أصبح يـسمى بالعـالم الثالث، فأصـبح ساحة للتنافس لا بين الولايات المتـحدة والاتحاد السوفييتى فقط بل أيضًا بين الولايات المتحدة وشتى الدول الوطنية بُعَيْدَ حصولها على استقلالها من الاستعمار الأوروبى .

وكان واضـعو السيـاسات الأمريكيـون يعتبـرون بلدان العالم الثالث ، وبلا استـثناء تقريبًا ، بلدانًا " متخلفة" ، تسيطر عليها أساليب حياة "تقليدية" قديمة بالية ثابـتة دونما داعٍ ، ويرون أنها تتعـرض لأخطار التخـريب الشيوعى والركـود الداخلى . وهكذا وضعت الولايات المتحدة "تحديث" العالم الثالث على قمة جدول أعماله ، إذ كانت "نظرية التحديث" ، كما يقول جيمس پك ، "الإجابة الأيديـولوجية اللازمـة لعالم تزداد فـيه القلاقـل الثورية وتستمـر فيه معارضـة النُّخَب السياسيـة التقليدية" (٣٠) . وهكذا

تدفقت مبالغ مالية هائلة إلى إفريقيا وآسيا بهدف وقف الشيوعية، وترويج التجارة الأمريكية ، وقبل ذلك كله ، بناء صفوف من الحلفاء المحليين وهم الذين يرمى وجودهم ، فيما يبدو ، وبصراحة إلى تحويل البلدان المتخلفة إلى صور مصغرة من أمريكا. وبمرور الزمن تطلب الأمر استكمال الاستثمارات المبدئية بمبالغ إضافية وزيادة الدعم العسكرى حفاظًا عليهم ، وقد أدى هذا بدوره إلى التدخل المتكرر فى شتى بلدان آسيا وأمريكا اللاتينية ، وهو الذى دمغ الولايات المتحدة بمعاداة كل ضرب من ضروب القومية المحلية تقريبًا .

ولن يتسنى لنا أن نفهم الفهم الكامل تاريخ جهود الولايات المتحدة فى سبيل تحديث وتنمية العالم الثالث إلا إذا أدركنا ما أدت إليه تلك السياسات نفسها ، فلقد نشأت عنها طرائق معينة فى التفكير والنظر إلى العالم الثالث كان من شأنها زيادة الاستثمار السياسى والعاطفى والاستراتيجى فى فكرة التحديث ذاتها ، على نحو ما تمثله خير تمثيل حالة ڤيتنام . فما إن تقرر إنقاذ ذلك البلد من الشيوعية بل من ذاته ، حتى نشأ "عِلْمٌ جديد" خاص بتحديث ڤيتنام (ولقد عُرفت آخر مراحله وأثقل المراحل تكلفة باسم "الڤتنمة") . ولم يقتصر المشاركون فيه على المتخصصين الحكوميين بل انضم إليهم خبراء الجامعات . وبمرور الوقت أصبح بقاء الأنظمة الموالية لأمريكا والمعادية للشيوعية شاغلاً يتمتع بالأولوية على كل ما عداه ، حتى عندما اتضح أن غالبية كبيرة من

السكان تعتبر هذه الأنظمة غريبة وظالمة ، وحتى حين أدى الدخول فى حروب فاشلة لحساب تلك الأنظمة إلى تخريب المنطقة بأسرها وفقدان ليندون جونسون رئاسته لأمريكا . ومع ذلك فلقد صدرت كتابات بالغة الكثرة عن فضائل ومحاسن تحديث المجتمع التقليدى حتى اكتسبت تلك الكتابات منزلة الحجة التى يستشهد بها اجتماعيًا (وثقافيًا بالتأكيد) فى الولايات المتحدة ، بل لقد استمر ذلك حتى حين ربط تفكير الناس فى كثير من مناطق العالم الثالث ما بين " التحديث" وبين سفه الإنفاق ، واقتناء أدوات حديثة وأسلحة لا لزوم لها ، والحكام الفاسدين ، والتدخل الوحشى من جانب الولايات المتحدة فى شئون البلدان الصغيرة والضعيفة .

ومن بين الأوهام الكثيرة التى كتب لها البقاء فى إطار نظرية التحديث وَهْمٌ يرتبط ارتباطًا خاصًا فيما يبدو بالعالم الإسلامى ، ألا وهو أن الإسلام كان يعيش ، قبل قدوم الولايات المتحدة ، فى نوع من الطفولة اللازمنية التى يتحصّنُ فيها ضد التنمية الحقيقية بمجموعة بالية قديمة من الخرافات ، وأن له كُهّانًا ونُسّاخًا يتسمون بالغرابة ويحُولون بينه وبين الانتقال من العصور الوسطى إلى العالم الحديث . وفى هذا يتفق الاستشراق اتفاقًا دقيقًا مع نظرية التحديث . فإذا صح ما قالت به دراسات المستشرقين على مر السنين من أن المسلمين لا يزيدون عن كونهم أطفالاً يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويتعرضون لطغيان تكوينهم العقلى نفسه ، وطغيان "علمائهم" وقادتهم السياسيين ذوى النظرات الوحشية ،

بحيث يقاومون الغرب والتقدم ، أفلا يستطيع كل من يجدر بالثقة فيه من المتخصصين فى العلوم السياسية والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع أن يثبت أنه من الممكن الأخذ بأسلوب حياة شبيه بأسلوب الحياة الأمريكية فى إطار الإسلام ، إذا سنحت فرصة معقولة ، عن طريق البضائع الاستهلاكية والدعاية المعادية للشيوعية والقادة ''الصالحين'' ؟ ولكن الصعوبة فى حالة الإسلام ترجع إلى أن الغرب لم ينجح يومًا فى استرضائه أو هزيمته ، بخلاف ما حدث فى الهند أو فى الصين ، فلقد استمر الإسلام (أو استمرت إحدى صوره) - ولأسباب يستعصى إدراكها ، فيما يبدو ، دائمًا على الباحثين ، فى السيطرة على المؤمنين به ، والذين تَرَدَّدَ القول وبانتظام بأنهم عازفون عن تقبل الواقع ، أو على الأقل ذلك الجانب من الواقع الذى يمكن إثبات تفوق الغرب فيه.

وهكذا استمرت جهود التحديث على امتداد العقدين اللذين أعقبا الحرب العالمية الثانية وأصبحت إيران فى الواقع قصة نجاح التحديث المثالية وأصبح حاكمها هو الزعيم الذى تفوق فى ''التحديث'' . وأما عن سائر العالم الإسلامى ، سواء كان الأمر يعنى القوميين العرب ، أو جمال عبد الناصر فى مصر ، أو سوكارنو فى إندونيسيا ، أو الوطنيين الفلسطينيين ، أو جماعات المعارضة الإيرانية ، أو آلاف المجهولين من الدعاة الإسلاميين ، أو الجماعات الإسلامية ، أو أرباب المذاهب الإسلامية المختلفة ، فلقد كان مصيره جميعًا إما المعارضة أو التجاهل من جانب

الدارسين الغـربيين الذين وجـهوا اسـتـثمـارات ثقـيلة إلى نظرية التحديث والمصالح الاستراتيجيـة والاقتصادية الأمريكية فى العالم الإسلامى .

ولقد قدم الإسـلام فى عقد السبعـينيات المتفجـر دليلاً جديدًا على العناد المتأصل فيـه ، فلقد شهد ذلك العقد ، مـثلاً ، الثورة الإيرانية ، التى لم تكن موالية للشيـوعية أو للتحديث ، وكان من المحال تفسير ما فعله من أسقطوا الشاه وفقًا للقواعد التى تفترضها سلفًا نظـرية التحديث ، إذ لم يظـهروا امتنانهم ، فـيمـا يبدو ، للمزايا التى جـاء بها التحديث للحيـاة اليومية (مـثل السيارات ، والجهاز العسكرى والأمنى الهائل، والـنظام المستقر) ولم يكترثوا، فيما يبدو ، لمداهنات الأفكار ''الغربية'' على الإطلاق[٣١] . أما ما أقضّ مضجع البـاحثين فى موقف هؤلاء ، وخصـوصًا فى موقف الخومينى ، فهو رفضهم بضراوة تقبل أى أسلوب سياسى (أو حتى عقلانى) لم يضعوه بأنفسهم . وقـبل كل شىء ، كان استمساكهم بالإسلام يتضمن قدرًا محـيّرا من التحدى . ومن المفارقات أنه لم يفطن إلا قلة ممن تحـدثوا فى الغـرب عن البدائيـة '' الإسلامـية'' واعتماد الإسلام على طرائق المنطق السائدة فى العصور الوسطى ، إلى أن إسرائيل التى يحكمها بيجين ، والتى تقع على مبعدة أميال إلى الغـرب من إيران ، تطبق نظامًا على اسـتعـداد كامل لإقـامة أفـعـاله على أسس السلطـة الدينيـة ووفـقًا لمـذهب لاهوتى بالغ الرجعـية[٣٢]. بل ولم يفطن إلا أقل من هذه القلة من المعلقين ، الذين كـانوا ينعـون الفـورة الظاهرة للتـديّن عنـد المسلمين، إلى

ارتباطهـا بفـورة مماثلة فـى 'أديان التليـفزيون' والتى اعـتنقتـها الملايين ، فى الولايات المتـحـدة ، أو إلى أن اثنين من المرشـحين الرئيسين لرئاسة الجمهورية عام ١٩٨٠ أخذا يعلنان أنهما ولدا من جديد فى كنف المسيحية التى يخلصان لها أعمق إخلاص .

وهكذا لم تعـد الحـميّـة الدينيـة تُنسب إلى أى دين سـوى الإسلام، حتى بعد انتشار المشاعر الدينية الفياضة وبروزها فى كل مكان : ويكفى أن نذكـر كيف أسرفـت الصحف ' المتحررة' فى الحديث عـن الشخصـيات الدينيـة التى تقـر بعدم ' تحررها' مثل سولچنتسين أو البابا يوحنا بولس الثـانى حتى ندرك مدى الانحياز فى الموقف العدائى تجاه الإسلام(٣٣). وهكذا أيضًا تمكن الغربيون من تفسير سلوك معظم الـدول الإسلامية قائلين إنه يمثل ' تقهقرًا' للإحتـماء بالإسلام ، من المملكة العـربية السعـودية التى رفضت المصادقة على اتفاقيات كامپ داڤيد فافترض المعلقون أنها لجأت فى ذلك إلى تطبيق منطق إسـلامى خاص، إلى پاكسـتان وأفغانسـتان والجزائر . وهكذا نرى كيف أصبح العالم الإسلامى يختلف ، فى العقل الغربى بصفة عامة وفى عقل الولايات المتحدة بصفة خاصة، عن سائر مناطق العالم التى يمكن تحليل مـواقفها من زاوية الحرب البـاردة. وعلى سـبيل المثـال بدا من المحـال الحـديث عن المملكة العربية السعودية والكويت باعتـبار أنهما ينتميان ''للعالم الحر'' ، بل وحتى إيران إبّان حكم الشاه ، وعلى الرغم من التزامها القاطع بمعاداة الشيـوعية ، إذ كان من المحال أن نعتـبرها تنتمى حقًّا إلى ''جانبنا'' بالصورة التى تنتمى بها فرنسا وبريطانيا مثلاً . ومع ذلك

فقد دأب واضعو السياسات فى الولايات المتحدة على الحديث عن "فقدان" إيران ، مثلما كانوا يتحدثـون فى العقود الثلاثة الأخيرة عن " فقدان" الصين وڤيتنام وأنجولا . زد على ذلك أنه كان من سوء الحظ الشـديد للبلدان الإسلامية فى منطقـة الخليج العربى أن ينظر إليهـا الأمريكيون المتـخصصـون فى إدارة الأزمات باعتـبارها أماكن جـاهزة للتدخل العسكرى الأمـريكى . وهكذا قال چورج بول فى مجلة **نيويورك تايمز مـاجازين** بتاريخ ٢٨ يونيو ١٩٧٠ ، بلهـجـة التـحـذير ، إن "مأسـاة ڤيـتنام" يمكن أن تؤدى إلى "الاسترضاء والعزلة" الداخلية، ولكن للولايات المتحـدة مصالح بالغـة الأهميـة فى الشرق الأوسط ، إلى الحـد الذى يقتـضى من الرئيس "تعليم" الأمريكيين ما يلزم بشأن إمكان التدخل العسكرى هناك[٣٤] .

ولابد من ذكر أمر آخـر هنا ، ألا وهو الدور المنوط بإسرائيل فى تمثيل رؤية الغـرب ، وخصوصًا رؤية الولايات المتحـدة للعالم الإسلامى منذ الحـرب العالمية الـثانية . فـفى المقام الأول يندر أن تشير الصـحافة الغربيـة إلى الطابع الدينى لإسرائيل ، وهو الطابع الذى تصرح به إسرائيل نفسهـا ، ولم نشهد إلاّ فى الآونة الأخيرة إشارات سـافرة إلى التـعصب الدينى الإسـرائيلى . وكانت كـلها خاصـة بمتـحمّسـى منظمة غـوش إمونيم الدينيين ، والذيـن كان نشاطهم الرئيسى ينحـصر فى استخدام العنف لإنشاء مـستوطنات غيـر مشروعـة فى الضفة الغـربية . ولكن مـعظم الإشارات إلى

غوش إمونيم فى الغرب تتجاهل ببساطة حقيقة 'مزعجة' وهى أن حكومة حزب العمل " العلمانية" كانت أول من أقر إنشاء المستوطنات غير المشروعة فى الأراضى العربية المحتلة ، أى إن الأمر لا يقتصر على المتعصبين الدينيين الذين يثيرون القلاقل حاليًا. وأعتقد أن هذا الإعلام المنحاز دليل على الأسلوب الذى استخدمه الغرب فى الإيحاء بأن إسرائيل - التى يقولون إنها "الديموقراطية الوحيدة" فى الشرق الأوسط ويؤكدون أنها "حليفنا الوثيق" - تمثل النموذج المقابل للإسلام(٣٥) . وهكذا ظهرت إسرائيل بمظهر معقل الحضارة الغربية الذى أقيم (مع قدر كبير من التهليل له وتهنئة ذواتهم عليه) وسط البرية الإسلامية . وثانيًا نجد أن عيون الغرب أصبحت ترى أن أمن إسرائيل يوازى صد غائلة الإسلام ، وهو ما يريح الغربيين ، وترسيخ الهيمنة الغربية إلى ما لا نهاية ، وتبيان فضائل التحديث ومزاياه . وهكذا نرى أن ثلاث مجموعات من الأوهام تدعم وتولّد بعضها البعض فى سبيل تعزيز صورة الغرب لذاته ونشر سيطرة الغرب على الشرق، وهى : صورة الإسلام، وأيديولوجية التحديث ، وتأكيد القيمة العامة لإسرائيل عند الغرب .

وبالإضافة إلى ذلك ، وحتى تصبح " مواقفنا" إزاء الإسلام فى غاية الوضوح ، نشأ جهاز كامل للإعلام ووضع السياسات فى الولايات المتحدة بحيث يعتمد على هذه الأوهام وينشرها على نطاق واسع . فإذا بشرائح عريضة من المثقفين المتحالفين مع رجال

الاستراتيجيات الجغرافية السياسية يشتركون فى الإدلاء بآراء مفصّلة مُسْهبة عن الإسلام ، وعن النفط ، وعن مستقبل الحضارة الغربية، وعن الكفاح فى سبيل الديموقراطية ضد القلاقل والإرهاب . وللأسباب التى ناقشتها آنفًا ، يقوم المتخصصون فى الإسلام بتغذية هذا التيار الكبير ، على الرغم من الحقيقة التى لا يمكن إنكارها وهى أن جانبًا مما يجرى فى الدراسات الإسلامية الأكاديمية قد أصابته عدوى الرؤى الثقافية والسياسية التى نجدها فى الجغرافيا السياسية وأيديولوجيا الحرب الباردة . وتحت ذلك المستوى بقليل تأتى أجهزة الإعلام الجماهيرية ، وهى التى تأخذ من الوحدتين الأخريين من وحدات الجهاز ما يمكن ضغطه بأقصى سهولة ممكنة فى صور محددة، ومن هنا تأتى الصور الكاريكاتورية، والجماهير الغوغائية المخيفة ، والتركيز على الحدود (أى العقوبات) ''الإسلامية'' وهلمّ جرًا . وتترأس هذا كله المؤسسات ذات النفوذ الجبار ، مثل شركات النفط ، والشركات العملاقة ، والشركات المتعددة الجنسيات ، وأجهزة الدفاع والاستخبارات ، والفرع التنفيذى للحكومة . وعندما قضى الرئيس كارتر عطلة رأس السنة الأولى بعد توليه منصب رئيس الجمهورية عام ١٩٧٨ مع شاه إيران ، وقال إن إيران '' جزيرة استقرار'' كان يتحدث بلسان القوة المحتشدة لهذا الجهاز الجبار ، وهو الذى يمثل مصالح الولايات المتحدة ويغطى الإسلام فى الوقت نفسه .

ثانيا : جماعات التفسير :

ومن الجدير بنا فى هذا السياق أن ننظر فى أساليب ''انتفاع'' واضعى الاستراتيجيات السياسية الجغرافية والمثقفين الليبراليين بصورة الإسلام فى الولايات المتحدة ، فليس من قبيل المبالغة أن نقول إن ذكر ''الإسلام'' نادرًا ما كان يرد فى المجالات الثقافية أو الإعلامية قبل الارتفاع المفاجئ فى أسعار النفط الذى أعلنته منظمة ''أوبك'' فى أوائل عام ١٩٧٤ . كنا نشاهد ونسمع عن العرب والإيرانيين ، وعن الباكستانيين والأتراك ، لكنه كان من النادر أن يشير أحد إلى ''المسلمين'' . لكن الارتفاع الهائل فى تكلفة النفط المستورد أصبح يرتبط فى عقول الجماهير بمجموعة من الأمور الكريهة : اعتماد الأمريكيين على النفط المستورد (وهو ما كان يشار إليه عادة بعبارة ''الوقوع تحت رحمة منتجى النفط الأجانب'')؛ والخوف من أن ينتقل التشدد من الخليج العربى إلى الفرد الأمريكى ؛ وقبل هذا وذاك إشارة - كأنما هى صادرة من قوة جديدة لم نكن نعرف هويتها قبل الآن - تقول إن الطاقة لم تعد ''ملكًا لنا'' ما علينا إلا أن نمد أيدينا فننالها . وسرعان ما أصبحت بعض الكلمات ، مثل '' الاحتكار'' و''الكارتيل'' (أى اتفاق المنتجين) و''التكتل'' ، شائعة بصورة مفاجئة وإن كان شيوعها مقصورًا على سياسات مختارة ، رغم أنه كان من أندر النادر أن يشير أحد إلى المجموعة الصغيرة من الشركات الأمريكية المتعددة الجنسيات باعتبارها '' كارتيل'' ، إذ اقتصر الكُتّاب

والمتحدثون على إطلاق تلك التسمية على أعضاء منظمة ''أوبك''. ولكن أهم فى الأمر هو أن تعرّض الاقتصاد لهذه الضغوط الجديدة قد أدى ، فيما يبدو ، إلى نشوء موقف ثقافى وسياسى لا يقل عن هذه الضغوط جدّة . فبعد أن كانت الولايات المتحدة هى القوة المهيمنة فى العالم أصبحت تتعرض لحصار مثير أعلن انتهاء فترة ''ما بعد الحرب'' على حد وصف فريتز ستيرن للموقف الحالى فى مجلة ''**كومنتارى**''(٣٦) .

وكان من أهم الكتابات الأولى التى تحدثت عن التغيير الناشئ سلسلةُ المقالات التى نشرتها مجلة **كومنتارى** فى النصف الأول من عام ١٩٧٥ . جاءت أولاً مقالة كتبها روبرت و. تاكر بعنوان ''النفط : قضية التدخل الأمريكى'' (يناير) ثم جاءت مقالة دانيل باتريك موينيهان بعنوان ''الولايات المتحدة تواجه المعارضة'' (مارس) وعنوان كل مقالة يفصح بوضوحٍ قاطع عما تدعو إليه . ثم أصبح موينيهان مندوبًا يمثل الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة حيث ألقى خطابات كثيرة يحذر فيها العالم قائلاً إن ''الديمقراطيات الغربية'' لا تملك أن تقف مكتوفة الأيدى إزاء ما تتعرض له من إذلال على أيدى مجموعة من الدول ذات النظم الاستبدادية ، وهى من المستعمرات السابقة ، ولا تمثل إلاّ أغلبية [فى الجمعية العامة] . ولكن حدود القضية كان قد سبق للكاتبين وضعها فى مقالتيهما بمجلة '**كومنتارى**' .

ولم يشر أى من الرجلين إلى الإسلام على الإطلاق ، ومع ذلك فإن "الإسلام"، بالصورة التى ظهر بها بعد ذلك بعام واحد، بدأ يلعب الدور الذى رسمته له التغيّرات المفاجئة وغير المقبولة التى وصفها تاكر وموينيهان . وأدت هذه بدورها إلى رسم صورة ما كان الكثيرون من الأمريكيين يمرّون به فى الواقع ، ومعانى الألفاظ التى يعبرّون بها عنه ، وبناء التركيب 'الدرامى' لعناصره . وهكذا بدا أن الولايات المتحدة ، ولأول مرة فى تاريخها ، تتعرض لتطبيق مبدأ المساواة عليها من الخارج ، بتعبير تاكر ، وإذ بنا نواجه بعض البلدان الأجنبية التى وصفها موينيهان بأنها ، فى جوهرها ، كيانات أوجدتها الإمبريالية البريطانية ، وقد استعارت أفكارها وهويتها من الاشتراكية البريطانية ، كما إنها تقيم فلسفاتها على أساس نزع الملكية أو توزيع الثروة إذا لم يتيسر نزع ملكيتها ، ولا يهمها سوى المساواة ، لا الإنتاج ، ولا الحرية فيما يبدو . وقال موينيهان "إننا حقا من حزب الحرية" ثم أضاف بنبرة غطرسة عسكرية "وقد ندهش لمدى الطاقات الهائلة التى نستطيع إطلاقها إذا رفعنا هذه الرايات" (٣٧) . وقال تاكر إن هذه البلدان الجديدة ، ومن بينها الدول المنتجة للنفط ، تريد إزالة أوجه التفاوت "بيننا" و"بينهم" ، وذلك – فى رأى تاكر – من شأنه أن يأتى بما ينذر بالسوء من "تكافل" وحبذا لو أخذنا أهبتنا لمقاومته ، بغزو هذه الدول ، إذا دعت الضرورة(٣٨) .

ويجدر بنا الإشارة بصفة خاصة إلى عدد من 'الاستراتيجيات' المطبقة فى هاتين المقالتين ، إذ يتجاهل تاكر فى حديثه تحديد أى

دولة من الدول المنتجة للنفط ، مثلما يتجاهل موينيهان فى حديثه ذكر بلد بعينه من بلدان العالم الثالث الجديدة ، أى إنه يتجاهل أن لأى منها هوية ، وتاريخًا ، ومسارًا وطنيًا خاصًا بها . فالكاتبان يشيران إليها وحسب ، ويوجزان خصائصها باعتبارها وحدة جماعية ، ثم لا يعودان إلى ذكرها . ولا تزيد المستعمرات السابقة لديهما عن كونها مستعمرات سابقة ، والبلدان المنتجة للنفط تظل دائمًا بلدانًا منتجة للنفط . وفيما عدا هذين الوصفين ، تظهر هذه البلدان فى صورة البلدان المجهولة وذات العناد الغريب بل والذى ينذر بالخطر ، كما إن مجرد **وجودها** يبدو كأنما يمثل خطرًا مضمرًا أو ضمنيًا "لنا" . ونرى ثانيًا أن هذه البلدان لا تزيد عند الكاتبين عن صور مجردة يضعان فى مقابلها صفًا من دول العالم التى سبق لها الرسوخ ، إذ يقول تاكر فى مقال لاحق عن النفط والقوة "إننا نواجه فجأة احتمال قيام مجتمع دولى يستحيل فيه ضمان التوزيع المُنظَّم لما اصطلح على تسميته 'بالناتج العالمى' ، وذلك لأن الأطراف الرئيسية التى تتمتع بالقوة بين الدول المتقدمة والرأسمالية قد لا تصبح الأطراف الرئيسية التى تبتكر أصول النظام وترسى قواعده"(٣٩) وما دامت هذه البلدان الجديدة لا تأتى بالنظام ولا ترسى قواعده ، فلابد أن تكون عوامل زعزعة له . ونرى ثالثًا أنها عوامل زعزعة لأنها ، كمجموعة ، لا تمثل – ولا تستطيع أن تكون – سوى قوة معادلة عكسية ومضادة فى الاتجاه "لنا" .

وكان ما يقوله تاكر وموينيهان يتبع إلى حد ما منطق الترنيمة 'المقدسة' للحالة النفسية فى الغرب ، من حيث الشعور بالحصار ،

وهى الترنيمة التى تعاود الظهور من وقت إلى آخر فى التاريخ الحديث للغرب . فنحن نراها مثلاً فى كتاب هنرى ماسيس بعنوان **الدفاع عن الغرب** (١٩٢٧) وفى المقال الذى كتبه أنتونى هارتلى منذ عهد قريب بعنوان "الرابطة الهمجية : عن 'العنصر المدمر' فى تاريخ الحضارة" (٤٠) ولكن الذى يقف ضدّ الغرب عند تاكر وموينيهان ليس شيئًا معروفًا "لنا" ، على نحو ما يستطيع الإمبريالى الأوروبى أن يتحدث عن "الشرقيين" باعتبارهم "أناسًا نعرفهم" وذلك "لأننا" كنا نحكمهم فى الواقع فى يوم من الأيام فعلاً . وأما أفضل ما يصف به موينيهان هذه الدول الجديدة فى العالم الثالث فهو أنها صور مقلّدة ، لا نعرفها إلا من خلال النموذج الذى تُقلّده ، لا بخصائص ذاتية تحدد هويتها المستقلة . ولا يبدو أن تاكر يشير إلى شىء محدد حين يتحدث عن 'المجتمع الدولى' الجديد إلا القول بأنه ينتهك النظام القديم. ولكن ترى من يكون هؤلاء الناس ، وما هى رغباتهم الفعلية ، وما أصولهم الجغرافية ، ولماذا يفعلون ما يفعلون ؟ هذه أسئلة لم تطرح ومن ثم فلا إجابة لها .

وفى الوقت نفسه على وجه التقريب كانت الولايات المتحدة آخذة فى التقهقر والخروج من الهند الصينية . وعلى كثرة ما كتب فى الآونة الأخيرة عما يسمى "بالظواهر المَرَضِيّة لفترة ما بعد ڤيتنام" فى السياسة الأمريكية ، فما أقل عدد الذين لاحظوا أن تطبيق المزاعم القائلة بأن المصالح الأمريكية فى البقاع النائية القصيّة تحتاج إلى الدفاع العسكرى عنها قد انتقل برمّته من ڤيتنام إلى

مكـان أقـــرب ، وهـــو العــــالم الإســلامى . وصــاحــــب ذلك تضعضع ثقة الليبراليين تدريجيا بقـضايا العالم الثالث بصفة عامة، وخصــوصًا تلك القضــايا التى لم تحقق ، فيــما يبدو ، ما انعــقد عليهــا من رجاء . ويخطر على البال فى هذا الإطار مثـلاً الكتاب الذى كتبه جـيرارد شالياند بعنوان **ثورة فى العالم الثالث** ، والذى كان بمثابة صرخة ألم من قلب رجل شهير ، ساند حركات التحرير الڤيتنامية ، والكوبية ، والأنجولية ، والجزائرية والفلسطينية . وقد اختتم هذا الكتاب الذى وضعه عام ١٩٧٧ بنتيجة مفادها أن معظم الجهود المناهضة للاسـتعمار قد أدت إلى نشوء دول غير مـتميزة ، تتوسل بالقــمع ، ولا تكاد تستحق حماس أبـناء الغرب لها[٤١] .

وقد يخطر على البال أيضًـا ما نشرته مجلة '**ديسّنت**' (الانشقاق) فى عددها الصــادر فى شتــاء عام ١٩٧٨ ، ويتضــمن الندوة التى دعت المجلة إلى عـقدها ودارت حـول السؤال التـالى "هل تبرر الأحداث الأخيرة فى كـمبوديا [أى انتصار قوات الخمـيرين الحمر ومـا ورد من أنباء الفظائـع التى تلته] إعـادة النظر فى مـعارضـتنا للحرب فى ڤيتنام ؟" وقد يدل السؤال نفسه ، وإن لم تدل الإجابة أيضًا، على حالة التراجع عن الحماس الذى امتازت به الستينيات، وما حل محله من ضيق يثيـر القلق إزاء الحقائق الدولية الجديدة ، وهى التى تنذر فى مجموعهــا بكارثة وشيكة الوقوع . وقد استند المعلقون ، مُحقّين ، فى إقامـة هذه الحجة إلى الفشل العام للنظام الاقتصادى الدولى .

وباختصار ، كان الإحساس الذى راود من يسمعون الأنباء ويستعملون النفط إحساسًا غير مسبوق بإمكان ضياع شىء ما وزعزعة شىء قائم ، دون أن يكون له وجه معروف أو هوية ظاهرة . فكل ما عرفناه هو أننا نوشك أن نفقد شيئًا لم نتساءل يومًا عن إمكان ضياعه. وإذن فلن نستطيع بعد الآن قيادة سياراتنا كما كنا نفعل؛ وأسعار النفط ارتفعت كثيرًا ؛ ومن ثم فإن أسباب راحتنا وعاداتنا تتعرض ، فيما يبدو ، لتغيّر جذرى وثقيل الوطأة. بل إن النفط نفسه ، وهو موضوع القضية فى الواقع ، ظلت صورته غامضة بالمقارنة بخطر فقدانه ، فلم يكن أحد يعرف ، فيما يبدو، إذا ما كانت إمدادات النفط قد تناقصت فعلاً ، أو إذا ما كانت الصفوف الطويلة من السيارات فى محطات الوقود قد أتى بها الفزع ، أو إذا ما كانت هوامش الربح التى ترتفع ارتفاعًا باهظًا فى أيدى أصحاب شركات النفط لها صلة ما بالأزمة(٤٢) . بل بدا أن الأزمة كانت تتصل اتصالاً أوثق بأشياء أخرى . فلقد بدأت صور العرب بأرديتهم التقليدية ، وأموالهم الخيالية ، وأسلحتهم الشاكية ، تقتحم العيون فى كل مكان فى الغرب . وعندها تيسّر إرجاع التأكيد الجديد على الذات الإسلامية إلى ما أطلق عليه البعض حرب رمضان فى أكتوبر ١٩٧٣ ، ففى تلك الحرب تمكن الجيش المصرى من قهر وعبور خط بارليف المنيع الرهيب ، ولم يفرّ الجنود العرب على نحو ما حدث فى عام ١٩٦٧ ، بل أجادوا القتال بصورة أدهشت الجميع . ثم ظهرت منظمة التحرير الفلسطينية فى الأمم المتحدة فى عام ١٩٧٤ ،

وأصبح الشـيخ يمانى شخصًـا ذا مهابـة وسلطان ، دون أن يُعرف لذلك سـبب سـوى أنه مـسلم وأنه ينـتمـى إلى المملكة العـربيـة السعودية ذات النفط الوفير . وأصبح شـاه إيران أيضًا زعيمًا عالميًا ، ولننظر إلى إندونيـسيا والـفلبين ونيجيـريا وباكسـتان وتركـيا ، وبلدان مخـتلفة فى الخليج العربى ، والجزائر والمغـرب ، ولنتأمل كيف كانت قدرتهـا المفاجئة على 'تعكير صفو' الولايات المتحدة فى منتصف السـبعينيـات تتلازم بصورة تدعـو إلى القلق مع ندرة المعلومات المتـاحة عن ماضيـها وهويتهـا . فإذا بأعداد كبـيرة من الدول الإسلامية ، وشخصيـاتها البارزة ، وحضورها على المسرح الدولى ، تنتقل فى وعى الجمـاهير ، ودون أن يدرك ذلك أحد ، من مكانة من لا يكاد يدرك الناس وجـوده إلى مكانة من يتـصدر نشرات الأخبار .

ولكن الانتـقال لم يحـدث فى الواقع من مكانة إلى مكانة ، ولم تكن أى شريحة يُعتدُّ بها من السكان على اسـتعداد لتفسير أو تحديد ما بدا فى صورة الظاهرة الجديـدة ، باستثناء البعض - مثل موينيهـان وتاكر - الذين استنبطوا نتائج تاريخية عـالمية منها ، فى إطار يقتـصر على ذكر الإسلام دون أن يأخـذه حقا فى اعتـباره . وكان من نتائج صورة الإسـلام اليوم أن أصبحت ، فى كل مكان يصادفها المـرء فيه ، صورة **طليقة** و **مباشرة**. فالافتراض الذى لا يذكـر أحـد هـو أولاً أن اسم العَلَم "الإسـلام" يدل على شىء بسـيط يمكن للمـرء أن يشـيـر إليه مـبـاشـرة مثلـما يشـيـر إلى "الديموقراطية" ، أو إلى شخص من الأشخـاص أو إلى مؤسسة

مثل الكنيسة الكاثوليكيـة . ونحن نرى هذا الطابع المباشر مثلاً فى قصة غـلاف مجلة **تايم** التى أشرنا إليـها آنفًا ، وإن كـان يتجلى بصورة تدعـو إلى قلق أشد فى كل مـا يظهر بصورة منـتظمة عند الإشارة إلى الإسـلام فى المستويات العـليا من المناقشـات الثقافـية العـامـة ، وذلك فى معـظم الأحوال باعـتـبـاره موضـوعـًا من الموضوعـات التى تحظى بالتأمل الرزين الجـاد فى المجلات المهـمة للعلوم الإنسانية ، والتى أصبحت لا تختلف كثيرًا فى هذا الصدد عن أجـهزة الإعـلام الجمـاهيرية بسـبب التغـيرات التى سـبق لى وصفها فى التفكير الثقافى والسياسى الجغرافى .

ومن المقالات الجديرة بالذكـر المقال الذى كتبـه مايكل وولتزر فى مجلة **نيو ريببلك** ، العدد الصادر بتـاريخ ٨ ديسمبر ١٩٧٩ ، بعنوان "الانفـجار الإسـلامى" ، ويناقش فـيه باعـتبـاره 'غيـر متـخصص' ، على حـد قوله ، عـددًا هائلاً من أحداث القـرن العشرين المهمة رغم أنها (كما يقول) تتسم بالعنف ويؤسف لها فى معظمـها - فى الفلبين وفى إيران وفى فلسطين وغيـرها - ويقول إننا نستطيع تفـسيرها باعتبـارها نماذج لشىء واحد وهو الإسلام . ويقول وولتزر إن جميع هذه الأحداث تشترك فى أنها أولاً تكشف عن نسق دائم للقوة السـياسية التى تتعـدّى على الغرب، وفى أنها جميـعًا ، ثانيًا ، من إفراز حميّـة معنوية مخيفـة (إذ يؤكد وولتزر بنبرات قاطعـة أن مقاومة الفلسطينيين للاستعـمار الإسرائيلى ذات طابع **دينى** ، أى إنها غير سياسيـة أو مدنية أو إنسانية) ؛ وتشترك

هذه الأحداث ثالثًا فى أنها ''تحطم الواجهة الاستعمارية الهشة من الليبرالية أو العلمانية أو الاشتراكية أو الديموقراطية'' . ويضيف أن هذه الخصائص المشتركة الثلاثة تكشف عن شىء واحد هو ''الإسلام'' ، فذلك ''الإسلام'' قوة تتجاوز المسافات الزمنية والمكانية وهى التى كان يمكن أن تفصل بين هذه الأحداث جميعًا. ولنا أن نلحظ أيضًا أنك - حسبما يقول ولتزر - إذا أشرت إلى الإسلام فإنك تلغى ، تلقائيًا ، كُلاً من المكان والزمن ، وتستبعد التعقيدات السياسية مثل الديموقراطية والاشتراكية والعلمانية ، وتستبعد الضوابط الأخلاقية . وبنهاية المقال نجد أن ولتزر قد أقنع نفسه (على الأقل) أنه عندما **يذكر** كلمة ''الإسلام'' فإنه يشير إلى شىء حقيقى مادى يسمى الإسلام، أى إلى شىء له وجود حاضر إلى الحد الذى يجعل من اتخاذ أى وسيط أو وضع أى صفات مميزة بمثابة اهتمام بتوافه لا داعى لها . ويرتبط بافتراض هذا الطابع المباشر نزوع يمثل القرين المحتوم ، ألا وهو النزوع إلى الحديث عن الإسلام باعتباره شيئًا بلا تاريخ خاص به ، وأما إذا سلم أحد بأن له تاريخًا ، فسوف يبدو أن هذا التاريخ لا علاقة له بالموضوع . وهكذا تكتسب حجج المحافظين ، مثل موينيهان وتاكر ، ما يؤكدها ويغذيها على أيدى الليبراليين اليساريين .

ومن الجوانب الأخرى للصورة الجماهيرية للإسلام فى الإطار الفكرى والجغرافى السياسى الجديد هو أنه دائمًا ما يظهر فى علاقة مواجهة مع كل ما يعتبر طبيعيًا، غربيًا، مألوفًا فى الحياة اليومية،

وينتمى "إلينا" . وهذا ولا شك هو الانطباع الذى نخرج به من قراءة ما يكتبه كُتّاب مثل وولتزر ، أو من قراءة ما كتبه الباحثون الذى يعتمد عليهم وولتزر . بل إن مفهوم وجود عالم إسلامى - وهو الموضوع الذى تناولته فلورا لويس فى أربع مقالات متتابعة فى صحيفة **نيويورك تايمز** فى ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، و ٣١ ديسمبر ١٩٧٩ (والذى سوف أتحدث عنها فى الفصل الثانى) - هذا المفهوم نفسه يقوم ضمنًا على عدائه لعالمنا "نحن" . بل إن الدافع على كتابة المقالات نفسه كان وقوف الإسلام (أى أولئك الإيرانيين الذين يحتجزون الرهائن الأمريكيين) ضدنا "نحن" وتعمق هذا الإحساس عندما قامت فلورا لويس بتعديد انحرافات الإسلام الظاهرية عن المعايير "الطبيعية" مثل الخصائص التى تتميز بها اللغة العربية ، و"غرائب" معتقداته ، والشمولية المتزمتة التى يسيطر بها الإسلام على المؤمنين به ، وهلم جرًا . فإذا كان الحضور المباشر للإسلام يجعله يبدو قريب التناول بصورة مباشرة، فإن انحرافه عن الواقع المألوف والمعايير المعهودة يجعله يقف ضدنا مباشرة ، وبصورة جذرية ، ويمثل تهديدًا لنا . والنتيجة المجردة هو أن الإسلام قد اكتسب مكانة متعددة الأشكال لواقع ملموس يسهل التعرف عليه ويتيح لمن يريد أن يصدر الكثير من الأقوال بشأنه ويضع له استراتيجيات منطقية كثيرة (معظمها يضفى عليه صفات بشرية) وذلك دون قيود أو ضوابط .

وهكذا تستطيع بيسر فى رأى هؤلاء أن تعادل بين الإسلام

وبين أى مسلم، وأقرب مرشح لهذه المعادلة هو آية الله الخومينى. وبعد ذلك لك أن تمضى فى مقارنة الإسلام بكل شىء تنفر منه ، بغض النظر عما إذا كان قولك يتسم بالدقة الواقعية أم لا . والمثال على ذلك قيام دار نشر **مانور بوكس** بطبع نسخة شعبية من كتاب **الحكومة الإسلامية** الذى كتبه الخومينى ، ووضعت له عنوانًا خاصًا هو **"كفاحى بقلم آية الله الخومينى"** ، والمعروف أن **كفاحى** هو عنوان الكتاب الذى وضعه أدولف هتلر عن حياته ، كما أرفق الناشر بالكتاب مقدمة كتبها رجل يدعى چورچ كارپوتزى ، وهو من كبار الصحفيين فى **نيويورك پوست** ، وهو يزعم لأسباب لا يعرفها أحد سواه أن الخومينى عربىّ وأن الإسلام نزل فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كما يبدأ تحليله بعبارات يحلو وقعها فى السمع على النحو التالى :

> إن آية الله روح الله الخومينى ، مثل أدولف هتلر وإن اختلف الزمن ، طاغية يضمر الكراهية ويبث الغواية ويمثل تهديدًا للنظام والسلم فى العالم والفرق الرئيسى بين صاحب **كفاحى** ومؤلف هذا الكتاب الغث ، أى الحكومة الإسلامية ، هو أن الأول كان ملحدًا والثانى يتظاهر بأنه مؤمن بالله[٤٣] .

وأمثال هذه الصور المرسومة للإسلام ما فتئت تشهد على الولع بتقسيم العالم إلى قسمين أحدهما يناصر أمريكا والثانى يناصبها العداء (أو بيْن من يعادون الشيوعية وبين من يناصرونها)

وعلى العزوف عن الإشارة إلى التحولات السياسية ، وعلى فرض أنساق وقيم إمـا أنها تكشف عن تعصب عرقـى وإما أنها لا صلة لهـا بالموضـوع ، أو أنها تجـمع بين هذا وذاك ، وعلى الـتشـويه الخالص للمعلومات ، والتكرار ، وتحاشى الدخول فى التفاصيل، والافتقار إلى المنظور الأصـيل . ويمكن إرجاع هذا كله لا للإسلام بل إلى جوانب معينة فى المجتمع الغربى وإلى أجهزة الإعلام التى تتجلى فيها هذه الفكرة عن ''الإسلام'' مثلما تعمل هذه الأجهزة على نشـرها . والنتيـجة هى أننا أعـدنا تقسـيم العالم إلـى شرق وغرب ، وهى الأطروحة الاسـتشراقية القديمة دون تغـيير يذكر ، وهو ما يزيد من إحكام الغشاوة التى تمنعنا لا من رؤية العالم فقط بل من رؤية أنفسنا أيضًـا وإدراك ما آلت إليه حقًّا علاقـتنا مع ما نسميه العالم الثالث .

وقد أدى ذلك إلى بعض العـواقب التى تكتسب قـدرًا ما من الأهمية ، أولهـا أن الإسلام قد نشأت له صـورة معينة ، لا تزيد عن كونها صورة . وثانيها هو أن معناها أو رسالتها قد استمرت، بصفـة عامة ، أبـعادها المحدودة والنمطيـة ، وثالثهـا نشأة وضع سيـاسى يقوم على المـواجهة ، إذ يضـعنا ''نحن'' فى مواجـهة ''الإسلام'' . ورابعها هو أن هذه الصورة المختزلة للإسلام كان لها آثارها التى نستطيع التحقق منها فى عالم المسلمين نفسه . وخامسها هو أن صورة الإسـلام فى أجهـزة الإعلام والموقف الثـقافى إزاءه يستطيعان أن يكشفا لنا عن الكثير ، لا عن ''الإسلام'' فحسب ،

بل أيضًا عن المؤسسات القائمة فى إطارنا الثقافى ، والمناهج السياسية المتّبعة فى الإعلام والمعرفة والسياسات القومية .

ولكن رصدى لهذه الأشياء كلها عن الصورة العامة للإسلام التى تشيع اليوم ، لا يقصد به الإيحاء بوجود إسلام " حقيقى" فى مكان ما فى دنيا الواقع قامت أجهزة الإعلام بتشويهه مدفوعة بدوافع دنيئة . لا أقصد هذا على الإطلاق . فالإسلام يمثل للمسلمين ، مثلما يمثل لغير المسلمين ، حقيقة موضوعية وذاتية فى الوقت نفسه ، فالناس ينشئون هذه الحقيقة فى عقيدتهم ، وفى مجتمعاتهم ، وتاريخهم ، وتقاليدهم ، وأما غير المسلمين من الأجانب فهم مضطرون إلى أن يثبتوا ، بمعنى من المعانى ، هوية ما يشعرون أنه يواجههم بصورة جماعية أو فردية ، وأن يجسدوه وأن يطبعوا هذه الهوية بطابع ما - ومعنى هذا أن صور الإسلام عند أجهزة الإعلام ، وعند الباحث الغربى ، وعند الصحفى الغربى ، وعند المسلم ، ثمرة فعل إرادى وتفسير معين ، وهما من الأفعال التى لا تحدث إلا فى سياق تاريخى ، ولا يمكن لنا إلا أن ننظر إليها فى هذا الإطار التاريخى باعتبارها من أفعال الإرادة والتفسير . ولست شخصيًا متدينًا ، كما إننى لا أنتمى إلى خلفية إسلامية ، ولكننى أعتقد أننى أستطيع أن أفهم من يعلن أنه مقتنع بعقيدة معينة . ولكننى ، فى حدود رؤيتى لإمكان مناقشة العقيدة على الإطلاق ، أرى أن ذلك يقع فى حدود **تفسيرات** العقيدة التى تتجلى فى الأفعال البشرية التى لا تقع بدورها إلا فى سياق

التاريخ البشرى والمجتمع البشرى . فإذا تصدينا مثلاً لمناقشة الثورة " الإسلامية" التى أسقطت نظام حكم الشاه فى إيران ، علينا أن نمسك عن القطع فيما إذا كان الثوار يمثلون العقيدة الإسلامية **الحقيقية** ؛ لكننا نستطيع أن نعرض لمفهومهم عن الإسلام ، وهو الذى جعلهم يواجهون مواجهة مربكة (أو مواجهة "إسلامية" إن صح التعبير) نظامًا رأوا أنه معادٍ للإسلام ، وظالم ، ومستبد . وعندها نستطيع أن نقارن تفسيرهم للإسلام بما قالته مجلة **تايم** أو صحيفة **لوموند** عن الإسلام وعن الثورة الإيرانية .

وبتعبير آخر فإن ما نعرض له هنا يعتبر ، بأوسع معنى من المعانى ، مجتمعات يعتمد كل منها تفسيرًا معينًا ، يتناقض الكثير منها مع بعضه البعض ، وتبدى الاستعداد فى حالات كثيرة لمحاربة بعضها البعض ، وكل منها ينشئ نفسه ويفصح عن ذاته وعن تفسيره باعتباره من الركائز الأساسية لوجوده . لا يقيم أحد فى حياته صلة مباشرة مع الحقيقة أو الواقع ، فكل منا يعيش فى عالم صنعه البشر فى الواقع الفعلى ، ونحن نرى فيه أن ما يسمى "الأمة" ، أو " المسيحية" أو "الإسلام" من ثمار الأعراف المتفق عليها ، والتحولات التاريخية ، وقبل ذلك كله من ثمار الجهد البشرى المبذول لوضع هوية نستطيع التعرف عليها لكل من هذه الأسماء . وليس معنى هذا أن الحقيقة والواقع لا يوجدان فعلاً ، بل هما موجودان ، ونحن نعرف ذلك حين نشاهد الأشجار والمنازل من حولنا ، أو عندما تنكسر إحدى العظام فى الجسم أو

حين نشعر بالحزن العميق لوفاة شـخص نحبه . ولكننا بصفة عامة ننزع إلى أن نتناسى أو نهـوّن من مـدى اعتـمـاد إدراكنا للواقع لا على التفسيرات والمعانى التى يشكّلهـا كل فرد لنفسه فحسب ، بل أيضًا على التفسيرات والمعانى التى **نتلقاها** من خارج ذواتنا . فهذه التفسيرات المتلقاة تعتبر جـزءًا لا يتجزأ من الحياة فى مجتمع ما . وقد عبر س. رايت ميلز عن ذلك بوضوح قائلاً :

أولى القواعد اللازمة لتـفهم حال الإنسان هو أن الناس يعيشون فى عوالم سبق لغيرهم ' استعمالها' ، ولذلك فهم يدركون مدركـات أكثر كثيرًا مما خبروه شـخصيًا . وخبراتهم الخاصة دائمًا ما تكون غـير مباشرة . ونوعية حياتهم تحددها المعـانى التى تلقوها من الآخرين . وكل شـخص يعيش فى عـالم من هذه المعـانى . ولا يقف إنسان وحده فى مـواجهة مبـاشرة مع عالم من الحقـيقة الصلبـة ، إذ لا وجـود لمثل ذلك العـالم . وأما أشـدُّ اقترابٍ للإنسان منه فيكون فى مرحلة الطفولة المبكرة أو عندما يصيبه الجنون ، فـعندها ، فى مشهد مرعب من الأحداث التى لا معنى لها والاختلاط المبهم ، كثيرًا ما يستولى عليه الذعر إزاء افتـقاره شبه التام للأمان . وأما فى حياته اليومية فهو لا يَخْبَرُ عالمًا من الحقائق الصلبة، بل إن خبـراته نفسها تخـتارها له معان نمطيـة وتشكلها تفسيرات جـاهزة . والصور التى تتكون لديه عن العالم

وعن ذاته يقدمها إليه حشود من الشهود الذين لم يسبق له أن قابلهم ولن يكتب له أن يقابلهم . ومع ذلك فإن هذه الصور التى يقدمها الأغراب والموتى تشكل أساس كل فرد باعتباره إنسانًا .

إن وعى الإنسان لا يحدد وجوده المادى ، كما إن وجوده المادى لا يحدد وعيه ، إذ تقف بين الوعى والوجود معان وأشكال ورسائل خلّفها أناس آخرون ، تتجلى أول الأمر فى لغة البشر نفسها ، ثم تتضح فى وقت لاحق فى الرموز المستعملة . وهذه التفسيرات المتلقاة والمتلاعب بها تؤثّر تأثيرًا حاسمًا فى وعى الفرد بوجوده . فهى تقدم له مفاتيح فهم ما يرى ، وكيف يستجيب له ، ومشاعره إزاءه ، وكيف يستجيب لهذه المشاعر . فالرموز تقوم بتركيز الخبرات ، والمعانى تتولى تنظيم المعارف ، فتوجه مسيرة المدركات السطحية فى لحظة من اللحظات بنفس القوة التى توجه بها مسيرة طموحات عمر بأكمله .

لا شك أن كل إنسان **يلاحظ** الطبيعة ، والأحداث الاجتماعية ، وذاته نفسها ، ولكنه لا يلاحظ ، ولم يسبق له أن لاحظ مطلقًا ، معظم ما يفترض أنه حقيقى، بشأن الطبيعة أو المجتمع أو الذات . وكل إنسان يفسر ما يلاحظه ، إلى جانب الكثير مما لم

يلاحظه ، ولكن المفاهيم التى يطبقها فى التفسير لا تنتمى إليه، فلم يقم بصياغتها بنفسه بل ولا باختبارها. وكل إنسان يتحدث عن الملاحظات والتفسيرات للآخرين، ولكن اللغة التى يستخدمها فى هذا الحديث ليست ، على الأرجح ، إلا العبارات والصور التى وضعها الآخرون فأخذها عنهم واعتبرها عباراته وصوره. وكل إنسان يعتمد اعتمادًا متزايدًا فى معظم ما يسميه الحقائق الصلبة ، والتفسيرات السليمة أو الصحيحة ، وأشكال ' التمثيل' المناسبة ، و'محطات الملاحظة' ، ومراكز التفسير ، و'مستودعات التمثيل' التى ينشئها فى المجتمع المعاصر على ما سوف أطلق عليه تعبير الجهاز الثقافى(٤٤) .

أما فرع الجهاز الثقافى الذى يقوم بنقل الإسلام إلى معظم الأمريكيين (ومعظم الأوروبيين بصفة عامة) فهو يعتمد بصفة رئيسية على شبكات التليفزيون والراديو ، والصحف اليومية ، والمجلات الإخبارية الواسعة الانتشار ، وتلعب الأفلام السينمائية دورًا هنا ، بطبيعة الحال ، وذلك فى حدود ما يتأثر إدراكنا المرئى للتاريخ وللبقاع النائية بما تقدمه السينما فى هذا المجال . ويمكننا أن نقول إن هذا التركيز القوى لأجهزة الإعلام الجماعية يشكل فى مجموعه جوهرًا مشتركًا للتفسيرات التى تقدم صورة معينة للإسلام وتكشف أيضًا ، بطبيعة الحال ، عن المصالح القوية فى المجتمع

التى تخدمها هذه الأجهزة الإعلامية . وهذه الصورة ، التى لا تقتصر على كونها صورة بل تمثل مجموعة المشاعر التى توحى بها الصورة ، يصاحبها ما نستطيع أن نطلق عليه تعبير السياق الشامل لها . وأنا أعنى بالسياق موقع الصورة ، ومكانها فى دنيا الواقع ، والقيم المضمرة فيها ، وليس بأقل من ذلك أهمية 'نوع' الموقف الذى تدفع المشاهد إلى اتخاذه حيالها . وهكذا فإذا دأب التليفزيون على تقديم الأزمة الإيرانية فى صورة الجماهير 'الغوغائية' التى يعلو هتافها ، بمصاحبة تعليق يتحدث عن العداء لأمريكا ، فإن بُعْدَ المسافة ، وعدم الألفة بما يحدث ، وما يكمن فى المشهد من تهديد ، يجعل " الإسلام" قاصرًا على هذه الخصائص ، وهذا يؤدى بدوره إلى الإحساس بأن شيئًا منفّرًا وسلبيًا فى جوهره يواجهنا . وما دام الإسلامُ فيما يبدو "ضدَّنا" وبعيدًا عنا فى "ذلك المكان" ، فلن يبقى مجال للشك فى ضرورة اتخاذ موقف مواجهة للردّ عليه . وإذا شاهدنا وسمعنا معلقًا مثل والتر كرونكايت وهو يضع عبارة "هذا هو الواقع" إطارًا لبرنامجه المسائى كل يوم ، فسوف نستنتج نحن أيضًا لا أن المشهد الذى نراه هو ما اختارت إحدى شركات التليفزيون أن تعرضه علينا بهذه الصورة ، بل أن هذا هو الواقع حقًا، وأنه أمر طبيعى، لا يتغير ، و"أجنبى" ومعارض "لنا". ولا غرو إذن أن يقول چان دانييل فى صحيفة لونوڤيل أوبزرڤاتير فى عددها الصادر يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٧٩ إن الولايات المتحدة تشعر أن الإسلام يحاصرها .

وعلى الرغم من شـدة اعتـمادنا على التليـفزيون والصـحف والراديو والمجلات ، فليست هذه هى مصدرنا الأوحد لما 'نعرفه' عن الإسلام ، بل لدينا الكتب والمجلات المتخـصصة والمحاضرين الذين يدلون بآراء أشد تعقـيدًا من المعلومات المشتّـتة فى جوهرها والأنباء المباشرة التى تنقلها وسـائل الإعلام الجماهيرية(٤٥) . ومن المهم أن نذكر أيضًا أن الصحف والراديو والتليـفزيون أجهزة تزخر بالتنوع فيـما نلحظه من اتجاهات المحررين، أو بين وجـهات النظر المختلفـة ، أو بين الصور البديلة أو المضـادة للأعراف الثقافـية أو الصور التقليدية . أى إننا ، بإيجاز ، لا نعـيش تحت رحمة جهاز دعائى مـركزى ، على الرغم من صـدور كم كبيـر مما يعتـبر فى حقيقـته دعاية من أجهزة الإعلام وحتى مـن أقلام الباحثين الذين يتمتعـون بسمعة طيبة . لكنه برغم التنوع والاختـلافات ، ومهما زعمنا العكس ، فـإن ما يصدر عن هذه الأجهزة ليـس تلقائيًا ولا هو يتـمتع " بحرية" كاملة ، ولا يتـصادف أن تأتى " الأخبار" بالصورة التى تأتى بها ، ولا يتصادف أن تنبع الصور والأفكار من دنيا الواقع لتصبّ فى أعيننا وأذهاننا ، ولا يتيسّر لنا أن نجد الحقيقة حـيثـما نطلبـهـا ، وليس بين أيدينا ذلك التنوع المتـوهم الذى لا يخضع لـضابط أو رابط . فإن التـليفزيون والراديـو والصحف ، شأنها فى ذلك شأن جميع طرائق التواصل ، تراعى قواعد وأعرافًا معينة فى توصيل الأفكار فى صور مفهومة ، وكثيرًا ما تلعب هذه القـواعد والأعـراف دورًا أكبـر من دور الواقع الذى تنقله أجهـزة

الإعلام فى تشكيل مـادتها. ولما كانت هذه القـواعد المتفق عليـها ضمنًا تسـاعد بكفـاءة على اختزال الواقع ، إذا اتسـم بالتعقـيد ، حتى يصبح "أخبارًا" أو "موضوعات صحفية" ولما كانت أجهزة الإعلام تجتهـد حتى تصل إلى نفس الجمهور الذى تعـتقد أن لديه مجـموعـة من الأفكار والافتـراضات الموحّدة عن الـواقع ، فمن المحتمل أن تصبح صورة الإسلام (وصورة أى شىء آخر ، فى هذا الصدد) موحّدة إلى حد بعيـد ، وتتسم باختزال بعض الجوانب ، وتكتسى لونًا واحـدًا . ومن البديهى أنه لما كانت أجـهزة الإعلام شركات تسـعى لتحقيق الربـح ، فـإنها تهتـم بترويج صـور معينة للواقع وتقديمها على غيرهـا ، وهذا مفهوم . وهى تفعل هذا فى سياق **سياسىّ** يكتسب حيويته وتأثيره من أيديولوجيات قائمة على مستوى اللاوعى ، وهى التى تنشـرها أجهزة الإعلام دون تحفظات أو معارضة جادة.

ولابد لنا الآن من وضع بعض الحدود اللازمة لموضوعنا ، إذ لا يمكن الزعم بأن الدول الصناعية الغربية تنتهج سياسات قمعية أو تحكمها الدعاية . فذلك بطبـيعة الحال زعم باطل . ففى الولايات المتحدة مـثلاً ، نجد الفرصـة متاحة للتـعبير عن أى رأى ، مـهما يكن، تقريبًا ، كما يتمتع المواطنون وتتمتع أجهزة الإعلام بطاقة لا تبـارى على تقبل وجـهات النظر الجـديدة وغيـر التقليـدية وغـير 'الجمـاهيرية' . كـما إن التنوع الهـائل فى الصحف والمجـلات وبرامج التليفـزيون والراديو المتاحة ، ناهيك بالكتب والكتـيبات،

تنوعٌ يكاد يستعصى على الوصف أو تحديد طابعه ، فكيف نستطيع إذن أن نقـول ، بأى درجة من درجـات الإنصـاف والدقة ، إنهـا جميعًا تُعبِّر عن وجهة نظر **واحدة** عامة ؟

لا نستطيع بالقـطع ذلك بل ولن أقدم على مجـرد المحاولة . ولكننى أعتـقد أننا نسـتطيع أن نَلْمَحَ ، على الرغم من هذا التنوع الفذّ ، ميلا كيفيًّا وكميًّا إلى تحبيذ آراء معينة وتفضيل صور معينة للواقع على غيـرها . فلأُقَدِّمْ أولاً تلخيـصًا سريعًا لبـعض المسائل التى أثرتها قـبل أن أبين كيف تتفق مع جـوانب معينة فى أجـهزة الإعلام : إننا لا نحـيا فى عـالم طبيعى ، فـالصحف والأخـبار والآراء ليست مـوجودة فى الطبـيعـة ؛ بل إنها **مصنـوعة أى إنها** نتـجت عن الإرادة البـشـرية ، والـتـاريخ البـشـرى ، والظروف الاجتماعـية ، والمؤسسات وتقاليـد المهنة التى يزاولها المرء . وأما الحديث عـما ترمى إليه الـصحافـة من موضوعـية واقتـصار على الحـقائق والتـغطيـة الواقعـية وتوخى الـدقة ، فـهو حـديث عن مصطلحات نسـبية إلى حد بعيد ، وربما كـانت تعبر عن النوايا لا الأهداف القابلة للتحقيق . وعلينا ، قطـعًا ، ألا نتصور أنها أمور عادية ، لمجرد أننا اعتدنا اعتبار صحفنا صحفًا تنشر الحقائق ويمكن الوثوق بها ، واعتبار صحف البلدان الشيوعية وغير الغربية صحفًا دعائية وأيديولوجية . أما الواقع فهو ، على نحو ما يثبته هيربرت جانز فى كـتابه المهم **البت فـيمـا يعـتبـر خبـرًا** ، أن الصحـفيين ووكالات الأنبـاء وشبكات الأنباء هى التى تقـرر واعية مـا ينبغى

تصويره ، والصورة التى يجب أن يتخذها وما إلى ذلك بسبيل[٤٦] . ولنا أن نقول إذن ، بتعبير آخر ، إن الأخبار ليست "معطيات" ذات قصور ذاتى بل هى ثمرة نشاط معقد عادة ما يتضمن الاختيار المتعمد والتعبير المقصود .

لقد توافرت لنا الأدلة السابغة فى الآونة الأخيرة على طرائق عمل الأجهزة الكبرى فى مجالى جمع الأنباء ونشرها فى الغرب، إذ صدرت الكتب التى كتبها جاى تاليز وهاريسون سولزبرى عن **النيويورك تايمز** ، وكتاب داڤيد هالبرستام بعنوان **القوى التى تتشكل** ، وكتاب توكنام بعنوان **صناعة الأخبار** ، وشتى الدراسات التى أجراها هيربرت شيلر عن صناعة وسائل الاتصال، ومايكل شودسون بعنوان **اكتشاف الأخبار** ، وأخيرًا كتاب أرماند ماتلارت بعنوان **الشركات المتعددة الجنسية والتحكم فى الثقافة**[٤٧] وليست هذه سوى مجموعة محدودة من الدراسات التى أجريت من وجهات نظر مختلفة ، والتى تؤكد مدى الالتزام فى تشكيل الأنباء والرأى ، فى المجتمع بصفة عامة ، بقواعد معينة ، ومدى اتخاذه أطرًا وتوسله بأعراف تمنح هذا العمل هوية شاملة واضحة كل الوضوح . فالصحفى ، شأنه فى ذلك شأن كل إنسان ، يفترض افتراضات معينة يراها عادية أو ' طبيعية' ؛ ولديه قيم تمثلها فى أعماقه حتى لم تعد تحتاج إلى اختبار صحتها فى كل حالة ، مثلما يعتبر المرء عادات مجتمعه من ' المسلّمات' ؛ والمرء لا ينسى تعليمه وجنسيته ودينه أثناء وصفه للمجتمعات والثقافات الأجنبية؛

والوعى بأخلاقـيات المهنة وطرائق أدائها يلعب دوره فى تحـديد ما يقوله المرء وأسلوب التعبير عنه والجمهور الذى يشعر أنه يوجه إليه هذا الكلام . ولقـد وصف روبرت دارنتـون هذه المسائل بطريقـة بالغة الجاذبية فى مقال له بعنوان "كتابة الخبر وقص القصص" ، حتى جعلنا على وعى عميق لا بـالواقع الحىّ لعمل الصحفى فقط بل أيضًا "بالتكافل والعـداوات التى تنشـأ وتنمـو بين الصحـفى ومصـادره" ، وبالضـغوط القائـمة فى "التوحـيد والتنـميط" ، وبالأساليب التى "يضيف بها الصحـفى إلى الأحداث التى يغطيها أكثر مما يستقيه منها" (٤٨) .

وتختلف أجهزة الإعلام الأمريكية عن أجهزة الإعلام الفرنسية والبريطانيـة بسبب الاختـلاف البالغ بين المجتـمعات ، واخـتلاف الجمهـور هنا وهناك ، واختلاف المؤسسات والمـصالح . فعلى كل صحفى أمـريكى أن يكون على وعى بأن بلده دولة عظمى ولديها ما تنفـرد به بين الدول من مصـالح وطرائق خاصـة لتحـقيق هذه المصالح . إن استقلال الصحافة شىء رائع ، عمليًا ونظريًّا ، ولكن كل صحفى أمريكى تقريبًـا يكتب عن العالم وفى أعماقه وعى بأن الدار الصحـفيـة التى ينتمى إليـها شـريك فى القوة الأمـريكية ، بحيث لو تعـرضت هذه القوة للتـهديد من الدول الأجنبيـة أصبح استقلال الصحافة أمرًا ثانويًّا بالمقارنة بما لا يزيد فى حالات كثيرة عن التعبير المضمر عن الإخلاص والوطنية ، أو عن التعبير البسيط عن الهوية القومـية . ولكن هذا لا يدعو للدهشة قطعًـا ، أما ما

يدعـو للدهشـة فهـو أن الناس فى العـادة لا يرون أن الصـحافـة المستقلة تشارك فى السـياسة الخارجية ، على الرغم من مشـاركتها الفـعالة وبأشكـال كثـيرة . فـإذا تغـاضينا عن اسـتـخدام وكـالة الاستخبارات المركزية للصحفيين العاملين فى الخارج ، فسوف نرى أن أجهـزة الإعلام الأمريكيـة تقوم ، وهذا أمـر محتـوم ، بجمع معلوماتهـا عن العالم الخارجى داخل إطار تهيمن عليه الـسياسات الحكومية ، فإذا نشأ تضـارب أو خلاف مع هذه السياسات ، على نحو ما حدث فى حالة ڤيتنام ، قامت أجهزة الإعلام بتكوين آرائها المستـقلة ، ولكنه حتى فى هذه الحال لا بد من مراعـاة قدرة هذه الآراء على التأثير فى السـياسات الحكومية وإن لم تغيّـرها فعليًا ، فهـذه السياسـات هى التى تهم الأمريكيين جـميعًـا ، ومن بينهم رجال الصحافة .

أما فى الخارج فـإن الصحفى الأمريكى مضطر إلى الاعـتماد على ما يعرفه خير معرفة ، وهذا أمر مفهوم ، وهذا يحدث دائمًا عندما ينتقل أى إنسان من بيئته ليعيش فى ظل ثقافة أجنبية ، وهو يصدق بصفة خاصة على الصحفى الذى يشعر أن عليه فى الخارج أن يترجم ما يحـدث حوله إلى لغة يفهمهـا مواطنوه داخل أمريكا (ومن بينهم واضعـو السياسات) : إنه يسـعى لمصاحبة الصـحفيين الآخـرين فى الخارج ، ولكـنه يظل على اتصـال بسفـارة بلده ، وبالأمريكيين الآخرين المقيمين فى ذلك البلد ، وبالأشخاص الذين عرف عنهم الارتبـاط بعلاقـات طيبة مع الأمـريكيين . وعلينا ألاّ

نهوّن من أهمية أمر آخر ، وهو إحساس الصحفى فى الخارج أنه يعتمد لا على ما يعرفه سلفًا أو يكتسب علمًا به ، فحسب ، بل أيضًا على **ما ينبغى** لمثل أجهزة الإعلام الأمريكية فى الخارج أن يعرفه ، ويكتسب علمًا به ، ويقوله . فمراسل صحيفة **نيويورك تايمز** يعرف حق المعرفة طبيعة صحيفته وصورتها لذاتها بين المؤسسات الصحفية . وهكذا سوف نرى بالقطع فارقًا بالغ الأهمية وربما يكون حاسمًا بين الموضوع الصحفى الذى يبعث به مراسل **التايمز** فى طهران لنشره فى صحيفته ، وبين الموضوع الذى يرسله مراسل يعمل بالقطعة لنشره فى صحيفة **ذا نيشن** (الأمة) أو فى **إن ذيس تايمز** (فى هذا العصر) ، وهو فى طهران . واختلاف الجهاز الإعلامى نفسه يمارس ضغوطًا كبيرة ، فتغطية الحدث تغطية ميدانية مباشرة لبرنامج الأخبار المسائية فى محطة إن. بى. سى. تتطلب من المراسل فى القاهرة صياغة للخبر تختلف عن صياغة رئيس مكتب مجلة **تايم** لمقال يكتبه ويستغرق فى كتابته وقتًا أطول . وتضاف إلى ذلك أيضًا أساليب إعادة الصياغة التى يقوم بها المحررون فى الوطن للأخبار التى يرسلها المراسل من الخارج ، إذ تتدخل هنا مجموعة مختلفة من .قيود السياسية والأيديولوجية ، ولو دون وعى من جانب هؤلاء المحررين .

وتغطية أجهزة الإعلام الأمريكية للبلدان الأجنبية تقوم بإثارة اهتمامات جديدة ، إلى جانب تعميق الاهتمامات القديمة "لنا" بتلك البلدان . فوجهات النظر فى أجهزة الإعلام تؤكد أشياء

معينة للأمريكي وتؤكـد غيرها للإيطالي أو الروسي . وتلتقي هذه كلها حـول مركز مـشترك ، أو اتفـاق في الرأى ، وهو ما تشـعر جميع المنظمات الإعـلامية شعورًا شبه مؤكد بأنهـا تتولى إيضاحه وبلورته وتشكيله . وهذا بيت القصيد . فلأجهزة الإعلام أن تفعل شتى الأشيـاء ، وتمثل شتى وجهات الـنظر ، وتقدم أشياء كـثيرة تتسم بالغرابة الشـديدة أو الأصالة بصورة غير متـوقعة ، أو حتى الانحـراف ، ولكنها فـي نهاية المطاف ، ولأنهـا شـركات تخـدم وتعزز هوية مـشتركـة - قل إنها "أمريكا" أو حتى "الغرب" - فهي تضع نصب أعينها هذا الاتفاق الأساسي نفسه ، وهذا ، على نحـو ما سوف نرى بـعد قليل في حـالة إيران ، هو الذي يشكّل الأنباء ، ويبتُّ **فيما** يصلح خبرًا **وكيف** يصبح خبرًا . ولكنه مع ذلك لا يُملِي أو يحدد الأنباء بصورة قسـرية ، فليس نتيجة قوانين جبـرية ، ولا نتيـجة التآمـــر ولا الدكتاتورية . بل إنـه من ثمار الثقافة ، والأفـضل أن نقول إنه ثقافة معينة ، وهو ، فـيما يتعلق بأجهـزة الإعلام في الولايات المـتحدة ، عنـصر مهم من عـناصر التـاريخ المعـاصـر . ولن يكون من المجـدى تحليل وانتـقـاد هذه الظاهرة لو لم يكن صحـيحًا أن أجهـزة الإعلام تستجيـب حقا لما نحن عليه ولما نريد(٤٩) .

والأفضـل لنا أن نصف اتفاق الآراء المشـار إليه بأنه قـائم في الواقع ، بدلاً من القول بأنه مقرر أو مجرد . وفـيما يتصل بتغطية أجهـزة الإعلام للإسلام وإيران ، سوف أدع اتفـاق الآراء المذكور

يفصح عن ذاته حيثما يظهر فى سياق التحليل الذى سوف أقدمه فى الفصل التالى . أما الآن فلا أريد إلا تقديم تعليقين ختاميين على هذا الموضوع .

علينا أن نتذكر أولاً أنه لما كانت الولايات المتحدة مجتمعًا مركّبًا يتكون من ثقافات فرعية متعددة ، وكثيرًا ما لا يتمشى بعضُها مع بعض ، لابد أن يستشعر الناس ، بقوة هائلة ، ضرورة تقديم ثقافة مشتركة وموحّدة إلى حدٍّ ما عن طريق أجهزة الإعلام. ولا ترتبط هذه الظاهرة بأجهزة الإعلام فى عصرنا فحسب ، بل إنها من السمات ذات الأصالة الخاصة ، وتمتد جذورها التاريخية إلى تأسيس الجمهورية الأمريكية . لقد بدأ الأمر بما كان البيوريتانيون يسمونه "الانطلاق فى البرية" ، وبُنيت على أساسه فى هذا البلد لغةٌ أيديولوجية راسخة للتعبير عن كل ما هو أمريكى قح ، فى الوعى والهوية والمصير والدور المنوط بأمريكا ، وكانت مهمة هذه اللغة هى أن تضم معًا أكبر قدر ممكن من العناصر المختلفة فى أمريكا (وفى العالم) وأن تعيد تشكيلها بأسلوب أمريكى فريد . وقد لقيت هذه اللغة ، ولقى وجودها الراسخ فى الحياة الأمريكية قدرًا كبيرًا من التحليل المُقْنع على أيدى العديد من الباحثين ، كان من بينهم پيرى ميلر ، وآخرهم سكبان بيركوفيتش[٥٠] وكان من نتائج هذه اللغة أن ساد وهم اتفاق الآراء، وإن لم يكن اتفاقًا فعليًّا فى الرأى فى جميع الأحوال ، وهكذا ، وفى إطار هذا الاتفاق الذى يكتسى صبغة قومية بصفة

رئيسـية ، تعتقـد أجهزة الإعلام أنهـا تؤدى عملها باسم المجـتمع الذى تخدمه ولصالحه .

وتتعلق المسألة الثـانية بالتأثير الفـعلى لاتفاق الآراء المذكور ، وأرى أن أبسط طريقة لتحـديد هذا التأثير ، بل وأدق الطرائق فى اعتقادى ، هى أن نقول إنه وَضعُ الحـدود والمحافظة على استمرار الضغوط(٥١). فاتفاق الآراء لا يُملى على أجهزة الإعلام ما تقوله، كما إنه لا يمثل طبقة معينة أو المصـالح الاقتصادية لفئة معينة . بل علينا أن نعـتبـر أنه العـامل الذى يضع الخطوط الخـفيّـة التى تمثل الحدود التى لا يشعر الصحـفىّ أو المعلق أنه يحتاج إلى تجاوزها . وهكذا نرى أن القول باحتمال استعـمال القوة العسكرية الأمريكية لتحـقيق أغراض خـبيـثة قول مـحالٌ نسبيًّـا فى إطار اتفاق الآراء المذكور ، مثلما أصبح القول بأن أمريـكا قوة تعمل فى سبيل الخير فى العـالم قول مـعتـاد و'طبيـعى' . وعلى غـرار ذلك نجد أن الأمريكيين يتـعاطفون تعـاطفًا وثيقًـا مع المجتمـعات أو الثقـافات الأجنبيـة التى تظهر روح ريادة جـديدة (مثل إسرائـيل) فى انتزاع الأرض مـن أيدى مـَـن يسـيئـون اسـتـخـدامـهـا أو من أيدى الهمجيين(٥٢)، لكنهم كثـيرًا ما يتـشككون ، ولا يبدون اهتمـامًا كبيرًا بالثقافات التقليدية ، حتى ما يكابد منها عناء التجديد الثورى . ويفترض الأمريكيـون أن الدعاية الشيوعية تخضع لقيـود ثقافية وسيـاسية مماثلة ، وأما فى حـالة أمريكا فإن أجهـزة الإعلام تضع الحدود وتحافظ على الضغـوط فى إطار لا يكاد يفصح عن الإقرار

بذلك أو الوعى به[٥٣] . ويعتبر هذا فى ذاته مظهرًا من مظاهر وضع الحدود . ولأضرب لذلك مثلاً آخر . فعندما احتجز الطلاب الإيرانيون الرهائن الأمريكيين فى طهران ، بدأ اتفاق الآراء المذكور فى ممارسة تأثيره فورًا ، فأصدر ما يشبه الأمر بأن الأحداث الخاصة بالرهائن هى وحدها ، تقريبًا ، ما يهم الناس بصدد إيران، وأما ما عدا ذلك ، أى سائر أحوال إيران، من التحولات السياسية إلى الحياة اليومية والشخصيات العامة والملامح الجغرافية والتاريخية، فهو جدير بالتجاهل إلى أبعد حد، أى إن تحديد صورة إيران والشعب الإيرانى يقتصر على البتّ فيما إذا كانا يناصران الولايات المتحدة أو يعاديانها .

وتكفى هذه التعليقات العامة حول ما يمكن اعتباره الجوانب التى تؤكدها أجهزة الإعلام من حيث 'الكيف' فى نقلها للأنباء ونشرها (أى ما يسمى - اصطلاحًا - بالتوزيع) وأما ما نحتاج إلى قوله عن الجوانب 'الكمية' للأنباء باعتبارها 'تفسيرات' للواقع، فنستطيع أن نقول بصورة مباشرة إن أوسع انتشار (أو توزيع) ، ومن ثم أقوى تأثير ، تستأثر به حفنة محدودة من المنظمات ، وكالتان أو ثلاث وكالات للأنباء ، وثلاث شبكات تليفزيونية ، ونصف دستة من الصحف اليومية ، ومجلتان إخباريتان أسبوعيتان (أو ثلاث مجلات)[٥٤] ولن نحتاج إلى أن نذكر أكثر من أسماء معدودة لإيضاح ما نقول : محطة **كولمبيا برودكاستنج سيستيم** (محطة إذاعة كولمبيا) (سى بى اس) التليفزيونية ، ومجلة **تايم** ،

وصحيفة **نيويورك تايمز** ، ووكالة **يونايتد برس إنترناشيونال** . إذ تستطيع هذه مجتمعةً أن تصل إلى عــدد أكبر من أفراد الجمهور ، وإحداث تأثيـر أعمق ، ونشـر أنواع معينة من الأنبـاء على نطاق أوسع مما تستطيعه أجهزة توزيع الأخبار الأصغر والأقل ثراءً . أما معنى هذا فيمـا يتعلق بالأنباء الخارجية فهـو واضح : فأمثال هذه الشركـات لديها أعـداد أكبـر من سواها من المراسلين الميـدانيين ، ومن ثم فـإن هؤلاء المراسلـين هم الذين يضــعــون أسس المادة الصحـفية التى تقـوم الأجهزة المـشاركة ، من صـحف ومحطات تليفزيونية محلية ومحطات إذاعيـة ، بتوزيعه على عملائها مباشرة . ونلاحظ هنا أن الكمّ الهـائل والكثافة الشـديدة للأنباء الأجنبـية التى تنقلها هذه الأجهزة الكبرى عادة مـا يضفى عليها ثقة أكبر ، ومن ثم فإن الذين يستخدمون الأنـباء يكثرون من الإشارة إليها ، وهكذا نجد أن النبأ الذى تنشره **نيويورك تايمز** أو تذيعه محطة سى. بى. إس. ، يتمتع بالمصداقية بفضل مصدره ، وهيبة المؤسسة التى صدر عنها وذيوع صيتـها ، وكذلك بفضل تواتر ترديده (يوميًّا أو كل ساعة إلخ) وبفضل مـا يوحى به من خبرة ودُرْبة . فإذا نظرنا إلى مجمـوع الأجهزة الرئيسيـة الصغيرة لنقل الأنبـاء ، والأجهزة الأصغر التى تتسم بالتنوع الهائل والاستـقلال ، وإن كانت تعتمد رغم ذلك من زوايا كثـيرة على الأجهـزة العملاقة ، وجـدنا أنها تقدم مجتمعة صورة **أمريكية** للواقع تتميز بالتماسك الواضح لكل ذى عينين .

ومن العواقب البالغة الخطورة لهذا الوضع هو أن الأمريكيين لا تكاد تتاح لهم فرصة رؤية العالم الإسلامى إلا فى تلك الصورة المختزلة ، والمقتسرة ، .والمعارضة . ومصدر المأساة هنا هو أن هذا قد أدى إلى تفريخ مجموعة من 'الاختزالات المضادة' لدينا وفى العالم الإسلامىّ نفسه ، إذ لم يعد مصطلح "الإسلام" يدل الآن إلاّ على أحد المعنيين العاميّن التاليين ، وكلاهما مرفوض ويسلبه بعض ثرائه . ففى عيون الغربيين والأمريكيين يمثل "الإسلام" نزعة بدائية عادت للظهور ، ولا تقتصر على الإيحاء بالتهديد بالعودة إلى العصور الوسطى بل بخطر تدمير ما يشار إليه بانتظام بمصطلح النظام الديموقراطى للعالم الغربى . وفى مقابل ذلك نجد أن "الإسلام" يمثل لعدد كبير من المسلمين رد فعل مضاد لهذه الصورة الأولى للإسلام باعتباره تهديدًا أو خطرًا . وهكذا نجد أن أى شىء يقال عن "الإسلام" يتحول ، قسرًا إلى حدّ ما ، إلى صيغة الدفاع عنه بتعديد أوجه إنسانية الإسلام ، وذكر عطائه للحضارة ، والتنمية ، والصلاح الخلقى . وقد أدى هذا النوع من ردّ الفعل المضاد إلى ردّ مضادّ له ، فى بعض الأحيان ، وهى حماقة واضحة ، إذ حاول البعض معادلة "الإسلام" بالأوضاع الآنيّة القائمة فى أحد البلدان الإسلامية ، أو إحدى السلطات الإسلامية القائمة . ثم إذا بك ترى السادات وهو يصف الخومينى بأنه مجنون وعار على الإسلام ، وترى الخومينى وهو يرد " التحية" بأحسن منها ! وإذا بشتى الأشخاص فى الولايات

المتحدة يناقشون نصيب كل قضـية منها من الصحة ! ماذا يستطيع المدافع عن الإسلام من هذا المنـطلق أن يقول حين يقرأ يومـيًا عن أعداد الذين أعـدمتهم اللجـان الثورية الإيرانيـة ، أو عندما يعلن الخومينى، على نحو ما نقلته وكالة رويتر فى ١٩ سبتمبر ١٩٧٩ ، أنه سوف يقضى قضاءً مبرمًا على أعداء الثورة الإسلامية؟ ما أرمى إليه هنا هو أن جمـيع هذه المعانى النسبية والاخـتزالية "للإسلام" تعتمد على بعـضها البعض ، وعلينا أن نرفضهـا كلها لأنها تعمل على استمرار التعقيد القائم .

أما مدى العـواقب الوخيمة لهذا التـعقيد القائم فـيتضح حين نرى كيف اتخذ الإيرانيون من مناصـرة الولايات المتحدة للتحديث الذى أتى به الشاه نداءً لحشد الصفوف لمعـارضته ، وكانت ترجمة هذا تتمثل فى تفسـير للملكية باعتبارها سُـبَّةً فى جبين الإسلام ؛ كما حـددت الثورة الإسلامية بعـض الأهداف ، وكان أحدها هو مقاومة الإمبريـالية الأمريكية التى بدت ، بدورها ، فى صورة من يقاوم الثورة الإسـلامية بإعادة تنصيب الشـاه رمزيًا فى نيويورك . وتوالت بعد ذلك أحداث المسرحيـة كأنما وفق برنامج استشراقى ، فالمستشرقون المزعومون يلعـبون الدور الذى فرضته عليهم توقعات الغربـيين ، والغربيـون يؤكدون مـوقفهم فـى عيون أبنـاء الشرق باعتبارهم شياطين(٥٥) .

بل ولا يقتـصر الأمر على هذا . فـالبرامج التليفـزيونية التى تنتـجـها الولايات المتـحـدة تشـيع فى مناطق كـثيـرة من العـالم

الإسلامى، كما يميل المسلمون ، شـأنهم فى هذا شأن جميع أبناء العالم الثالث الآخـرين ، إلى الاعتماد على مجموعـة ضئيلة من وكالات الأنباء التى تـقوم بنقل الأخبار إلى العالـم الثالث ، حتى فى الحالات الكثيرة التى تكون فيها هذه الأخبار **أخبارًا عن** العالم الثالث . وهكذا تحوَّلَ العالمُ الثالثُ بصفة عامة والبلدان الإسلامية بصفـة خاصة من مصـادر للأنباء إلى جهـات مستـهلكة للأنباء . وهكذا ، ولأول مـرة فى التـاريخ يجـوز لنا أن نقـول إن العـالم الإسلامى يتلقى المعلومات **عن نفسه** عن طريق الصور والقصص والأخبـار المصنّعه فى الغرب (أو قل لأول مـرة يحدث ذلك على هذا النطاق الهائـل) . فإذا أضاف المرء بعض الحـقائق إلى هذا ، زادت دقة الصورة . وأولى هذه الحقـائق هو أن الطلاب والباحثين فى العالم الإسلامى مـا زالوا يعتمدون على المكتبـات والمؤسسات التعليـمية فى أمـريكا وأوروبا فيمـا أصبح يسمى دراسـات الشرق الأوسط (ولا تَنْسَ أن العـالم الإسلامى برمـتـه يخلو من مكتبـة مركزية مكتملة حـقًا للمصادر العلمية العـربية) وثانى هذه الحقائق هو أن اللغة الانجلـيزية أقرب إلى العـالمية من العـربية والفارسـية والتركية ، وثالثها أن بلدانًا كـثيرة من بلدان العالم الإسلامى التى يعتمد اقتصادها على النفط ، تعـتمد فى تكوين الصفوة فيها على إعداد طبقة إدارية من أبنائها تدين باقتصادياتها ومؤسساتها الدفاعية والكثيـر من فرصها السـياسيـة إلى نظام سوق الاستهـلاك العالمى الذى يتـحكم فيـه الغرب . أقـول إن هذه الحـقائق تزيد من دقـة

الصورة ، على ما بها من دواعى الـكآبة البالغة ، ألا وهى صورة ما فعلته "بالإسلام" تلك الثورةُ فى أجهزة الإعلام التى لا تخدم إلا شريحة صغيرة من المجتمعاتٍ التى أنتجتها(٥٦) .

وليس معنى هذا أنه لا توجد فى الواقع نهضة إسـلامية بعيدًا عن ردود الأفعال التى أتحدث عنها . ولكنه من الأدق أن نقلل من اللجوء إلى التـعميمـات فى الحديث عنها. فأنا ، من ناحـيتى ، يزداد اطمـئنانى إذا تجنّبْتُ استـعـمـال كلمـتى "الإسـلام" و"الإسلامى" ، إلا فى حدود صارمة ، ومع تميـيز الكلمتين فى كل سـياق تردان فـيـه ، وذلك ، على وجـه الدقة ، لأن كلمـة "الإسلام" قد أصبحت فى الكثير من مجتمعات المسلمين ودولهم (وفى الغرب أيضًـا ، بطبيعـة الحال) غطاءً سياسيًّا للكثير مما لا ينتـمى عـلى الإطلاق إلى الدين . كـيف نسـتـطيع إذن أن نبـدأ مناقـشتنا ، بروح المـسؤوليـة ، لتفـسـيرات المسلمين للإسـلام ، وللتطورات التى شهدها ؟

يجب علينا أولاً ، مثلما فـعل مكسيم رودنسون ، أن نرصد التعـاليم الأساسيـة لدين المسلمين ، على نحو مـا ورد فى القرآن الكريم ، كـلام الله ، ونتزلهـا مـنزلتـهـا الفـريدة(٥٧) . هذا هو الأساس الـراسخ لهوية العـقيـدة الإسلامـية ، وإن كانـت صور تفسـيرها وتطبيـقها فى الحيـاة الواقعيـة قد تبعـدنا عنها . ويضم المستوى الثانى شتى التفسـيرات المتضاربة للقرآن الكريم التى نشأت عنهـا الطوائف الإسلاميـة المتعـددة ، وشتى المدارس الفـقهـية ،

والأساليب التفسيرية ، والنظريات اللغوية ، وما شابه ذلك . وسوف نلمح اتجاهًا رئيسيًا داخل هذه الشبكة الهائلة من الآراء المستقاة من القرآن الكريم ، وهو الذى يطلق عليه رودنسون "العودة إلى المنبع" (وقد بنيت على معظم هذه الآراء مؤسسات كاملة ، بل ومجتمعات كاملة فى بعض الأحيان) . ومعنى هذا هو تلك النزعة التى يشبهها رودنسون "بثورة دائمة" داخل الإسلام. وإن كان لا يذكر أن جميع أديان التوحيد ، ومعظم الحركات الأيديولوجية ، تضم هذه النزعة فى ثناياها ، ومن أصعب الصعب أن نقول إن الإسلام أشد اتساقًا فى روحه الثورية من سواه فى هذا الصدد . وعلى أى حال فنحن نرى أن "العودة إلى المنبع" قد أدت إلى نشأة بعض الحركات (مثل الحركة الوهابية أو ، كما هو واضح ، العنصر الدينى فى الثورة الإيرانية) التى يختلف تأثيرها فى المجتمع الذى تنشأ فيه باختلاف المكان وباختلاف الزمان . فالمهدية باعتبارها من أيديولوجيات القرن التاسع عشر فى السودان تختلف عن المهدية القائمة الآن . وعلى غرار ذلك نرى أن جمعية الإخوان المسلمين فى مصر فى الفترة التى امتدت من أربعينيات القرن الماضى إلى منتصف خمسينياته كانت حركة تتمتع بقوة أيديولوجية أكبر كثيرًا مما تتمتع به الحركة اليوم ، وكلتا الحركتين تختلفان فى التنظيم والأهداف عما يسمى بالإخوان المسلمين فى سوريا اليوم .

لقد تحدثنا حتى الآن من وجهة نظر تعتبر الإسلام بصفة

أساسية ، وإن لم يكن ذلك بصفة حَصْرية ، مذهبًا وعقيدة ، فوجدنا أننا قد دخلنا بالفعل مجالاً زاخرًا بالتنوع والتضارب . ووجدنا ، باختصار ، أن مصطلحى "الإسلام" و"الإسلامى" لابد لمن يستعملها أن يحدد بطريقة ما **أى صورة** للإسلام يقصدها (بل **وأى فئة** من فئاته) ويزداد الأمر تعقيدًا حين نضيف مستوى ثالثًا لتحليلنا ، ومن جديد وفقًا لرودنسون . ولكن الأفضل هو اقتطاف أقواله كاملة :

> يضم الإسلام مستوى ثالثًا ، لا مناص من التمييز بينه بالحرص الواجب وبين المستويين الآخرين ، وهو المستوى الذى يتضمن أساليب تطبيق الأيديولوجيات المختلفة فى حياة الناس ، والممارسات التى ارتبطت بها هذه الأيديولوجيات وأثّرت فيها حتى وإن لم تستلهمها أصلاً . وكان كل نظام من النظم التى أدى إليها الإسلام فى العصور الوسطى يتخذ صورة مختلفة عن صاحبه فى الحياة الواقعية ، ويمر بتغييرات داخلية مختلفة عن غيره ، حتى عندما ظلت هذه النظم متطابقة من حيث الإحالات المرجعية لها والنصوص التى تستند إليها ، ومن المحال اختزال القضية هنا بحيث تنحصر فى مجرد التضاد بين المذاهب والنصوص الخاصة باتجاهات "المارقين" من ناحية ، والصورة "الصحيحة" للإسلام التى يعترف بها معظم المسلمين من ناحية أخرى . ففى

سـياق الالتـزام بالنص ، هنا أو فى أى مـجال آخـر ، كثيـرًا ما يحدث أن تكون إعادة تفسيـر عبارة وردت فى نص مقـدس كافيـة لإحداث تغيـير 'وجودى' واتخاذ موقف النقـد أو موقف الثورة ، وقـد يظل هذا الموقف فرديًا وقد ينتشر بين الآخرين . وفى مقابل هذا ، كثيرًا ما يحـدث أنه ، مع مرور الزمـن ، تتحول الانـطلاقة الثـورية أو التـجـديدية إلى اكـتسـاب مـعنى المحـافظة والالتـزام والسلم. وبين أيدينا نماذج كـثيـرة على هذا التحول ، ولنا أن نطلق عليه حقًا قانون الأيديولوجيات العـام . والمثـال السـاطع على ذلـك هو تطور المذهب الإسماعيلى . ففى العصور الوسطى دعا الإسماعيليون إلى انقـلاب ثورى فى النظام القـائم. وأمـا اليوم فـإن زعـمـاءه هـم الأغـاخـانات، أصـحـاب السطوة من المليونيـرات ، الذين ينحصر همهم فى التـمتع بأطايب الحياة فى صحـبة نجوم السينما والمشاهيـر، على نحو ما تنشره صحائف الفضائح عنهم دون كلل .

وأقول فى الختام إن النصوص المقدسة لا تتضمن أحكامًا صريحة . فـالواقع هو أن التقاليد الثـقافية بصفـة عامة (سواء كان ذلك فى صـيغها الصريحة ، أو فـيما تعلنه على الملأ ، أو فى نصوصـها المذهبـية ، أو فى المواقف التى تسـتلهم هذه النصـوص) تتـضمن جـوانب بالغـة

التنوع، وتسمح للمـرء أن يبرر الأطروحات التى تتـميز بأكبر قدر من التناقض فيما بينها(٥٨) .

هذا ، إذن ، هو النوع الثالث من التفسير ، ولكنه من المحال له أن يقوم دون النوعين الآخرين . لابد للإسلام من وجود القرآن الكريم ، وفى مـقـابل ذلك ، لابد للـقـرآن الكريم من مـسلمين يقرأونه ويفسـرونه ويترجمونه إلى مؤسـسات وحقائق اجتمـاعية. وحتى حين يشتد الاتجاه إلى الأخذ بالتـفسير الصحيح، على نحو ما نرى فى الإسـلام السُّنّى ، والسنة نفسهـا تعنى الصحة القـائمة على الإجماع ، فـما أيسر أن تنشأ القلاقل الثـورية. فالصراع بين حكومـة السـادات فى مصـر وبين مـا يسـمى بأحـزاب المسلمين الأصولية ، يجرى فى ميدان "الصحة" المختلف عليهـا نفسها ، فـالسادات والسلطات المسلمـة **التابـعة له** تزعم أنها تمثل السّنّة ، ومـعارضـوه يقـدمون حـججًا قـوية على أنهم هم أتباع السُّنّة الحقيقيون.

فإذا أضفنا إلى هذه المستـويات الثلاثة للإسلام أعداد المسلمين الهائلة فى الماضى والحاضر والمستـقبل ، والامتداد التاريخى الهائل "لانتـشار الإسـلام" (من القـرن السـابع حتى الـوقت الحاضـر) والظروف الجغـرافية المذهلة التنوع للـمجتمـعات الإسلامـية (من الصين إلى نيجـيريا ، ومن إسـبانيا إلى إندونيـسيا ، ومن روسـيا وأفـغانسـتان إلى تونس) فـسوف نتـفهم فـيمـا أرى ، الدلالات **السيـاسية** المترتبة على مـا تفعله أجهزة الإعلام الغـربية ، وكذلك

المحاولات الثقافية ، لإطلاق لفظ ''الإسلام'' على هذا جميعًا . وأرى أننا سوف ندرك أيضًا أن شتى المحاولات **الإسلامية** للرد أو الاستجابة إلى الظروف الإسلامية والغربية ، بكل ما تتسم به من تنوع وتناقض، ذات طابع سياسى لا يقل عن طابع هذه الدلالات، وأننا نستطيع أن نقوم بتحليلها هى الأخرى من حيث كونها صورًا للتحول والكفاح واستراتيجيات للتفسير(٥٩) . وسوف أحاول الآن أن أرسم الخطوط العريضة للصورة ، حتى أبيّن مدى التعقيد المذهل فيها ، وإن كان ينبغى لى فى البداية أن أقول إن **أكبر** مشكلة هى أن جانبًا كبيرًا مما يتصدى المرء لتقييمه يستعصى أساسًا على التوثيق .

إننا أبعد ما نكون عن إمكان القطع فى أمر وجود شىء نسميه ''تاريخًا إسلاميًا'' إلاّ باعتباره أسلوبًا بدائيًا للتمييز بين العالم الإسلامى وبين أوروبا ، مثلاً ، أو اليابان . وأما فيما عدا ذلك ، فالباحثون الإسلاميون والغربيون يختلفون حول ما إذا كان الإسلام قد ضرب جذوره فى بعض المناطق الجغرافية بسبب الظروف البيئية أو الهيكل الاقتصادى الاجتماعى ، أو العلاقة الخاصة بين أنساق الحياة المستقرة والبدوية . وأما عن فترات التاريخ الإسلامى ، فإنها على درجة من التعقيد لا تسمح بإلصاق الطابع '' الإسلامى'' البسيط بها. فما هى أوجه التشابه بين الدول العلوية ، والعثمانية، والصفوية ، والأوزبكية ، والمغولية (والتى تمثل النظم السياسية الكبرى فى التاريخ الإسلامى ، حتى القرن العشرين ، فى الهند

وتركيا والشرق الأدنى والشرق الأوسط) وبين الدول الإسلامية الحديثة ؟ كيف نستطيع تفسير الفرق بين (أو حتى أصول) ما يسمى بالشريحة الإيرانية التركية والشريحة التركية العربية فى البقاع الإسلامية ؟ وباختصار ، كما يبين ألبرت حورانى ذلك بوضوح ، فإن مشكلات التعريف ، والتفسير ، وتحديد الطابع ، فى إطار الإسلام نفسه ، مشكلات هائلة ترغم الباحثين الغربيين (ناهيك بغير الباحثين الغربيين) على التمهّل . وهاك ما يقوله :

> الواضح إذن أن بعض الكلمات مثل 'التاريخ الإسلامى' لا تفيد المعنى نفسه فى السياقات المختلفة ، وأنها لا تكفى فى ذاتها لإيضاح كل ما هو موجود ، فى أى سياق من السياقات . والواقع ، بتعبير آخر ، أن ''الإسلام'' والكلمات المشتقة من هذا اللفظ تمثل ''أنماطًا مثالية'' لا مناص من توخى الحرص فى استعمالها ، إلى جانب عدد لا يحصى من التحفظات والتكييفات للمعنى، ولابد من اقترانها بأنماط مثالية أخرى ، إذا كنا نريد لها أن تقوم بوظيفتها باعتبارها مبادئ للتفسير التاريخى . ويتغير مدى إمكان استعمالها تبعًا لنمط التاريخ الذى نكتبه . فهى أقل ما يصلح للتاريخ الاقتصادى ؛ وعلى نحو ما بين رودنسون فى كتابه **الإسلام والرأسمالية** لا يمكن تفسير الحياة الاقتصادية للمجتمعات التى يسود فيها الإسلام تفسيرًا يقوم على

العقائد أو الشرائع الدينية فى المقام الأول . فعلى الرغم من تأثير الشريعة الإسلامية فى الأشكال التجارية ، نجد أن ألوانًا أخرى من التفسير أقرب إلى الواقع ، وعلى نحو ما يقول كاهين وآخرون ، نجد أن بعض المفاهيم الأخرى ، مثل مفهوم مجتمع "الشرق الأدنى" أو مجتمعات "البحر المتوسط" أو "العصور الوسطى" أو "ما قبل العصر الصناعى" أكبر نفعًا من مفهوم المجتمع الإسلامى . فقد يستطيع الإسلام أن يقدم بعض التفسيرات للتاريخ السياسى الاجتماعى ، لكنه لا يقدم جميع التفسيرات المطلوبة ، إذ لا يمكن تفسير المؤسسات والسياسات القائمة حتى فى أشد الدول حماسًا "للإسلام" دون أن نأخذ فى اعتبارنا الموقع الجغرافى ، والحاجات الاقتصادية ، ومصالح الأسر الحاكمة والحكام. بل إن تاريخ المؤسسات التى تقوم ، فيما يبدو ، على أساس الشريعة الإسلامية لا يمكن تفسيره من جميع جوانبه فى هذا الإطار وحده ، إذ إن مفهومًا مثل مفهوم "الرّق" سوف يتلاشى إذا أنعم المرء النظر فيه ، وعلى نحو ما بين ميليوت فى فحصه لكتابات 'العمل' التراثية فى المغرب الأقصى ، دائمًا ما توافرت الأساليب اللازمة لإدراج العادات المحلية فى الشريعة الإسلامية عند تطبيقها عمليًا . ولا يمكننا أن نفسر إلا

بعض أنواع التاريخ الفكرى ، على الأقل فى الفترة التى سبقت العصر الحديث ، فى إطار المفاهيم الإسلامية أساسًا ، باعتبارها عملية تحوّل ، إذ تسربت أفكار خارجية فاختلطت بالأفكار المولّدة من رحم الإسلام نفسه ، فشكلت نظامًا يحافظ على نفسه ويطور نفسه ؛ بل لابد من النظر إلى فلاسفة المسلمين لا باعتبارهم فلاسفة يونانيين يرتدون ملابس عربية ، بل باعتبارهم مسلمين يستخدمون مفاهيم الفلسفة اليونانية ومناهجها فى تقديم تفسيرهم الخاص للعقيدة الإسلامية[٦٠] .

فإذا ضربنا فى شعاب أخرى لم نجد عند علماء الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا) إجابة لسؤالنا عما إذا كان قد وجد إنسان ينتمى علميًا إلى 'الجنس الإسلامى' ، أو إذا كان لمثل هذا النمط قيمة تحليلية أو معرفية على الإطلاق . إن معلوماتنا عن توزيع السلطة فى المجتمعات الإسلامية أقل كثيرًا مما نحتاج إلى الإحاطة به ، بسبب كثرة هذه المجتمعات واختلافها الشديد على امتداد التاريخ والمواقع الجغرافية ، وهى القلة التى تمنعنا من البت فى أسلوب تقييم العلاقة ما بين المدونات الفقهية الإسلامية وبين تنفيذها فى الواقع ، أو بين مفاهيم الحكم وبين تطبيقها أو تحولاتها أو استمرارها . ولا نستطيع القطع بأى درجة من درجات اليقين ، مثلاً ، فيما إذا كانت بعض المجتمعات الإسلامية ، أو إذا كانت كلها أو كان أىٌّ منها قد غيّر أسس السلطة فيه فأحل مفاهيم

المذاهب القانونية محلّ المفاهيم المقدسة. ولننظر إلى عوامل اللغة، والهياكل الجمالية ، وسوسيولوجيات الذوق ، ومشكلات الشعائر، وعوامل الحيّز المدنى ، والتحولات السكانية، وثورات الأحاسيس والمشاعر : إنها جميعًا من العوامل المتصلة بالسياقات المختلفة والتى لم يشرع فى دراستها عدد يُذكر من الباحثين المسلمين أو غير المسلمين . هل يوجد شىء حقا يسمى السلوك السياسى الإسلامى ؟ كيف تتكون الطبقات وتتشكل فى مجتمعات المسلمين ، وكيف تختلف هذه عن نظائرها فى أوروبا ؟ وما هى المفاهيم وأدوات البحث والأطر التنظيمية والوثائق التى نستطيع بها رصد أفضل مؤشرات الحياة اليومية للمسلم بصفة عامة ؟ وهل يفيدنا استعمال مصطلح "الإسلام" فى نهاية المطاف باعتباره فكرة، أم تراه يخفى أكثر مما يقول فى الواقع أو يشوهه أو يحرفه أو يضفى عليه دلالات أيديولوجية أوسع ؟ وقبل كل شىء ، ما مدى تأثير موقع الشخص الذى يطرح أيا من هذه الأسئلة أو يطرحها كلها فى الإجابات عليها ؟ كيف يختلف موقف عالم الدين المسلم الذى يطرح هذه الأسئلة فى إيران ، وفى مصر، وفى المملكة العربية السعودية عن موقفه منذ عشر سنوات ؟ وما العلاقة بين هذه الأقوال وبين الأسئلة التى يطرحها المستشرق السوفييتى ، أو المتخصص فى الدراسات العربية بوزارة الخارجية الفرنسية أو عالم الأنثروبولوجيا الأمريكى فى جامعة شيكاغو ؟

وفى مجال السياسة نجد أن الاستجابة الإسلامية أو الرد

الإسلامى الموحد الذى ظهر أخيرًا لا يقل فى " تشيئه" للأمر ، ولا يقل فى اعتلاله ، وفى كونه ستارًا يخفى العديد من العناصر التى تتسم بالتناقض المدمر ، عن استعمال مصطلح "الإسلام" فى الغرب . ففى كل حالة تقريبًا نجد أن الدولة فى المنطقة الإسلامية الوسطى (التى تمتد من شمالىّ إفريقيا إلى جنوبىّ آسيا) تعبّر عن ذاتها واعيةً بعبارات إسلامية . وهذه حقيقة سياسية مثلما هى حقيقة ثقافية، ولم يبدأ إدراكها فى الغرب إلا منذ عهد قريب[٦١].

فالمملكة العربية السعودية ، مثلاً (على نحو ما يدل عليه اسمها) هى دولة البيت الملكى لآل سعود وهو الذى أدى انتصاره على القبائل الرئيسية فى المنطقة إلى نشأة الدولة . وما تقوله هذه الأسرة وما تفعله باسم الدولة وباسم الإسلام يعبر عن سلطان الأسرة ، بالإضافة إلى ما شهدته باعتبارها عضوًا من أعضاء المجتمع الدولى، وما كسبته هى نفسها من سلطة وشرعية كبيرة فيما يتعلق بالشعب فيها . ويمكن ترديد أقوال مماثلة عن الأردن ، وعن العراق ، وعن الكويت ، وعن سوريا ، وعن إيران قبل الثورة ، وعن باكستان ، باستثناء واحد وهو أن حكم الأقلية فى جميع هذه الحالات ليس فى يد أسرة واحدة . ولكن الصحيح أن أقلية نسبية - سواء كانت طائفة دينية ، أو حزبًا واحدًا ، أو أسرة ، أو تجمعًا إقليميًا - هى التى تهيمن على الآخرين جميعًا باسم الدولة وباسم الإسلام ، ويستثنى من ذلك لبنان وإسرائيل ، فكلاهما تنتمى إلى العالم الإسلامى جغرافيًا ، ولكن الحكم فى

أيدى أقلية مسيحية فى إحداهما ، وفى أيدى أقلية يهودية فى الأخرى ، ومع ذلك فكل منهما تعبر عن جانب كبير من هيمنتها تعبيرًا دينيًا .

ولقد أحست جميع هذه الدول إلى حد كبير ، كل منها بأسلوبه الخاص ، بأنها ترد على تهديدات خارجية ، ولجأت من ثم إلى الدين أو التقاليد الوطنية ، على الترتيب ، فاتخذت بذلك صورة رد الفعل على هذه التهديدات . ولكن كل دولة منها - وهذا هو جوهر الموضوع - تواجه معضلة عسيرة الحل إلى حد مذهل . فمن ناحية معينة نرى أن هيكل الدولة لا يستجيب استجابة كاملة للتعددية فى القوميات والأديان والطوائف القائمة فى كل منها . وهكذا نجد فى المملكة السعودية أن قبائل أو عشائر مختلفة قد تشعر بالضيق لوجود دولة تقول إنها دولة العرب التابعة لعشيرة آل سعود . ونجد فى إيران كذلك ، وحتى يومنا هذا ، أن هيكل الدولة لا يتيح مكانًا لأبناء أذربيجان ، وبلوخستان ، وللأكراد وللعرب وللآخرين الذين يشعرون بأن هويتهم العرقية الخاصة معرضة للخطر نتيجة ذلك . ونرى التوتر نفسه ، وعلى جبهة أعرض ، وهو يتكرر فى سوريا ، والأردن ، والعراق ، ولبنان ، وإسرائيل . ومن ناحية أخرى نرى أن السلطة المهيمنة فى كل من هذه الدول قد استخدمت أيديولوجية وطنية أو دينية للإيحاء بمظهر الوحدة فى مواجهة ما ترى أنه يمثل تهديدات خارجية . وهذا ، بوضوح ، هو الحال فى المملكة العربية

السعـودية ، حيث يمثل الإسـلام التيـار الأيديولوجى الذى يتمـيز بالسعة والمشروعية الكافية لضم صفوف الشعب تحت لوائه . وهكذا غدا "الإسلام" فى المملكة العربية السعودية وفى إيران قبل الثورة معادلاً للأمن القومى . ولما كانت هذه الهيـاكل السياسية تتفق مع الأنماط الغـربية للإسـلام ، فقـد أصبـحت تتـعرض للمـزيد من الضغوط الخارجية والداخلية .

وهكذا فإن "العودة إلى الإسلام" أبعد ما تكـون عن الحركة الموحَّدة أو حتى الحـركة ذات المعنى المتسق ، بل إنها تجسـيد لعدد من حقـائق الواقع السـياسيـة . فهى فى عـينى الولايات المتـحدة صورة انفصـام لابد من مقاومتـه فى بعض الأحيان وتشجـيعه فى أحـيـان أخرى . فنـحن نتـحدث عن المسـلمين السُّنِّيين المعـادين للشيوعية ، وعن المسلمين المتمردين البواسل فى أفغانستان ، وعن المسلمين "المعتـدلين" مـثل السادات ، ومـثل الأسـرة السعـودية الحاكـمة ، ومـثل ضيـاء الحق . ومع ذلك فنحن ننتقـد المسلمين المناوئين من أتباع الخومـينى ، والطريق الإسلامى "الثالث" الذى ينادى به القذافى ، كـما ننزع فى افـتتاننا المريض بإقـامة "الحدود الإسلامية" (أى العقوبات الشرعية) مثل الحدود التى أمر بإقامتها خلكالى فى إيران ، إلى تضخيم سطوتها كأنما يتخذها الحكام أداة لاستـمرار سلطانهم . ولننـظر إلى الإخوان المسلمين فى مـصر ، وإلى المناوئين الإسـلامـيين فى المملكة العـربيـة السـعـودية الذين استـولوا على مـسجد المديـنة المنورة ، وإلى جمـعيـات الإخوان

المسلمين والطلائع الإسلامية التى تعارض حزب البعث الحاكم فى سوريا ، وإلى المجاهدين فى إيران ، وكذلك إلى الفدائيين ودعاة التحرير : إنهم يمثلون جميعًا جانبًا صغيرًا مما يمثل تيارًا معارضًا يجرى فى أرجاء الأمة ، وإن كنا لا نعلم إلا أقل القليل عنه . أضف إلى ذلك أن شتى القوميات التى ينتمى إليها المسلمون الذين حرموا من هوياتهم فى شتى الدول التى تخلصت من الاستعمار ترفع أصواتها فى طلب الإسلام الذى تدين به . وتحت هذا كله - فى المدارس والمساجد والنوادى وجمعيات الإخوان والنقابات والأحزاب والجامعات والحركات والقرى والمراكز الحضرية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى - تعلو أمواج المزيد من أنواع النزعات الإسلامية ، والتى يزعم عدد كبير منها أنها تهدى أعضاءها حتى يعودوا إلى "الإسلام الحقيقى" [٦٢] .

ولا يحيط أبناء الغرب الذين تطالبهم أجهزة الإعلام ويطالبهم المتحدثون بلسان الحكومات بالنظر فى "الإسلام" إلا بقدر بالغ الضآلة من هذه الطاقات المنوعة لدى المسلمين . وأما أخطر أنواع سوء التصوير فنراها حين يُطلب إلى الناس النظر فى " عودة ظهور" الإسلام[٦٣] . فأما المستمسكون به فدائما ما كانت صورته تتميز ، قطعًا ، فى أذهانهم وقلوبهم ، بالانتعاش ، والحيوية ، والثراء الفكرى والشعورى والإنتاج الإنسانى . ودائمًا ما كانت "الرؤية الإسلامية" (إذا استعرنا التعبير المفيد الذى أتى به الباحث و . مونتجومرى واط[٦٤]) تثير فى تفكير المؤمنين معضلات خلاقة .

ما العدالة ؟ وما الشر ؟ متى ينبغى الاستناد إلى النقل طلبًا للصحيح والمأثور ؟ ومتى يجوز الاجتهاد (الرأى الفردى) ؟ وتتكاثر الأسئلة ويقوم العاملون بعملهم - ومع ذلك فنحن لا نكاد نرى أو نسمع فى الغرب شيئًا عنه . والواقع أن جانبًا كبيرًا من الحياة الإسلامية غير مرتبط بالنصوص ولا مقصور على شخصيات بعينها أو على هياكل واضحة حتى لقد أصبح مصطلح "الإسلام" ، الذى زاد استعماله عما ينبغى ، دليلاً لا يعتمد عليه إلى ما نحاول أن نفهمه.

ومع ذلك فإن النزاع بين "الإسلام" و"الغرب" نزاعٌ جدُّ حقيقى. ونحن نتناسى أن كل حرب من الحروب يستخدم فيها صفّان متقابلان من الخنادق ، وصفّان من المتاريس ، وآلتان من آلات الحرب . وعلى نحو ما أدت الحرب مع الإسلام ، فيما يبدو، إلى توحيد العرب حول معارضة قوة الإسلام ، أدت الحرب مع الغرب إلى توحيد الكثير من القطاعات فى العالم الإسلامى . فإذا كان الإسلام من العوامل الحديثة العهد نسبيًا فى الولايات المتحدة ، فلقد بدا للكثير من المسلمين أن الولايات المتحدة جزء من الغرب ، وهو ما جعلها ، من ثم ، من الظواهر التى كثيرًا ما نوقشت فى العديد من الدوائر الإسلامية على امتداد عقود طويلة. وأعتقد أن الكثير من الباحثين الغربيين فى الثقافة الإسلامية يميلون إلى تضخيم تأثير "الغرب" فى الفكر الإسلامى فى المائتى عام الأخيرة ، وهم يفترضون خطأ من "الغرب" و"التحديث"

يشغلان بؤرة الوعى الإسلامى منذ عهد بعيد ، من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى . ولكن هذا غير صحيح ، لأن المجتمعات الإسلامية ، شأنها فى ذلك شأن غيرها ، تركز على بعض الأشياء أحيانًا ، وعلى سواها فى أحيان أخرى . ولكن من الصحيح أن "الغرب" كان موضوعًا شغل مئات الصفحات من المجادلات والدراسات والتفسيرات الأصيلة ، إلى جانب توفير شتى المشروعات والمهام للعديد من الشخصيات العامة والأحزاب والحركات فى العالم الإسلامى[٦٥] ، ولكنه من الخطأ ومظاهر الغرور أن نتصور أن العالم الإسلامى كله لم ينشغل إلا بهذا الذى لا يعدو أن يكون ، فى نهاية المطاف ، من الشئون الخارجية .

ومما له أهميته البالغة أيضًا أن نتذكر أن إحدى الخصائص العظمى للثقافة الإسلامية تتمثل فى ثراء طاقتها على التفسير وحذقها الشاسع فى هذا المجال . ربما يكون صحيحًا أن الإسلام قد خلّف تراثًا بالغ الروعة والإبهار فى الفنون الجمالية البصرية ، ولكن الأهم من ذلك ، وما لا يقل عنه صحة ، هو أن الإسلام لا تكاد تجاريه حضارة أخرى فى تشجيع فنون التفسير اللفظى على مثل هذا النطاق الواسع . فلقد بُنيت مؤسسات كاملة ، وتقاليد قائمة برأسها ، ومدارس فكرية مستقلة ، من بعض مذاهب الشرح والتعليق ، والنظريات اللغوية ، والإبداعات التفسيرية . وليس معنى هذا أن التقاليد الدينية الأخرى تخلو من ذلك ، فهى لا تخلو منها ، ولكن علينا أن نتذكر أن الخبرات الشفاهية

واللفظية فى الإسلام قد نمت وتطورت دون منافسة تباريها أو تضارعها ، وامتد نطاقها ليصبح أشمل وأكثر تخصصًا من سواه . ولا غرو إذن أن يطلق الدستور الإيرانى الجديد على الفقيه صفة مرشد الأمة، فليس الفقيه هو الفيلسوف الملك الذى تتصوره أجهزة الإعلام ، فيما يبدو ، بل هو - حرفيًا - أستاذ الفقه ، أى أستاذ علوم التفسير للشريعة الإسلامية ، أو هو ، بتعبير آخر ، قارئ عظيم .

ومما يدعو للأسى أن المجتمع الإسلامى القائم على ما أخذ به من تفسير ، والمجتمع الغربى أو الأمريكى الذى شكلته أجهزة الإعلام فى المقام الأول ، يراهنان بجانب كبير من طاقاتهما على نقطة الخلاف الضيقة والمواجهة بينهما ، وفى غمار ذلك يتجاهلان كل ما يتصل بتلك المواجهة . ولما كنا على أتم استعداد لتصديق ما يقال عن المسلمين الذين يعارضون أمريكا "الشيطانية" ، فمن المجدى أن نلتفت إلى حقيقة ما حدث فى الواقع . فإذا كان من المؤكد أن السيطرة على "الأخبار" و"الصور" فى الغرب ليست فى أيدى المسلمين ، فمن المؤكد أيضًا أن تأخر المسلمين الشامل فى تفهم أسباب تبعيتهم هو الذى يمنعهم من اتخاذ إجراء ما بشأن ذلك . ولا تستطيع الدول الغنية بالنفط من جانبها أن تشكو نقص الموارد . إذ لا ينقص حقًّا إلا بعض قرار سياسى متكاتف بدخول العالم دخولاً جادًّا ، وهو النقص الذى يثبت أن الدول الإسلامية أبعد ما تكون عن تشكيل جبهة موحدة ، فهى لم تحتشد لذلك بل

ولم تتماسك سياسيًا حتى الآن . فعليها أولاً تشجيع العديد من المواهب المتوافرة ، وليس أقلها شأنا طاقتها على رسم صورة واضحة قوية واعية لذاتها ، ولكن هذا معناه إجراء تقييم جاد للقيم الإيجابية التى يمثلها المسلمون (أى عدم الاقتصار على الدفاع وردود الأفعال) . ولقد دارت ولا تزال تدور مناظرة كبرى حول هذا الموضوع فى العالم الإسلامى ، وهى عادة ما تتخذ صورة مناقشات للتراث (والمقصود هو التراث الإسلامى دون غيره)[٦٦] :
وقد آن أوان نقل ما انتهت إليه من نتائج وما بحثته من قضايا إلى سائر أقطار العالم . لم تعد أمامنا ذريعة تبرر النحيب على عداء "الغرب" للعرب والإسلام ثم القعود عن العمل والإحساس بغضبة صاحب الحق المظلوم . فإذا أقدم المسلمون على تحليل أسباب هذا العداء ، دون خوف ، وكذلك تحليل تلك العوامل التى تشجعه فى "الغرب" ، فلسوف يتخذون خطوة مهمة على طريق تغيير الموقف ، ولكن الخطوة لا تشمل الطريق كله : إذ لابد من إحلال شيء ما محله حتى لا تكون النتيجة موجة جديدة من الدعاية المعادية للإسلام . ولا شك أن المسلمين يواجهون اليوم خطرًا بالغًا يتمثل فى فعل ما قد يثبت صحة الصورة السائدة المعادية للإسلام ، وإن كان ذلك حتى الآن مقصورًا على **بعض** المسلمين ، و**بعض** العرب ، و**بعض** السود من أبناء إفريقيا . ولكن هذه الأفعال التى تثبت صحة الصورة تؤكد أهمية ما لم يفعله المسلمون حتى الآن ، وما عليهم أن يفعلوه .

أعتـقد أن عـددًا كبـيرًا من البـلدان الإسلامـية ، فى غـمرة اندفاعـها نحـو التـصنيع والتحـديث والتنمية ، قـد استـجابت ، وبدرجـة أكبـر مما ينبـغى أحـيانًا ، لإغـراء التـحول إلى أسـواق استـهلاكيـة . وأما دحض أسـاطير الاستـشراق وصوره الـنمطية فيـقتـضى من أجهـزة الإعلام ومن المسلـمين أنفسـهم أن يتيـحوا الفـرصة للعـالم كله لرؤية المسلمين وأبناء الشـرق وقد أصـبحـوا منتجين (لا مستـهلكين فقط) . والأهم من ذلك أن ينشروا صورة مختلفة للتاريخ ، ونوعًا جـديدًا من علم الاجتماع ، ووعيًا ثقافيًا جديدًا : وباخـتصـار ، لابد للمسلمين أن يؤكـدوا الهدف من أن يعيشوا فى كنف شكل جديد للتـاريخ ، باستكشاف ما يطلق عليه مارشال هـودجسون "العالم الإسلامى المركب"(٦٧) ومجتـمعاته الكثيرة المتنوعـة ، وأن يتسلحوا فى سبـيل ذلك بجدّيّة الغرض ، وبالعـجلـة والإلحـاح اللازم لإبلاغ النتـائج إلـى خـارج العـالم الإسلامى. ولقـد كان ذلك قطعًا ما قـصد إليه على شـريعتى فى حديثه للمسلمين الإيرانيين عندمـا أضفى الطابع العالمى على هجرة النبى محمد ، ﷺ ، من مكة إلى المدينة ، فجعلها تنطبق على وضع الإنسـان ذاته باعتـباره "اختـيارًا ، وكـفاحًـا ، وصيـرورة متواصلة. إنه هجرة لا نهائيـة، هجرة داخل نفسه، من الصلصال إلى الإله ؛ إنه مهاجر داخل روحه نفسها" (٦٨) .

كانت أمـثال هذه الأفكار التى أتى بهـا شريعتى تغـذو الثورة الإيرانية فى مـراحلها الأولى ، وهى التى وضـعت نهاية حاسـمة

للافتراض القديم الذى جمـدت عليه أذهان البعض ، أى افتراض أن المسلمين عاجزون بصفة أساسية عن القـيام بثورة حقيقية أو عن تحرير أنفسهم من أغلال الطغيان والظلم . وكان مما ازدادت أهميته حتى عن ذلك أن الثورة الإيرانية أثبتت فى مراحلها الأولى ، على نحو ما كان يقول به شريعتى دائمًا ، أن على المسلم أن يجعل من الإسلام فى أعماقه تحديًا وجوديًا يهبه القوة ، لا استسلامًا سلبيًا للسلطة ، بشـرية كـانت أم إلهيـة . ففى الدنـيا التى تفـتقـر إلى "المعايير الثابتة" ، ولا يصح فيها إلا الأمر الإلهى "بالهجرة" من الصلصـال إلى الإله ، يكون علـى المسلم ، حسبـمـا يقـول به شريعتى ، أن يشق لنفسه طريقًا خاصًا به وحده . بل إن المجتمع البشرى نفسه هجره ، أو تأرجحٌ ما بين "قطب قابيل" (الحاكم ، الملك ، الأرستـوقراطية : أى السلطة المركزة فى يدى فـرد واحد) وبين "قطب هابيل" (طبقة العـوام أو ما يطلق عليه القرآن تعـبير **الناس** : الديموقراطية ، الذاتية، التواصل الاجتماعى)[٦٩]. وكانت تعاليم الخـومينى الأولى على نفس المستوى من الـقوة ، وإن كان يقل مرونة عن شـريعتى فوصف مـحنة المسلم بأنه قد كـتب عليه دومًا ، أن يواجه الاختيار بـين الحلال والحرام (أو الخير والشر) . ومن ثم كانت دعوته إلى إقامة جمهورية "إسلامية" وكان يقصد بهـا ترسيخ أسس الخـيـر وإنقاذ المسـتضـعـفين (أو المظلومين) مما يكابدونه .

ولقد أدت هذه الأفكار ، بطبيعة الحال ، إلى قلقلة رهيبة فى

إيران ، ولكن الثورة الإسلامية لم تجتذب فى الغرب أى تعاطف.
بل لقد واجهت الأحداث الإيرانية ، حتى فى الأقطار الإسلامية ، الخوف من طاقتها ، ومن حماسـها ، وتعصبها الدينى المؤدى إلى التمـزق ، والذى يشبـه تعصب المؤمنين بـعودة العصـر الذهبى .
وهكذا نرى فى العالم الإسلامى اليوم انقسـامًا عريضًا بين تيارين، الأول يمثل الآراء ' الصحيحة' الرسمية للحيـاة الإسلامية والثانى يعارضـه ويتخذ أشكالاً كثـيرة متـفاوتة ، ولنقل إنه ''إسلام ضد ثقافى'' ، وكانت الثورة الإيرانية من صور التعبير الرائدة عنه(٧٠).
والمفـارقة هى أن الآراء الغـربيـة فى الإسلام تفـضل أن تربط بين ''الإسلام'' وبين ما يعارضه كثـير من المسلمين أنفسهم فى الوقت الراهن ، ألا وهـو الحـدود ، والتـسلط ، وأسـاليب المـنطق القروسطى، وحكم رجال الدين .

ثالثا : حادثة الأميرة فى سياقها :

لا تزال صورة الإسلام فى أعيننا تتعرض لما يسلبها القوة ، حتمًا ، وأقصد بذلك قدرتنا على تمثيل الإسلام فى الصورة التى تناسب أغراضنا ، وقد تقوم دولة أو حكومة أو جماعة بالاستجابة لنا فتختزل الإسلام حتى يتفق مع مناسبة من المناسبات ، وتقدم لنا صورة أبعد ما تكون عن الإسلام الحقيقى، وهكذا نجد أن التلاقى بين الجانبين - "نحن" و"هم" - لا يضفى الشرف السابغ على أيهما . والأهم من ذلك أن هذه الصورة تخفى فى تغطيتها الإعلامية أكثر مما تكشف عنه صراحة . ولسوف أضرب المثال لما أعنيه بحادثة أتولى تحليلها بعد أن كثر فيها القيل والقال .

فى يوم ١٢ مايو ١٩٨٠ عرضت محطة "هيئة الإذاعة العامة" فيلمًا بعنوان "**موت أميرة**" أخرجه مخرج سينمائى بريطانى يدعى أنطونى توماس . وقبل ذلك بشهر ، كان الفيلم قد تسبب فى أزمة دبلوماسية بين المملكة المتحدة والمملكة العربية السعودية ، أدت إلى سحب السفير السعودى من لندن ، ومقاطعة السياح السعوديين لانجلترا، والتهديد بفرض المزيد من العقوبات. ولماذا ؟ لأن الفيلم فى نظر السعوديين يمثل إهانة للإسلام ، ويقدم صورة خاطئة للمجتمع العربى بصفة عامة وللعدالة السعودية بصفة خاصة . ويقوم الفيلم على حادثة ذائعة ، وهى حادثة إعدام إحدى الأميرات مع عاشق لها من أبناء الشعب ، ويتخذ شكل الدراما الوثائقية (التسجيلية) التى يبحث فيها أحد الصحفيين عن

الحقيـقة . فالصحـفى البريطانى يحاول أن يعرف مـا حدث على وجه الدقة للعـاشقين ، ويسافر فى سبـيل ذلك إلى بيروت حيث يتحدث مع اللبنانيين والفلسطينيين ، ثم يســافر إلى المملكة العربية السعودية حيث يتعرض ، بطبيـعة الحال ، للمماطلة والمراوغة من جانب المسـئولين . وفى غـمار ذلك لا يخرج إلا بنـتيجـة واحدة وهى أن الذين قابلهم وتحدث معهم يفسرون قصة الأميرة باعتبارها رمزًا لمعـضلاتهم السيـاسية والأخـلاقية . فالفـلسطينيون يرون أن الأميرة، مثلهم ، منبوذة تسعى للحرية والتـعبير عن نفسها سياسيًا . ويرى بعض اللبنانيين فـيها نموذجًا للصـراع فيمـا بين العرب ، وهو الذى أدى إلى تمزيق لبنان . ويرى المسـئولون السـعوديون أن القضيـة لا تخص أحدًا سواهم ، ويقولون إن الغربيين لم يهـتموا بهـا إلا لأنها تسئ إلى النظام الحـاكم . وأخيـرًا تقول حـفنة من المطلّعين على الخبايا إن محنتـها توجه الاتهام لنفاق ذلك النظام ، الذى يستغل ''الإسلام'' وقانون القـصاص الإسـلامى فى التكتّم والتسـتّر على فساد الأسـرة المالكة . وأما نهاية الفيلم فـهى نهاية مفتوحة ، فكل تفسير من هذه التفسيرات يتضمن قدرًا من الحقيقة ، ولكن أيًا منها لا يكفى فى ذاته لإيضاح ما حدث فى الواقع .

وفى الولايات المتحدة أعلنت الحكومة السعودية عن معارضتها لعرض الفـيلم ، وقد أدى ذلك إلى بعض النتائج التى لم يقـبلها الجمـهور ، من بينهـا أن وارين كريستـوفر ، من وزارة الخارجـية الأمريكية ، لفت نظر المحطة التليفزيونيـة المذكورة علنًا إلى استياء

المملكة العربية السعودية ، ومنها أن شركة إكس كون للنفط نشرت إعلانات فى الصحف الكبرى تدعو المحطة فيها إلى " مراجعة" قرارها . وقد ألغت المحطة عرض الفيلم فى عدة مدن، كما قامت، إقرارًا منها بطبيعة الفيلم الخلافية ، بإذاعة مناقشة تحليلية استمرت ستين دقيقة عقب عرض الفيلم مباشرة ، شارك فيها ستة من المتحدثين إلى جانب رئيس الجلسة ، وكان أحدهم مندوب الجامعة العربية ، والثانى أستاذًا للقانون فى جامعة هارڤارد ، والثالث رجل من رجال الدين الإسلامى يقيم فى منطقة بوسطن ، والرابع أمريكى شاب قيل إنه متخصص فى الدراسات العربية (وكانت تلك تسمية غريبة ، نظرًا لأنه لم يكن أكاديميًا ولا مسئولاً حكوميًا) إلى جانب امرأة فى مقتبل العمر تتمتع بخبرة فى مجال التجارة والصحافة فى الشرق ، وأخيرًا صحفى بريطانى التزم بالأمانة فى إبداء كراهيته لما يجرى فى المملكة العربية السعودية . واشترك هؤلاء الستة فى تقديم ساعة كاملة من الكلام الذى كان يفتقر ، دون مبالغة ، إلى الترابط . فالذين كانوا يعرفون شيئًا عن المنطقة كانوا كثيرًا ما يلتزمون بسبب مناصبهم بموقف الدفاع الرسمى الذى يلتزم به "المسلمون". و لذين لا يعرفون إلا القليل، أثبتوا ذلك ، بطبيعة الحال ، والباقون كانوا، إلى حد ما، يقولون كلامًا لا صلة له بالموضوع .

وكانت الضغوط المبذولة لمنع عرض الفيلم تستند مُحقّةً إلى مسائل تتعلق بالتعديل الأول للدستور الأمريكى ، وأعتقد أنه كان

ينبغى عرضــه . وأما أهم المسائل التى لم يفصح عنهـا أحد بشأن الفيلم (وهو فى رأيى عمل تافه إذا قـيس بمقاييس الفن السينمائى) فهى ما يلى : (أ) أن الذى صنع الفيلم **ليس** مسلمًا ، و(ب) من الراجح أن يكون الفيــلم الوحيد الذى يُحـتمل أن يشاهده المتـفرج العادى ، فإن لـم يكن الوحيد فهـو بالتأكيد أشد الأفـلام تأثيرًا ، و(ج) أن المناقشـات التى دارت حول الفيلم ، ســواء فى البرنامج التحليلى الذى أعقبه أو فى أى مناسبة أخرى ، كان من أندر النادر أن تتعرض لقضايا السياق ، والسلطة ، والتمثيل . فلقد تمتع عمل توماس ، كما هو واضح ، بقوة الجاذبية "الجاهزة" التى لا يتمتع بها فـيلم عن اليمن ، مـثلاً ، إذ إن الجنس ، والحـدود الشرعـية " الإسلامية" (وخصوصًا تلك التـى تؤكد أسوأ ما نرتاب "نحن" فـيه بشـأن همجـيـة المسلمين) إذا تَزَيَّتْ بأزياء الدرامـا الوثائقيـة (التسـجيلية) قادرة على اجـتذاب جمهـور واسع من المشاهدين . وقالت مـجلة **ذا إيكونوميـست** فى إبريل ١٩٨٠ : " الشريـعة الإسـلاميـة لا تعنى عند مـعظم الغـربيين إلا الحـدود الشـرعيـة الإسلامية ، وهذه أسطورة مبسطة قـد يكون الفيلم قد دعمها" . وازداد اتســاع نطاق الجـمهـور عندمـا تسـرب نبأ لجـوء الحكومـة السعودية إلى استخدام نفوذها فى الكواليس لمنع عرضه (وكان من بين من استعانت به أيضًـا شركة إكس كون) . وقد أدى ذلك كله إلى تأكيد أن فيلم "**موت أميرة**" **ليس** فيلمًا من صنع المسلمين ، بل فـيلم لم يكن للمـسلمين مـا يقـولونه بشـأنه إلا مـا هو جـد محدود، وكريه نسبيًا ، ولا تأثير له على الإطلاق .

ولابد أن منتجى الفيلم والمحطة التى عرضته كانوا يدركون ، شأنهم فى ذلك شأن أىّ مسلم أو فرد من أفراد العالم الثالث ، أنه مهما يكن مضمون الفيلم، فإن القدرة على إنتاجه أو صناعته، أىْ مجرد عرض المشاهد المتوالية فى صور ، كان مزيّة ترجع إلى ما سبق لى أن أطلقت عليه القوة أو السلطة الثقافية ، وهى فى هذه الحال القوة أو السلطة الثقافية للغرب[٧١] . كان امتلاك السعوديين للمزيد من المال ، ببساطة ، أمرًا لا صلة له بالقضية : فإن إنتاج الأنباء والصور فعليًا وتوزيعها - عمليًا - أقوى من المال لأنها تمثل القوة أو النظام الذى يُعْتَدُّ به فى الغرب أكثر من مجرد رأس المال. وفى مقابل هذا النظام ، كانت الاعتراضات السعودية على الفيلم باعتباره مهينًا للإسلام تمثل بدورها محاولة لحشد قوى نظام تمثيلى أو رمزى أضعف ، أى صورة النظام الحاكم لنفسه باعتباره المدافع عن الإسلام ، ابتغاء 'تحييد' ما يطلق عليه الصورة الغربية للإسلام (بمعنى إلغاء تأثيرها) .

وأحرز النظام الغربى انتصارًا آخر فى المناقشة التحليلية التى أذاعتها المحطة التليفزيونية المذكورة ، إذ استطاعت - من ناحية - أن تزعم صادقة أنها قد استجابت لاستياء السعوديين بإتاحتها إذاعة تلك المناقشة للقضايا المطروحة ، فأثبتت حساسيتها أو إدراكها للموقف ، ولكنها استطاعت ، من ناحية أخرى ، أن تتحكم فى المناقشة ، وذلك بأن ضمنت تحقيق ''التوازن'' بين الآراء المتباينة التى لم يحسن المتحدثون التعبير عنها ، وهم حفنة من الأفراد

المجهولين نسبيًا والذين لا يمثلون حقًا أصحاب تلك القضايا ، وبذلك ضمنت أيضًا أن تسلب أى مناقشة عميقة أو مديدة قوتها أو حدّتها . بل إن إذاعة المناقشة فى ذاتها كانت بمثابة البديل لأى تحليل دقيق . وكان من الأدلة على نجاح تلك الحادثة عدم قيام أحد بالتعليق على البناء غير المحكم للفيلم ، ولا على ''التوازن'' فى المناقشة التحليلية ، وهما العاملان اللذان انتهيا نهاية مفتوحة مضللة حالت دون الحكم الصائب على الموضوع الفعلى وهو أحوال أحد المجتمعات الإسلامية المعاصرة . فنحن لا نعرف حتى الآن (وربما لم يكن يهمنا أن نعرف حقًا) ما فعلته الأميرة فى الواقع ، مثلما سمعنا المشاركين فى المناقشة وهم يقولون ''إن الفيلم ردئ'' أو ''إن الفيلم جيد وصادق'' . ولكن الحقيقة التى لم يعترف بها أحد ، والتى تكمن وراء الفيلم ووراء المناقشة ، هى أن مثل هذا الفيلم **يمكن** إنتاجه وعرضه فيأتى بعواقب أخطر من أية عواقب يمكن أن يأتى بها فيلم سعودى يعتبر مُسيئًا إلى المسيحية أو إلى الولايات المتحدة أو الرئيس كارتر .

والواقع أن النظام السعودى الحاكم حين بذل جهوده لمنع عرض الفيلم قد وجد نفسه فى موقف من ينكر وقوع شىء لا يستطيع حقا إنكار وقوعه (الحادثة نفسها) ، وأيضًا موقف العاجز عن تقديم صورة للإسلام تناقض ما جاء فيه . وهكذا فإن التعقيد الشديد المصاحب لاختزال صورة الإسلام ، وهو ما سبق لى التحدث عنه ، قد سلب أى اعتراضات على الفيلم قدرتها

على التأثير ، إذ أصبح الاختيار محصوراً بين أمرين : إما أن يقول المشاهد "لا ! ليست الأحوال حقا على هذا النحو" أو "ذلك هو الحال حقا" ، وهذا يتطلب ، بطبيعة الحال ، توافر الفرصة لمن يقول بهذا أو ذاك فيحدث تأثيراً ما ، ووجود مكان يقول ذلك فيه. أما المتحدث الرسمى باسم المملكة العربية السعودية ، فلم يتوافر له هذا ولا ذاك ، ولم يجد سوى الأسلوب الذى تدينه ثقافتنا وهو محاولة منع عرض الفيلم على الإطلاق . وقد بذل المسئولون السعوديون بعض الجهود التى لا تفصح عن الحماس الكامل للإشارة إلى جوانب الإسلام "الحسنة" ولكن هذه الجهود لم تكن لها أصداؤها فى المناظرة الجارية . والأسوأ من ذلك أنه لم يتوافر على الساحة الأمريكية عدد من المتحدثين الذين يتمتعون بالقوة الكافية والقدرة على تبيان الأسس الثقافية التى تثبت أن الفيلم تافه من الناحيتين الفنية والسياسية معًا ، بل أتفه من أن يستطيع أن يحمل أى رسالة مهمة . ولم نشهد ، لسوء الحظ ، ما هو أسوأ من أن يظهر معارضو الفيلم - فى أمريكا وفى انجلترا - بمظهر عملاء للمصالح المالية السعودية (على نحو ما أشار إليه ، وبألفاظ لا تخفى احتقاره ، ج. ب. كيلى فى صحيفة "**نيو ريبليك**" بتاريخ ١٧ مايو ١٩٨٠) وفى النهاية ، فإن معارضى الفيلم لم تكن فى أيديهم أجهزة النشر والإذاعة اللازمة للطعن فى الفيلم على أسس نقدية . ولنا أن نتبين مدى سخافة الخلاف كله ، وبسرعة ، إذا نحن قارنّاه بالمناظرة التى دارت حول

فيلم **ذكرى العدالة** للمخرج مارسيل أوفلس ، أو حول فيلم **المحرقة** أو عند إعادة عرض الأفلام التى أخرجها لينى ريفستال .

ولقد مكننا عرض فيلم **موت أميرة** من ملاحظة ما هو أبعد من ذلك . لقد كانت أجهزة الإعلام الأمريكية ، والأوساط الفكرية والثقافية من حولها ، تعج - دون مبالغة - بالإهانات الموجهة للإسلام والعرب قبل أن يسمع أحد عن '**الأميرة**' بوقت طويل . فلقد شهدنا فى مناسبتين سابقتين على الأقل كيف وجه عمدة مدينة نيويورك إهانة مباشرة إلى عاهل المملكة العربية السعودية ، حين رفض تحيته أو مجاملته بأبسط ألوان المجاملات وأكثرها شيوعًا . وأظهر البحث الجاد أنه لا يكاد يخلو برنامج تليفزيونى يعرض وقت الذروة من عدة قصص تتضمن صورًا هزلية للمسلمين وتتسم بالعنصرية السافرة والإهانات المباشرة ، ومن الاتجاه إلى تمثيل المسلمين جميعًا بصور عامة قاطعة ودون تخصيص أو تحديد ، بحيث يظهر كل مسلم ممثلاً لجميع المسلمين وللإسلام بصفة عامة(٧٢) . ولننظر إلى الكتب المقررة فى المدارس الثانوية ، وإلى الروايات والأفلام والإعلانات ، ولنتساءل كم منها يتضمن حقًا معلومات عن الإسلام ، ناهيك بإظهاره فى صورة حسنة ؟ ما مدى انتشار المعرفة بالفرْق بين الإسلام الشّيعى والإسلام السُّنى ؟ لا يكاد يعرف الفرق أحد ! ولننظر فى العلوم الإنسانية التى تُدرّس فى جامعاتنا : إن معظمها ، إن لم نقل كلها، تضع مقرراتها الدراسية بحيث توازى بين ''العلوم الإنسانية''

وبين الروائع الأدبية التى تبـدأ بالشاعر اليونانى هوميـروس وكُتّاب المأساة اليونانيين وتنتهى بالروائى الروسى دوستويڤسكى والشاعر ت.س. إليوت، مرورًا بالكتاب المقدس ، وشيكسبير ، ودانتى ، وثيـربانتيس . ومـا مكان الحـضارة الإسـلامـية المجـاورة لأوروبا المسـيحـية وسط هذا المنهج الذى يتـسم بالتركـيز العـرقى ؟ وإذا استـثنينا الكتب الحديثـة إلى أبعد حـد مثل **الإسلام المحـارب** أو **خنجر الإسلام** أو كتاب "**كفاحى بقلـم آية الله الخومينى**" ، فما هى الكتب العامة عن الحضارة الإسلامية التى يجرى توزيعها على نطاق واسع ؟ أو يُرجع إليـها ؟ أو يطلب قراءتهـا أحد ؟ هل من الممكن أن نقول إن بين السكان قطاعًا محبًّا للإسلام مثلما نقول إن بينهم من يحبون الإنجليز أو الفرنسيين مثلاً ؟

وبعد أن خفّت حدة النزاع حول **الأميرة** ، نسى السعوديون ، لسوء الحظ ، أن يغضبوا من مجلة **أميريكان سپكتاتور** التى نشرت مقالة كتبها إريك هوفنر بعنوان "كسل محمد" ووضع لها عنوانًا فرعيا هو "محمد ، رسـول التثاقل" (٧٣) . بل ولم يدرجوا فى القائمة التى تضم نماذج لسـوء إدراك الإسلام بعض ما يذكّر الناس بذلك ، مثل ما نعرفه من أن البلدان الثلاثة التى لا تزال محتلة فى عـالم اليوم وتحـتلهـا قوات أحـد حلفـاء الولايات المتحـدة بلدان إسلامية . ولم يُقْدم النظام السعـودى الحاكم على التهديد بالعقاب إلا حين تعرضت سمـعة الأسرة المالكة للتلطيخ مـباشرة . فكيف تأتّى أن يكون الإسلام قد أسئ إليـه فى حالة واحدة دون الحالات

الأخـرى ؟ لماذا لم يقم السعـوديون حـتى هذه اللحظة إلا بجهـد محدود نسبيًا لتعزيز تفهم الإسلام ؟ وحتى الوقت الحاضر لا يزال إسهامـهم الكبير فى مجـال التعليم مقتصـرًا على برنامج دراسات الشـرق الأوسط بجامـعة جنوبى كـاليـفورنيـا ، وهو الذى يديره موظف سابق فى شركة أرامكو(٧٤) .

ولكن السياق الكامل لحادثة فيلم **موت أميرة** أشد تعقيدًا من ذلك . فلقد كان مـوضوع التدخل الأمريكى فى الخليج مـوضوعًا شائعًا فى المناقشـات الدائرة لمدة لا تقل عن خمس سنوات . فمنذ أواخر عام ١٩٧٨ عندما أحجم السعوديون عن المشاركة فى عملية كامپ ديڤيـد السلمية ، والمقـالات التى تبرز أخطاء النظام الحاكم المتعددة وعيوبه الكثيرة تنشر علينا بصـورة منتظمة (وبعضها محشو بالأكاذيب التـى تكتسى مظهر الحـقائق الصـادقة) . وقد اعـترف المسئولون فى أواخـر يوليو ١٩٨٠ أن وكالة الاستخـبارات المركزية (سى آى إيه) كانت من وراء بعض تلك الموضـوعات الصحفـية : انظر التحقيق الذى نشره ديڤيد لى بعنوان ''المعلومات التى تسربت من واشنطـن فـضلّت الطريـق : هفـوة السى آى إيـه التى هزت المملكة العربية السعودية'' (**واشنطن بوست** ، ٣٠ يوليو ١٩٨٠). وفى الأعوام السـتة عـشر من عـمر **صـحيـفة نيـويورك لمراجعـة الكتب**، كانت تتجاهل تقريبًا شئون الخليج العربى ، ثم قامت فى السنة التالية مباشرة لكامپ ديڤيد بنشر عدة مقالات عن الخليج ، وكلها تؤكـد هشاشة ' ترتيبات' الحكم السعـودى الحالية . وفى

الوقت نفسه ، بدا أن الصحافة قد اكتشفت صعود نجم الإسلام ، والخصائص القروسطية للحدود الشرعية ، والفقه الإسلامى ، وصورة المرأة . ولم يشر أحد فى ذلك الوقت إلى أن الحاخامات اليهود يعربون عن آراء مماثلة إلى حد مذهل فى المرأة ، أو فى غير اليهود ، أو فى نظافة الجسم (الطهارة) وفى العقاب ، أو إلى أن مختلف رجال الدين المسيحى اللبنانيين يتسمون بنظرة لا تقل تعطشًا للدم وروح القرون الوسطى . وكان اختيار التركيز على النظام الإسلامى السعودى فيما يبدو يتميز بتوزيع الألحان المعزوفة على نغمتين هما ضعفه وغرابته ، ولم يؤد أى لحن منها إلى التقليل من ذلك الضعف وتلك الغرابة . ولكن المقصد من وراء ذلك كان ، فيما يبدو ، أن المملكة العربية السعودية قد تحدّت الولايات المتحدة ، وعليها بسبب ذلك أن تكابد مزية الكتابة " بأمانة" عنها ، وكذلك أن تخضع لمطلب رفع التكتم على ما تفعله الرقابة السعودية (ولكنْ لم يَشْكُ أحد من الحقيقة المعروفة وهى أنه لا يخرج أى نبأ من إسرائيل دون أن يمرّ أولاً على الرقيب العسكرى) وانتشر التعبير عن مشاعر الغضب وانتظم ترديدها إزاء انعدام حرية الصحافة فى المملكة العربية السعودية (ترى كم عدد مشاعر الغضب التى عبر أصحابها عنها إزاء القيود التى فرضتها إسرائيل على الصحف والمدارس والجامعات العربية فى الضفة الغربية ؟) لقد أصبحت المملكة العربية السعودية ، فجأة ، حالة فريدة تعلو أصوات الليبراليين والصهيونيين فى الجوقة المشتركة التى

تُقَرِّعُـها ، وأصـوات المادحين ، ومن يكادون يدللونها فى الجـوقة المشتركة الأخرى التى تضم رجال المال المحـافظين وكبار شخصيات المؤسـسة الاجـتمـاعيـة . وقد أدى ذلك إلى زيادة خـفض منزلة المملكة العربيـة السعودية ، وزاد من النفور منهـا وظهورها بمظهر الشاذ فكريًّا .

وكان من نتائج ذلك أنه ما إن وقعت حادثة فيلم **الأميرة** حتى ارتفعت أصـواتنا "نحن" لتنعى مـا يتسـمون "هم" به من نفاق وفساد ، كـما أنهم ، بدورهم ، أعربوا عن ضيـقهم بما لدينا من قوة وما نفتقر إليه من الحسـاسية . وتدفقت فى تيار هذه المواجهة شتى جوانب الموازنة بيننا "نحن" وبين "هم" ، الأمر الذى جعل من المستبعد فعليًّا إجراء مناقشة حقيقية ، وتحليل حقيقى ، وتبادل حقيقى . وهكذا فقـد أخذ وعى المسلمين بهويتهم يزداد قوة وهم يخسرون المقـابلات مع كتلة صلبة متـحجرة ، تقدم نفـسها باسم "الحضارة الغربية" ، وعندما أدرك ذلك مثيرو الدهماء فى الغرب شرعوا فى الانقضاض على التعصب القروسطى وقسوة الطغيان . ومن ثم يصبح مجـرد تأكيد الهوية الإسـلامية ، فى ذاته ، ولكل مـسلم تقريبًـا ، بمثابة خطـوة يعلن بها عن ضـرب من التحـدى الكونى ، بل وبمثابة ضـرورة من ضرورات البقاء . وتبـدو الحرب فى هذا السياق هى النتيجة المنطقية إلى حد بعيد .

ومن النتـائج الأخرى غـير العـسكرية ، وغيـر المنظورة هذه المرة، أن بعض الناس هنا وفى العـالم الإسـلامى قد يكتـشفـون

الحدود المؤسفة التى تفرضها بطاقات العناوين القسرية مثل ''الغرب'' و''الإسلام'' . وربما نكون مبالغين إذا توقعنا أن يؤدى ذلك إلى أن تفقد هذه العناوين ، والأطر التى تدعمها ، قدرتها على تكبيل الناس بها ، ولكنه من المحتمل أن يؤدى ذلك الاكتشاف إلى ظهور ''الإسلام'' بمظهر أقلّ تصلّبًا وبثًّا للخوف ، وأن يتضح أن 'العنوان' أقرب إلى أن يكون من عواقب التفسيرات التى تخدم أغراضنا السياسية المباشرة ومن ثمار بواعث قلقنا ، سواء كنا ''نحن'' مسلمين أو غير مسلمين . فإذا ما توصلنا آخر الأمر إلى إدراك مدى قوة التفسير وعناصره الذاتية ، وإذا أدركنا أن الكثير مما نعرفه (عن العالم) ينتمى **إلينا** من جوانب تزيد عما نقر به فى العادة ، فلسوف نكون قد قطعنا مسافة كبيرة على طريق التخلص من بعض السذاجة ، ومن قدر كبير من سوء النية ، ومن أساطير عديدة عن أنفسنا وعن العالم الذى نعيش فيه . وهكذا فإن تفهّم ''الأنباء'' نفسه قد يوازى ، من زاوية معينة ، تفهّم ما نحن عليه، وكيف تجرى الأمور فى قطاع معين من المجتمع الذى نعيش فيه . ولابد لنا من تفهم هذه الأمور أولاً قبل أن نتخذ الخطوة التالية لفهم '' الإسلام'' الذى تعرض صوره علينا ، والأشكال المختلفة من الإسلام القائمة لدى المسلمين .

فلنحاول القيام الآن بتحليلٍ تفصيليّ للحادثة التى تسبّبتْ فى أكبر قدرٍ من تكدير الصفو ما بيننا ''نحن'' وبين ''الإسلام'' : أزمة الرهائن فى إيران . فالحادثة تخفى الكثير الذى لابد لنا أن

ندركه ، وتثير من اخـتلاط الفكر من الناحية السيـاسية ما لابد لنا من إزالته ، لأنهـا تسببت فى صدمـة بالغة لنا ويكتنفهـا غموض شديد، وكذلك لأنها تقول لنا الكثير ، إذا نظرنا إليها بعين الناقد، عن التيارات الجارية حاليًا فى عالم المسلمين . فإذا فرغنا من تناول مسألة إيران استطعنا أن نمضى على الطريق لمناقشة القضايا الأشمل التى تربط ما بين الإسلام والغرب فى هذه المرحلة الأخيرة .



الفصل الثانى

2

قصـــــة إيـران

أولاً: الحرب المقدسة :

أثارت إيران مشاعر غضب لا تزال متأججة فى صدور الأمريكيين ، أولاً بسبب الإستيلاء دون وجه حق على السفارة الأمريكية فى طهران وبأسلوب مهين إلى حد بعيد ، وهى التى احتلها الطلاب الإيرانيون فى ٤ نوفمبر ١٩٧٩ ، وثانيًا بسبب اهتمام أجهزة الإعلام بالحادثة وتركيزها الشديد عليها ووصف تفاصيلها بدرجة لا تكاد تصدق من الدقة . فمعرفة المرء أن الدبلوماسيين الذين يمثلون بلادهم محتجزون وأن الأمريكيين عاجزون عن تخليص أنفسهم ، أمر يختلف تمامًا عن مشاهدة ذلك أثناء وقوعه ليلة بعد ليلة على شاشات التليفزيون فى ساعة الذروة. ولكننا وصلنا إلى المرحلة التى نحتاج فيها ، فى رأيى ، إلى وضع تقييم نقدى لمعنى ما يشار إليه الآن بتعبير ''قصة إيران''

حتى نـتفهم حـضورها فى الوعى الأمـريكى ، بأسلوب عـقلانى ودون انفعال ، خـصوصًا لأن نسبة تبلغ نحـو تسعين فى المائة من الأمريكيين قـد عرفت ما تعـرفه عن إيران فى الآونة الأخـيرة عن طريق الراديو والتليفـزيون والصحف . إننا لا نستطيع مهـما نفعل تخفيف الإحـساس بالغضب الشديد وبالجـرح الذى أصابنا بسبب احـتجـاز الرهائن الأمـريكيين ، ولا بالاضطراب الذى أدت إليـه الصراعات الدائرة فى العالم الإسلامى ، ولكننى أرى أن علينا أن نشعر بالامـتنان لأن الولايات المتحدة لم تلجأ إلى استعـمال القوة المسلحـة إلا فـى مناسـبـة واحـدة . وعلى أية حـــال، علينا أن نستـعرض موقـع إيران فى عيون الأمـريكيين ، فى السيـاق العام لعلاقـات الولايات المتحدة والبلـدان الغربية بالعـالم الإسلامى ، لنرى الصـورة التى ظهرت وتظهـر إيران بها ، وكـيـف قدمتـهـا

أجهـزة الإعلام ، حرفيًـا ، وأعادت تقديمها إلى الأمـريكيين يومًا بعد يوم.

بدأت إيران تشغل جانبًـا كبيرًا من نشرات الأنبـاء المسائية فى الشبكات الإعـلامية فـور احتلال السفـارة . وعلى امتداد شـهور متعاقبة خصصت شركة **إيه بى سى** برنامجًا تليفزيونيا يوميًا خاصًا يذاع فى وقت متأخر من المساء بعنوان **احتجاز أمريكا رهينة** وقدم برنامج **تقرير ماكنيل / ليرار** الذى تقدمه هيئـة الإذاعة العامة (بى بى إس) **عددًا من الحلقات** لم يسبق لهـا مثيل عن الأزمة . وعلى امتداد شهور ظل وولتر كرونكايت يضيف إلى عبارته المميزة ('هذا هو الواقع') عبارة تذكر المشاهدين بعدد الأيام التى قضاها الرهائن فى الحجـز ، مثل "اليوم السـابع بعد المائتين" وهلم جرًا . وفى غضون أسبوعين تقريبًا أصبح هودنج كارتر ، المتحدث باسم وزارة الخارجـية فى تلك الأثناء ، يعامل مـعاملة النجوم ، ومن ناحـية أخـرى ، لم يكثـر ظهور وزير الخـارجـية سـايرس ڤـانس ، ولا مستـشار الأمن القومى زبيجنيو برزنسكى ، حـتى وقعت المحاولة الفـاشلة لإنقاذ الرهائن فى أواخـر إبريل ١٩٨٠ . وكانـت إذاعة المقابلات التليفزيونية مع أبو الحسن بنى صدر ، ومع صادق قطب زاده ، ومع آباء الرهائن ، تعرض بالتناوب مع مـشاهد المظاهرات الإيرانية ، والدروس التى لا تـستغـرق إلا ثلاث دقائق عن تاريخ الإسلام ، والنشرات الطبية الصادرة من مـستشفى الشاه السابق ، وأوجه المعلقين والخبراء المتجهمة وهم يحلّلون ، ويتأملون الموقف،

ويتناظرون، ويخـطبـون ، ويقـدمـون النظريات ، ويقـتـرحـون الإجراءات اللازمة ، ويحدسون تفسيرات الأحداث فى المستقبل ، والاتجاهات النفسية ، والخطوات السوفييتية ، وردود الفعل المتوقعة من المسلمين ، ومع ذلك ظل الأمريكيون الذين يربو عددهم على الخمسين فى محبسهم .

واتضح خـلال تلك الفتـرة أن الإيرانيين كـانوا يستـخدمـون أجـهزة الإعـلام لما يرون أنه فى صـالحـهم ، وهو الرأى الذى لم يفت قطعًا شـبكات وكالات الأنبـاء . فكثيرًا مـا كان الطلاب فى السفارة يحددون مواقيت "الأحداث" حتى تدرك آخر موعد لبثها بالأقمار الصناعـية ، ويمكن إدراجها فى نشرات الأنـباء الليلية فى الولايات المتحـدة . وكان المسئـولون الإيرانيون يشـيرون من وقت لآخر إلـى أنهم يعتـزمون بذلك تحـريض الشعب الأمـريكى على معارضة سـياسة حكومته . ولقد كان ذلك سـوء تقدير خطير فى البداية . ولكن هذا أتى فى وقت لاحق بتأثيـر غريب ، ومرغوب فيـه إلى حد مـا ، وهو حث أجهـزة الإعلام على اتخـاذ موقف التحـقيق الصادق فى الأمر . ولكـننى أريد أن أناقش هنا الصورة الذى ظهرت بهـا إيران للأمريكيين فى أشد فتـرات الأزمة توترًا ، وأما الجـانب الآخـر للقصـة فأضعـه فى المرتبة الثانوية لما اهتممت به هنا .

كان جـانب كبـير من الأخـبار المثـيرة التى حـفل بها العـقد المنصرم، علـى نحو ما ذكـرت فى الفصل الأول ، وهى الأخـبار

التى لا تقتصر على إيران بل تشمل الصراع العربى الإسرائيلى ، والنفط ، وأفغانستان ، أخبارًا عما يسمى ''الإسلام'' . ولم يبرز ذلك بصورة أوضح من الصورة التى برز بها فى أثناء الأزمة الإيرانية المديدة ، إذ قدمت أجهزة الإعلام إلى الأمريكيين الذين يتابعون الأنباء غذاء متواصلاً من المعلومات عن شعب معين ، وثقافة معينة ، ودين معين - وإن لم تزد تلك ' المعلومات' عن تجريدات ساء تعريفها وساء فهمها إلى حد بعيد - فصورته دائمًا، فى حالة إيران ، فى صورة المناوئ الخطر المعادى لأمريكا .

أما ما جعل الأزمة الإيرانية مناسبة ممتازة لفحص أداء أجهزة الإعلام فهو ، على وجه الدقة ما جعلها مصدر هذه الآلام التى لها ما يبررها للكثير من الأمريكيين ، وأقصد طولها وأن ما أصبحت إيران ترمز له أصبح يمثل العلاقات الأمريكية بعالم المسلمين . ومع ذلك ، فأعتقد أن علينا أن نفحص بدقة ما ظهر واتضح ، فى الفترة الأولى التى امتدت شهرين أو ثلاثًا ، فى مواقف أجهزة الإعلام ، وفى قيامها بأعمال من شأنها ترسيخ هذه المواقف ، على الرغم من التحديات الجديدة ، والتغييرات والأزمات السياسية غير المسبوقة التى لابد للغرب أن يواجهها من الآن فصاعدًا . ومع ذلك ، ومع مرور الوقت ، بدأنا نلمح تغييرات معينة فى معالجة أجهزة الإعلام للأنباء ، وهى تغييرات تبعث بصفة عامة على التفاؤل أكثر مما شهدناه فى البداية .

لابد لمن يفحص الكم الهائل من المادة ' الإعلامية' التى أفرزتها أزمة الاستيلاء على السفارة الأمريكية فى طهران ، وعلى الأرجح أن قد تكون قد انفرجت عندما يظهر هذا الكتاب فى الأسواق ، أن تستوقفه عدة أمور مهمة ، أولها أن موقفنا ''نحن'' كان ، فيما يبدو ، موقف المحاصر ومعنا نظام الحياة السوية الديموقراطية العقلانية . وبعيدًا عنا ، فى مكان ما ، يوجد ''الإسلام'' بصفة عامة ، وقد استولى على أصحابه جنون نابع من ذواتهم يدفعهم إلى التلوّى هياجًا ، وهو ما يتجلى فى هذه اللحظة فى إيران المصابة باضطراب الأعصاب بصورة تدعو للقلق. فقد نشرت مجلة '**تايم**' فى برواز خاص كلمة موجزة عن الإسلام الشيعى فى إيران بعنوان ''أيديولوجية الاستشهاد'' ، فى عددها الصادر فى ٢٦ نوفمبر ، وفى اليوم نفسه نشرت مجلة **نيوزويك** صفحة كاملة عنوانها ''عقدة الاستشهاد عند إيران'' فكأنما كانت تنقل ما تقول من المصدر نفسه .

ويبدو أن الأدلة على ذلك كانت متوافرة بكثرة . ففى يوم ٧ نوفمبر نشرت صحيفة **سانت لويس بوست دسپاتش** محضر حلقة العمل التى عقدت فى مدينة سانت لويس حول إيران والخليج العربى ، جاء فيه أن أحد الخبراء قال ''إن ضياع إيران ، بقيام شكل من أشكال الحكومة الإسلامية ، يعتبر أكبر نكسة واجهتها الولايات المتحدة فى الأعوام الأخيرة'' . وبتعبير آخر ، يعتبر الإسلام، تعريفًا ، معاديًا لمصالح الولايات المتحدة . ونشرت

صحيفة **وول ستريت جورنال** فى ٢٠ نوفمبر مقالاً افتتاحيًّا تقول فيه إن ''انحسار الحضارة'' يرجع ''بدايةً إلى تدهور القوى الغربية التى كانت تنشر هذه المثل العليا [للحضارة]'' ، فكأنما كان عدم الانتماء إلى الغرب – وهو مصير معظم سكان العالم ، ومن بينهم المسلمون – معناه الافتقار إلى أية مثل عليا للحضارة . وعندما سأل أحد المذيعين بمحطة إيه بى سى ، يوم ٢١ نوفمبر ، الأستاذ ج. سى. هوريفيتس ، من جامعة كولمبيا ، إذا ما كان اعتناق الإسلام الشيعى يعنى ''العداء لأمريكا'' رد الأستاذ عليه بالإيجاب القاطع .

وكان جميع كبار معلقى التليفزيون ، ومن أهمهم وولتر كرونكايت (محطة إذاعة كولمبيا) وفرانك رينولدز (محطة إيه بى سى) ، يتحدثون بانتظام عن ''كراهية المسلمين لهذا البلد'' أو ، بألفاظ أكثر شاعرية ، عن ''هلال الأزمة ، ذلك الإعصار الدوار فوق المروج'' (رينولدز إيه بى سى ، ٢١ نوفمبر) . وفى مناسبة أخرى جاء صوت رينولدز المصاحب لصورة مظاهرة تهتف ''الله أكبر'' وهو يقول ما يفترض أنه المقصد الحقيقى للجمهور ''كراهية أمريكا'' . وجاء فى البرنامج بعد ذلك من يخبرنا أن النبى محمد، عليه الصلاة والسلام ، ''هو الذى قال إنه نبى'' ، (ألم يقل كل نبى قبله إنه نبى ؟) ويذكرنا بعد ذلك بأن تعبير ''آية الله'' ''لقب من ابتداع صاحبه فى القرن العشرين'' وأن معناه هو ''صورة الله'' (ويفتقر هذا وذاك ، للأسف ، إلى الدقة الكاملة) .

أما الدرس القصير فى الإسلام (ثلاث دقائق) فقدمته حطة إيه بى سى ، وقد قدمته فى موقع أصحابه الذين لا يكادون يستحقون الظهور فى الصورة ، وقد أفتى كل منهم بالفتوى البغيضة نفسها وهى أن رد الفعل الصحيح على " الإسلام" هو الاستياء والاستراية والاحتقار ، وينطبق ذلك على "الديانة المحمدية" ، ومكة ، والحجاب ، والشادور ، والسُّنّى والشيعى (وكانت الصور المصاحبة للدرس تصور بعض الشبان الذين يدقون صدورهم) والمُلاّ وآية الله الخومينى ، وإيران . وتحولت عدسة البرنامج بعد هذه الصور مباشرة إلى مدينة جيمزفل ، بولاية ويسكونسن ، حيث يقوم بعض التلاميذ الصغار العقلاء والذين يدعون إلى الإعجاب - فليس بينهم محجبات أو من يدق الصدر أو فقهاء - بتنظيم احتفال وطنى للتعبير عن "الوحدة" .

"الإسلام المجاهد : الإعصار التاريخى" - هذا ما أعلنته مجلة الأحد المصاحبة لصحيفة **نيويورك تايمز** يوم ٦ يناير ١٩٨٠ ، وأما مايكل وولترز فكتب مقالاً بعنوان "الانفجار الإسلامى" فى صحيفة **نيو ريببلك** يوم ٨ ديسمبر . وقد حاول المقالان ، شأنهما فى ذلك شأن غيرهما ، إثبات أمور لا تقتصر على أن الإسلام كيان لا يتغير وأننا نستطيع أن نفهمه ، علاوة على التنوع الشديد فى التاريخ والجغرافيا والهيكل الاجتماعى والثقافة الخاصة بأربعين أمة إسلامية وما يقرب من ٨٠٠٠٠٠٠٠٠ مسلم يعيشون فى آسيا وإفريقيا وأوروبا وأمريكا الشمالية (بالإضافة إلى ملايين كثيرة

فى الاتحاد السوفييتى والصين) ، بل تتعدى ذلك إلى "الكشف" - بتعبيـر وولتزر - عن أنه حيثما ارتكب القـتل ، ونشبت الحرب ، واندلع الصراع المديد الذى يجرنا إلى بشاعات رهيبة "فالواضح أن الإسلام قد لعب فى ذلك دورًا مهمًا" . ولم يكترث أحد ، فيما يبدو، لتجـاهل قواعد الأدلة المعمول بـها عادة، أو بأن الكاتب لا يعرف اللغـات ولا المجتمـعات التى يتحـدث عنها، أو بأن المنطق السليم ينسحب خارجًا دون جلبة كلما حانت مناقشة "الإسلام". وأما مقالة **نيو ريبـبلك** الافتتـاحية فقد اخـتزلت إيران فى صورة "العـاطفة الدينـية المكبـوتة التى انطلقت فى هيـاج" وإلى صورة "الإسلام المستقتل" وقدمت كلامًا يوحى بالعلم والمعرفة عما تقوله الشريعة الإسلاميـة بشأن التجسس ، وحق المرور الآمن (فى أرض الغير) وما شابه ذلك . وقد دعم ذلك كلُّه الحجة الرئيسيةَ وهى أنه إذا كان الإسلام فى حرب معنا فالأفضل لنا أن ننزل الحلبه وعيوننا مفتوحة .

وقد لجأت جهات أخرى إلى وسائل أشد دهاءً وخفاءً لإلصاق الجرائم "بالإسلام" مما لجأت إليه **نيو ريببلك** ، ويتمثل أحدها فى إحضـار خبير لمواجـهة الجمهـور وجعله يقول إن الخومـينى قد لا يكون فى الحقـيقة "ممثلاً لرجـال الدين الإسلامى". (وكان هذا الخبـير هو ل. دين براون ، السفـير الأمريـكى السابق فى الأردن والمبعـوث الأمريكى الخاص إلى لبنان ، والذى يعمل الآن رئـيسًا لمعهد الشرق الأوسط ، وكان يتحدث إلى برنامج **تقرير ماكنيل /**

ليرو يوم ١٦ نوفمبر) ثم يضيف بعد ذلك أن المُلاّ "المدرّع" يمثل نكوصًا إلى عصر إسلامى أقدم (والواضح أنه يتـميز بأصالة أكبر) وأن الجماهير الغوغائيـة فى طهران ذكّرت براون بأحداث نورمبرج (المعادية لليهود) تمامًا مثلما كانت المظاهرات فى الطرقات أدلة على "أن السيـرك هو وسيلـة التسليـة الرئيسـية" التى يقدمـها الحكام المستبدون فى العادة .

ومن الوسائل الأخرى الإيحاء بأن ثمة خـيوطًا خفيّة تربط ما بين شتى الجوانب الأخرى للحياة فى الشرق الأوسط وبين الإسلام الإيرانى ، ثم إدانة هذا وذاك جمـيعًا ، وقـد يكون ذلك ضمنًا أو صراحـةً وفقًا لكل حـالة على حدة . فعندمـا قام عضـو مجلس الشيـوخ السـابق جيمـز أبو رزق بزيارة طهران ، صـاحب الإعلانَ عن الزيارة فى محطتى إيه بى سى وإذاعـة كولمبيا التـذكيرُ بأن أبو رزق ينحدر "من أصول لبنانية" . ولكن أحدًا لم يشر مطلقًا إلى الخلفية الدانمركية لعضو مجلس النواب چورج هانسن ، أو إلى أن أسلاف رمزى كلارك من أصول أنجلوسكسونية بروتستانتية . ولكن رجال الإعلام رأوا أهميـة ما فى الإيحاء بوصمة إسلاميـة غامضة تشوب ماضى أبو رزق ، على الرغم من أصوله المسيحية اللبنانية. ويتصـل بـهذا استـخدام صور زائفـة لبعض ' الشيوخ' العرب للتمويه فى قضية أبسكام) .

وأما أشد ضـروب استخدام الإيحـاء صفاقةً فـقد بدأت بمقال قصير نشرتـه صحيفة **أتلانتا كـونستيتـيوشن** فى صفحتها الأولى

(بتاريخ ٨ نوفمبر) ويزعم فيه دانييل ب. دروز أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت من وراء الاستيلاء على السفارة . وأما مصادره فكانت ، كما يقول ، سلطات "الاستخبارات الدبلوماسية والأوروبية" . وقال جورج بول ، بلهجة من ينطق بالحكَم والأمثال ، في مجلة **واشنطن بوست** يوم ٩ ديسمبر "إن ثمة أساسًا للاعتقاد بأن بعض الماركسيين الذين أجيد تدريبهم هم الذين ينظمون هذه العملية كلها" وفي ١٠ ديسمبر أذاعت محطة إن بي سي في برنامج يسمى "**توداي شو**" مقابلةً مع عاموس بيرليموتر ، وهاسي كارميل ، وقالت إن الأول "أستاذ في جامعة أمريكية" والثاني "مراسل مجلة **الاكسبريس** الأسبوعية الباريسية" (بصفة أساسية) والحقيقة أن الرجلين إسرائيليان . وسألهما روبرت أبيرنيثي عما زعماه بشأن "تلاقي مصالح" الاتحاد السوفييتي ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، و"الأصوليين" المسلمين في إيران . وكان سؤاله هو : هل صحيحٌ أن هذه القوى الثلاث شاركت **فعليًا** في عملية احتلال السفارة ؟ وأجابا بالنفي بعد تردد طفيف ثم عادا إلى الإشارة إلى توافق المصالح وتلاقيها . وعندما قال أبيرنيثي بأسلوبه المهذب إن ما يقولانه يوحي بأنه محاولات إسرائيلية "لتلطيخ سمعة منظمة التحرير الفلسطينية" اعترض الأستاذ بيرليموتر بغضب ، قائلاً إن رائده فيما يصدر عنه هو "الأمانة الفكرية" الجليلة !

وأبت محطة إذاعة كولمبيا أن يتفوق عليها أحد في هذه

المزايدات فقدمت فى نشـرة أنبائها الأخيرة (واسـمها **نايتلى نيوز**) يوم ١٢ ديسمبر مسئولاً من وزارة الخارجية الأمريكية يدعى مارفن كـولب ، فإذا به يسـتشـهد (دون تحـديد أسـماء) بنفس المصـادر ''الدبلوماسـية والاستخـبارية'' التى كان دروز قد أشار إليها قبل شـهـر كـامل ، وإذا به يؤكـد من جـديد أن منظمـة التحـرير الفلسطينية، والأصوليين الإسلاميين، والاتحاد السوفييتى قد تعاونوا فى العملية . وقال كولب إن رجـال منظمة التحرير الفلسطينية هم الذين وضعوا الألغام فى المجمع، ثم واصل حديثه ، قائلاً بلهجة الحكيم الحصيف ، إن هذا قد تأكد بفضل ''أصوات اللغة العربية'' التى سُمعت داخل السفارة . (ونشرت صحيفة **لوس أنجيليس تايمز** فى اليوم التالى موجزًا ''للقصة'' التى رواها كولب). ولم يبق إلا أن تأتى شخـصية بارزة ، أى كونسـتانتين منجيـز ، الخبير بمعـهد هدسون ، لترديد هذه الأطروحة نفسها ، أوّلاً فى عدد ١٥ مارس ١٩٧٩ من **نيو ريبـبلك** ، وبعد ذلك ، مـرتين فى برنامج **تقرير ماكنيـل/ ليرار** . ولم تزد الأدلة عن ذلك ، إلا بطبيـعة الحال ، تكرار الإشارة إلى الشيوعـية الجهنمية المتحالفة بصـورة طبيعية مع 'شياطين' منظمة التحرير الفلسطينية و'أبالسة المسلمين' . (ونحن ندهش لامتناع ماكـنيل وليرار عن دعوة منجيز للـعودة حتى يعلق على غزو الاتحاد السوفييتى لأفغانستـان أو على الانتقاد الإيرانى الرسمى لهذا الغزو) .

''حيثما وجدت الشـيعة وجدت المتاعب'' - هذا ما أفتى به

دانييل ب. دروز فى صحيفة **أتلانتا جورنال - كونستيتيوشن** يوم ٢٩ نوفمبر ، وهو يشبه ما قالت به **نيويورك تايمز** ، وتحت عنوان أصغر ، وبألفاظ أشد تعقلاً ، يوم ١٨ نوفمبر ، "كان الاستيلاء على السفارة يرتبط بعاملين : موافقة الشيعة على السلطة وغضبهم لمسألة الشاه" . ولم يمض أسبوع على احتلال السفارة يوم ٤ نوفمبر حتى انتشرت صور الخومينى المتجهم ، والتى لا تُغيّر مطلقًا ما يُفترض أن تقوله لمن يطّلع عليها ، مثلما انتشرت الصور لا تنتهى للجماهير الإيرانية الغوغائية . وأصبح قيام الأمريكيين الغاضبين بإحراق الأعلام الإيرانية (وبيعها) من وسائل التسلية المعتادة ، وتولّت الصحف بإخلاص نقل أنباء هذا اللون من ألوان الوطنية . كما تواترت أنباء لها طرافتها تدل على الخلط فى أذهان الجماهير بين العرب والإيرانيين ، مثل النبأ الذى نشرته صحيفة **بوسطن جلوب** يوم ١٠ نوفمبر عن مظاهرة غاضبة فى مدينة سبرنجفيلد تردد هتافات تقول "عودوا إلى أوطانكم أيها العرب".
وانتشرت التحقيقات الصحفية الخاصة فى كل مكان عن الإسلام الشيعى ، وإن كان من المدهش ألا تتعرض إلا مقالات محدودة نسبيًا لتاريخ إيران **الحديث** ، أو تشير إلى المقاومة السياسية ذات الأهمية الفريدة التى أبداها رجال الدين الإيرانيون للتدخل الأجنبى وللحكم الملكى منذ أواخر القرن الثامن عشر ، أو تبحث قدرة الخومينى على إسقاط الشاه والانتصار على جيش لم يهزم فى حرب من قبل ، وكان أهم ما توسل به الخومينى فى ذلك الأشرطة الإذاعية وجماهير الشعب العزلاء إلى حد كبير .

وربما وجدنا دلالة رمزية ما لعجز وولتر كرونكايت عن النطق الصحيح بالأسماء فلقد كان اسم قطب زاده يتغير فى كل مرة يُنطق فيها تقريبًا ، وعادة ما كان يقرب من "جابوزاداى" (وفى ٢٨ نوفمبر أطلقت محطة إذاعة كولمبيا على بهشتى اسم "بشاتى" ، وأرادت محطة إيه بى سى الانضمام إلى الركب فغيرت - فى ٨ ديسمبر - اسم منتصرى إلى " منتسورى"). وكانت كل "كبسولة" تاريخية عن الإسلام ، تقريبًا ، تتسم بدرجة من الخلط تهبط بها إلى مستوى الهراء ، أو تفتقر إلى الدقة إلى الحد الذى يجعلها تثير الرعب . خذ مثلاً ما جاء فى الحديث عن الإسلام الذى ورد فى برنامج محطة إذاعة كولومبيا **"نايتلى نيوز"** يوم ٢ نوفمبر ، إذ جاء فى حديث راندى دانييلز عن شهر المحرم أنه الفترة التى يحتفل فيها المسلمون الشيعة "بتحدى محمد لزعماء العالم" ، وهو قول يهبط الخطأ به إلى مستوى السخف والسفه ، فشهر المحرم من الشهور الهجرية ، والمسلمون الشيعة يحيون ذكرى استشهاد الحسين بن علي ﷺ فى العشرة الأوائل من هذا الشهر . وقيل لنا بعد ذلك إن الشيعة يعانون من عقدة الاضطهاد، ولذلك "فلا غرو أن يخرج من بينهم خومينى" ، وكان مما يبعث على الاطمئنان ، وإن كان لا يقل تضليلاً ، أن يقال لنا إنه لا يمثل الإسلام كله . وقد أجرى البرنامج نفسه معى مقابلة للإفادة من 'حكمتى' وأخطأ المذيع فى تعريف الجمهور بى إذ وصفنى بأننى أستاذ للدراسات الإسلامية . وفى ٢٧ نوفمبر قال أحد مراسلى

المحطة إن إيران كلها تعانى من "صداع خمر الثورة" فكأنما كانت إيران هى المكّير الأول .

ولكن القوة التى "تحتجز أمريكا رهينة" لم تبرز كآبتها الحقيقية إلا حين تصدت صحيفة **نيويورك تايمز** للحديث عن الإسلام ، فمارست أقصى سلطان لها باعتبارها صحيفة النخبة المثقفة . ولكن الصورة التى رسمتها تلك الصحيفة للإسلام ترجع فى كثير من جوانبها إلى طابع الصحيفة نفسها . فلا يقتصر الأمر على كونها أولى وأهم الصحف الأمريكية ، إذ إننا إذا جمعنا بين الشمول الذى تتحلى به ، ومستوى الخبرة الرفيع فى نقل الأنباء ، والإحساس بالمسئولية ، وأهم من ذلك كله قدرتها على الكتابة بمصداقية من وجهة نظر الأمن القومى ، وجدنا أنها تتميز بقوة ذات ثقل فريد . وبعبارة أخرى ، تستطيع الصحيفة أن تكون موضع ثقة إذا تحدثت فى موضوع ما ، وأن تجعله يهم الأمة كلها فى الوقت نفسه : وهى تفعل ذلك عامدة ، وتنجح، فيما يبدو ، فى أدائه . وهكذا يقول هاريسون سولزبرى فى مذكراته إن الرئيس كيندى قال فى ربيع ١٩٦١ للصحفى تيرنر كتليدج ، المحرر فى **التايمز** ، إن الصحيفة لو نشرت المزيد من التفاصيل عن الغزو الوشيك لخليج الخنازير فى كوبا (وهى التفاصيل التى جمعتها الصحيفة بنفسها) "لأنقذتنا من ارتكاب خطأ فاحش" [١] . ويقول سولزبرى إنه لم يدرك أحد ، بعد حادثة خليج الخنازير ، لا فى الصحيفة ولا فى العالم ، أن ما كتبه تاد زولك عن الحادثة لم

يكن يمثل عمـلاً استـثنائيًا ، بل وأن إنجاز الصـحيفـة كله لم يكن خارجًا عن المألوف هو الآخر ، بل لقد كان أمرًا معتادًا فى الواقع . كانت **التايمز** قد أصبحت مؤسسة ذات قوة فذة ، وأصبحت تمارس عملها بسـلطانٍ عُمره يقارب عمـرَ الأمة نفسهـا . وهاك ما يقوله سولزبرى :

كانت **التـايمز** قـد وصلت آنذاك إلى مـستـوى الكتلة الحـرجة، بلـغة الفـيـزياء ، لا من حيـث عدد القـراء والمعلنين ، وإن كـان هذا وثيق الصـلة بذلك ، بل من حيث مـستوى العمل الصـحفى والخبرة . فلقـد كانت تقوم فعليا بالتغطية الإعلامية للعالم، وتغطية واشنطن، والأمة ، والمدينة ، بالعـاملين فيها من رجـال ونساء ، ولم يكن عملهم يقـتصر على المشاوير الصحـفية ، بل كـانوا أفضل المـراسلين والمحررين الذين يمـكن العثـور عليهم . وقد تجمعوا فى **التايمز** لا من أجل المكافأة المالية فقط ، فجدول الأجور فى **التايمز** لا بأس به . لكنه لم يكن بالغ الجاذبيـة فى يوم من الأيام . ولكنهم تجمـعوا لأن **التايمز** كانت تمثل مـجالاً فريدًا لممـارسة الإبداع فى نقل الأخـبار وتحريرهـا . ولم يكن يضارع الصـحيـفةَ جهازٌ إعلامى آخر فى مستوى الأداء المهنى والاحتراف وكانت الكتلة الحـرجة من الصحفـيين قد وصلت آنذاك [أى بعد حادثة خليج الخنازير] إلى مـستوى رفيع ، من

حيث الكمّ والكيف ، حتى إنها كانت تمارس عملها دون الوعى بأى توجيه . كان رجال **التايمز** ينتشرون فى أرجاء العالم كله ، وقرون الاستشعار الإخبارية حساسة مشرعة ، يبحثون وينقبون ويطرحون الأسئلة[٢] .

وهكذا ، جاء الوقت الذى أصبحت فيه ممارسة السلطة الحاسمة تمثل المهمة الجماعية للصحيفة ، وكان المراسلون يؤدون عملهم الصحفى بما تمليه العادة عليهم ، على نحوٍ ما ، "دون الوعى بأى توجيه" . وفى عام ١٩٧١ ، عندما بدأت **التايمز** تنشر أوراق البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) كانت قد مرت مائة عام على نجاحها فى الإطاحة بعصابة 'الريّس تويد' (وليام مارسى تويد ١٨٢٣ - ١٨٧٨) فى تامانى هول (المقر المحلىّ للحزب الديموقراطى) بنشرها الوثائق الحكومية ذات الصلة بالقضية . وها هى تعود الآن ، حسبما يقول سولزبرى ، لتتجاوز القانون بما تتحلى به من بصيرة معنوية نفاذة أصبحت مضرب الأمثال ، فى سبيل المصلحة القومية[٣] ، وتبين للجميع قدرتها على أن تكشف الحقيقة وتدفع الحكومات إلى العمل . صحيح أن نجاحها المالى ، فى ظل مدير تحريرها الأخير أ. م. روزنتال ، جاء نتيجة إضافة أبواب جديدة مثل باب "المنزل" وباب " المعيشة" إلى الطبعة اليومية ، ولكن الدخل الإضافى مكّنها من التوسع فى نقل الأنباء الخارجية أيضًا :

أتاحت الأبواب الجديدة للصحيفة بعض الموارد المالية التى هيأت لها موقعًا منيعًا ، تقريبًا ، فى الوقت الذى كانت فيه صحيفتا **نيوز** و**بوست** تتعثران . وهكذا وبخلاف أى صحيفة أخرى فى البلد ، كانت **التايمز** تستطيع أن تنفق ٣٠٠٠٠ دولار فى الشهر ، وربما ٥٠٠٠٠ دولار فى الشهر، إلى جانب الرواتب والموظفين ، على التغطية الإعلامية لسقوط إيران : كانت النقود جاهزة، دون التسبب فى ضائقة مالية[٤].

وفى آخر العام الذى " سقطت" فيه إيران ، بدأت **التايمز** تلتفت أخيرًا إلى الإسلام . ففى ١١ ديسمبر خصصت الصحيفة صفحتين كاملتين لنشر ندوة عنوانها "الانفجار فى عالم المسلمين". وكان من بين المشاركين السبعة ، ثلاثة باحثين من العالم الإسلامى ، يقيمون ويعملون فى الولايات المتحدة ، وكان الأربعة الآخرون من الخبراء البارزين فى التاريخ الحديث للعالم الإسلامى وثقافته ومجتمعاته ، وكانت جميع المسائل التى طُلب إليهم أن يناقشوها مسائل سياسية ، وكانت جميعًا تتعرض لتهديد الإسلام للمصالح الأمريكية . وكان الخبراء يحاولون هنا وهناك أن يناقشوا العالم الإسلامى كما لو كان الماضى فيه يختلف من بقعة إلى بقعة ، شأنه شأن التحولات السياسية وضروب المسلمين أنفسهم ، ولكن هذه المحاولات كانت تتلاشى أمام قوة بعض الأسئلة ، مثل السؤال التالى : "إذا كنا اكتسبنا هذه الصورة

الشيطانية فى أعين الكثيرين من المسلمين فى هذه اللحظة ، فكيف ينبغى لنا التعامل مع من نحس بالتآلف معه من القوى والزعماء والحكومات ؟ يأتى بازرجان ويصافح برزنسكى فينتهى ويمضى . وبنى صدر يقول إنه يريد أن يأتى إلى نيويورك فتكون فى هذا نهايته . هل نستطيع أن نتعلم درسًا ما فى التعامل مع النظم الأخرى ؟ هل فى هذا درس فى ضبط النفس أم ماذا ؟'' والواضح أن **التايمز** أحست أنها تتجه بذلك إلى المنبع ، فإذا كان المسلمون يخضعون ''لحكم'' الإسلام ، فعليك أن تستجوب الإسلام وجهًا لوجه . والطريف هنا هو أن الخبراء كانوا يحاولون تقسيم ''الإسلام'' إلى أهم العناصر التى يتكون منها ، **والتايمز** تعيد تجميع هذه العناصر وبناءها فى قوى عامة ، إما أن تكون ''معادية'' لمصالح الولايات المتحدة أو ''صديقة'' لها . وكانت النتيجة التى خلص إليها الحوار فى الندوة هى السخط والانزعاج ، إذ إن آخر مجموعة من المسائل التى طرحتها **التايمز** قد أوحت بوضوح بأن الاقناع والمنطق لن يكتب لهما النجاح ، ومن ثم فقد يلزم استخدام القوة باعتبارها الملاذ الأخير .

وقد انقشعت الشكوك التى تكتنف ما عسانا ''نحن'' أن نراه فى الإسلام عندما نشرت ''**التايمز**'' فى الأيام الأربعة الأخيرة من عام ١٩٧٩ سلسلة من أربع مقالات طويلة بقلم فلورا لويس ، تحاول فيها جميعًا أن تعالج موضوع ''أزمة الإسلام'' (''فورة الإسلام'' - ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ديسمبر) . وتتسم مقالاتها

ببعض السمات المتازة ، مثل نجاحها فى تصوير مدى التعقيد والتنوع فى عالم الإسلام ، ولكنها تتضمن نقاط ضعف خطيرة أيضًا ، يكمن معظمها فى جوهر النظرة المفترضة إلى الإسلام اليوم، إذ لم تقتصر فلورا لويس على الحديث عن الإسلام وحده ودون غيره فى الشرق الأوسط (فهى لا تكاد تذكر "الثورة" المماثلة فى اليهودية ، أو فى المسيحية فى مصر ولبنان) بل تنطلق إلى إصدار بعض الأحكام ، خصوصًا فى المقالة الثالثة ، عن اللغة العربية (مستشهدة بآراء الخبراء التى تقول إن الشعر العربى "طنّان وخطابىّ ، وليس حميم النبرة فردىّ المشاعر") وعن الذهن الإسلامى (قائلة إنه يعجز عن "التدرج فى التفكير") وهذه من الأحكام التى قد تعتبر عنصرية أو من قبيل الهراء إذا أطلقت على أى لغة أخرى ، أو على أى دين آخر ، أو على جماعة عرقية أخرى . وهى تكثر من الاستشهاد بأقوال لبعض المستشرقين الذين سبق لهم الإفصاح عن آرائهم العامة . فقد اقْتَطَفَتْ بعضَ أقوال إيلى قدورى الذى نشر فى أواخر ١٩٧٩ دراسة عن الثورة الإسلامية يحاول أن يبين فيها أنها معادلة للماركسية اللينينية[٥] ، واسْتَشْهَدَتْ بقوله إن "الفوضى فى شرق عميقة ومستوطنة" واقتطفت أقوال برنارد لويس (وهو ليس من أقربائها) الذى كان قد أعلن "نهاية حرية التأمل والبحث" فى العالم الإسلامى ، ومن المرجح أن يكون ذلك نتيجة لعلم التوحيد الإسلامى " الجامد" والقائم فى رأيه على "النظرة الجبرية ، والعَرَضيّة ، والتسلطية" .

ومن المحال أن يخرج أحد بنظرة متسقة للإسلام من قراءة مقالات فلورا لويس ، فإن هرولتها ما بين المصادر وعدم إلمامها بالموضوع يوحيان للقراء بطائر جارح يحاول اصطياد صيد متفرق مشتت : إذ كيف يلم المرء بأحوال عدة مئات من الملايين الذين ينطقون بكلمات "أقرب إلى التعبير عن الأمانى منها إلى تبيان الحقائق" ؟ (قارن بهذا ما نشرته صحيفة **أتلانتا كونستيتيوشن** يوم ١٩ نوفمبر عن "الطابع المراوغ للغة الفارسية واستعصاء دلالاتها الدقيقة") . ولكن الكاتبة قد حققت مقصدها من الحديث عن الإسلام على أى حال ، فحتى لو لم يكن "الإسلام" واضحًا على الإطلاق ، فلا شك فى وضوح مواقفنا "نحن" إزاءه (أو قل ما لنا الحق كل الحق فى مساندته من المواقف) .

وقد نشرت مجلة **إسكواير** فى عدد مايو ١٩٨٠ مقابلة مع فلورا لويس ، تكشف فيها ، ربما دون قصد ، عن الافتراضات التى كانت لديها وما دفعتها عليه من أعمال أثمرت تلك المقالات عن الإسلام . وأما 'الترقيع' الذى اتسم به نقلها الأنباء ، وطابع العجلة والسرعة فيه ، فيوحيان بأن صحيفة **التايمز** تستطيع أن تنجو من اللوم لأن الإسلام هو الإسلام و**التايمز** هى **التايمز** . وفيما يلى نص ما قالته (ولاحظ اللهجة 'غير الرسمية' التى تشى بموقع الثقة والسلطة فيما توحى به عبارة "لا يدرى أحد ما يجرى الآن فى الإسلام") :

منذ بضعـة أشهر ، علـى سبيل المثـال ، شاركت فى القيام بمشـروع أبعاده هائلة مذهلة . إذ كانـت نيويورك قد كلفتنى لتوها بالقـيام بهذه المهمة الخاصـة فى المعمعة داخل العالم الإسلامى . كانوا قد عقـدوا اجتماعًا فى نيويورك ، وقال فيـه أحدهم : "يالله ! لا أحد يدرى مـا يجرى الآن فى الإسـلام . فلنرسل فلورا" . وهكذا اسـتـدعـونى ، وذهبت . كان ذلك من قبيل الجنون . ولم أكن واثقة حتى من أسلوب استخدام المادة التى سأجمعها .

وكان علىّ أن أنتهى من الترتيبات بسرعة محمومة حتى أتأكد من مقابلة من أريد قـبل السفر ، ولم أستطع الذهاب إلى أى مكان أو المكوث فى أى مكان لمدة ثلاثة أيام .

بدأت رحـلتـى فى باريـس ولندن . ثـم ذهبـت إلى القاهرة ، **فهى مقر الجـامعة الإسلامية الحقة** ، وكذلك إلى الجزائـر وتونس . وعدت أحـمل عشـرين كراسًـا وأوراقًا وزنها عشرون رطلاً وجلست لأكتب .

وكانت مـزية هذا ، بطبيعـة الحال ، أننى أتعلم شيـئًا جديدًا . اذكرْ طلب العلم مدى الحياة ، وسوف تقدم إليك **نيويورك تايمز** منحًا دراسية متوالية .

أنا دائمًـا ما أكتب التـحقـيقـات الصحـفية بنـفسى ، باستثناء واحد وهو عجزى عن الذهاب إلى مكان ما بسبب ضيق الوقت . فـمثـلاً ، فيمـا يتعلق بموضـوع الإسلام ،

كنت أحتاج إلى ملف ضخم إلى حد ما عن الفلبين . واتضح أن مكتب [أخبار] آسيا لا يستطيع تدبير أحد يقوم بإعداده لى - إذ كانوا غارقين حتى آذانهم فى أنباء الحرب فى كمبوديا والورطة فى جنوب كوريا والأزمة السياسية فى طوكيو - وهكذا كان على شخص آخر أن يقوم بتجميع المادة التى أريدها قبل مغادرتى نيويورك .

ويزداد الأمر وضوحًا إذا قارنّا بين التحقيقات الصحفية التى تغطى ''الإسلام'' فى **التايمز** وصحيفة **لوموند** الفرنسية . إذ إن **التايمز** جعلت فلورا لويس تقوم بإعداد التحقيق بسرعة ، فهى لا تناقش القضايا اللاهوتية والمعنوية الكبرى التى يناقشها الناس فى شتى أرجاء العالم الإسلامى (كيف يمكن للمرء أن يتحدث عن الإسلام اليوم ، ولا يشير ولو مرة واحدة إلى الصراع المحتدم بين أنصار الاجتهاد (أى التأويل الفردى) وأنصار التقليد (أى الاعتماد على تفاسير الثقات) باعتبارها من طرائق تفسير القرآن ؟) كما إنها لا تناقش أيضًا تاريخ وهياكل المدارس الإسلامية المختلفة التى تلهب نيران ''الفورة'' التى تحاول توثيقها ، ولكنها تستعيض عن ذلك بالاعتماد على مقتطفات عشوائية ، مقتبسة من أفواه من اختارتهم بأسلوب عشوائى ، وتستخدم الحكايات التى تحل فى تحقيقها محل التحليل ، بل إنها لا تقدم حتى الجوانب الحقيقية للحياة الإسلامية ، سواء كانت خاصة بالعقيدة ، أو بالمبادئ الميتافيزيقية ، أو بالسياسة .

من المفيد ، كما قلت ، مقارنة ما فعلته كبرى الصحف الأمريكية فى هذا الصدد بما نشرته كبرى الصحف الفرنسية ، إذ كانت **لوموند** ، **قبل هذا** التاريخ بعام كامل (فى ٦ ، ٧ ، ٨ ديسمبر ١٩٧٨) قد كلفت مكسيم رودنسون (وهو مستشرق ماركسى فرنسى بارز تقتطف فلورا لويس أقواله) بدراسة الظاهرة نفسها[٦] . ولن نجد اختلافًا يفوق الاختلاف بين هذين . فإن رودنسون يلم بالموضوع إلمامًا تامًا ، فهو يعرف اللغات ، ويعرف الدين ، ويفهم السياسة . ولا يعتمد على حكايات ، ولا على مقتطفات مثيرة ، ولا يقيم "التوازن" فى الاعتماد على الخبراء بالإسلام "المناصرين" أو "المعادين" ، بل يحاول أن يبين طبيعة القوى القائمة فى المجتمع الإسلامى ، وفى التاريخ الإسلامى ، والتى تضافرت مع 'التشكيلات' السياسية الحالية حتى أدت إلى الأزمة الراهنة . ومن ثم فهو يقدم لنا خبرة متكاملة ذات دلالة – عن الإمبريالية ، والصراع الطبقى، والنزاع الدينى ، والأخلاق الاجتماعية – وهى لا تبرز فى عمله فى صورة المواقف التى يعرضها 'لفائدة' قراء تعتريهم الشكوك والمخاوف .

ثانياً : فقدان إيران :

من المحتمل أن يلجـأ من تشبع بالأنباء السطحيـة التى يرويها الثرثارون عن إيران ، إلى طلب 'الخلاص' والبصيرة الصادقة فى البرنامج الذى تذيعه محطة الإذاعة العامة (التليفزيونية) كل ليلة ، وهو **تقرير مـاكنيل / ليرار** ، الذى يحظى بالتقـدير مثل **نيويورك تايمز** فى عالم الصحافة المطبوعة باعتباره صفوة البرامج وأرقاها فى دنيـا الصحـافة التليـفزيونيـة ، ومع ذلك فلقد وجـدتُ أن برامج ماكنـيل / ليرار لا تشـبع النهم إلى حد بعـيد ، سواء مـن حيث شكل التقديم الذى يتسم بالتقييد والروح المحافظة إلى درجة تدعو للدهشة ، أو من حيث اختيار الضيوف ونطاق المناقشة . ولنتناول الشكل أولاً . لمّا كان موضـوع البرنامج يتناول منطقة غيـر مألوفة من مناطق العالم ، وهى إيران ، فسوف يشعر المشاهد على الفور بالتفاوت الشـديد بين الجماهير الغـوغائية "هناك" وبين الضيوف الذين يراعون أدق أصول الهندام ، ويتسمون بالتوازن فيما بينهم، وإن كان يجمعهم مؤهل الخبرة ، وليس بالضرورة عمق البصيرة أو الفهم . ولا غبـار على محاولة تفهم موقف ما تفـهمًا عقلانيًا ، على نحو مـا يحاول البرنامج تحـقيقه ، ولكن الأسـئلة المطروحة على الضيـوف تدل بوضوح وجلاء على أن ماكنيل وليـرار ينزعان إلى طلب ما يدعم الحالة النفسـية السائدة فى البلاد ، أى الغضب الشديد من الإيرانـيين ، والتحليلات التى لا عـلاقة لهـا بالتاريخ لدوافع وسلوك الإيرانيين ، ومحاولات إجراء المناقشة بحيث تلائم

إطار الحرب الباردة أو نموذج "إدارة الأزمات" . وقد ظهر مؤشر عميق الدلالة على هذا فى برنامجين (أذيعا يومى ٢٨ ديسمبر و ٤ يناير) وكان الضيوف فيهما مجموعتين من رجال الدين المسيحى الأمريكيين الذين عادوا قبل مدة قصيرة من طهران، وتحدثوا فى البرنامجين عن تعاطفهم مع مشاعر الإيرانيين الذين عانوا ما عانوه من حكم الشاه المستبد الذى استمر خمسة وعشرين عامًا . وقد أعرب ليرار صراحة عن التشكك ، ولا أقول عن ريبته، فيما يقولان. وعندما ظهر وزير الخارجية آنذاك ، بنى صدر ، ومن خلفه فى المنصب ، وهو قطب زاده (٢٣ و ٢٩ نوفمبر) استمر اتجاه الأسئلة قريبًا إلى أبعد حد من موقف الحكومة الأمريكية الذى كان قد اتضح وينحصر فى السؤال عن موعد إطلاق سراح الرهائن، مع تجاهل التنازلات ولجان التحقيق اللازمة للنظر فى سوء تصرفات الشاه وجرائمه . ومن المفارقات أن بنى صدر لم يعد يصر ، ولأول مرة ، على عودة الشاه السابق ؛ بل إنه اقترح الصيغة التى نفذتها فيما بعد لجنة الأمم المتحدة التى ذهبت إلى طهران بعد ذلك بعدة أشهر . أما فى البرنامج فقد تجاهل ماكنيل وليرار هذا الاقتراح - وهو الموقف المعهود منهما .

وأما قائمة الضيوف الذين ظهروا فى البرنامج من أوائل نوفمبر ١٩٧٩ حتى منتصف يناير ١٩٨٠ فكانت ذات دلالة أكبر . فباستثناء المرات الخمس التى ظهر فيها إيرانيون ، وباستثناء ظهور إقبال أحمد مرة واحدة ، وريتشارد فولك مرة واحدة هو الآخر ،

وهما المعروفان بمناصرة قضايا العالم الثالث ومعاداة الحروب ، كان جميع المشاركين فى الحوار من الصحفيين ، والمسئولين الحكوميين، وخبراء الشرق الأوسط الأكاديميين ، وبعض الأفراد المرتبطين بمؤسسات تجارية أو شبه حكومية ، أو بعض أبناء الشرق الأوسط الذين اشتهروا بمواقفهم المعادية فى جوهرها للثورة الإيرانية . ولم يدع تواتر ظهور بعض الأفراد مجالاً للشك . فقد ظهر منجيز من معهد هدسون مرتين ، وظهر كل من روبرت نويمان ، السفير الأمريكى السابق فى أفغانستان ، ول. دين براون مرتين أيضًا . وكانت المحصلة النهائية هى وضع كل ما قاله الإيرانيون وفعلوه خارج الحدود الأخلاقية ، وهو ما زاد من مشاعر الغضب دون أن يساعدنا فى تفهم الأنباء . ولقد أذهلنى هذا ، وأدهشنى ألا يحاول ليرار أو ماكنيل النظر فيما كان بنى صدر يعنيه ، مثلاً ، عندما أشار إلى ما يحسه "المقهورون فى العالم" قائلاً إن إجابة مطالبهم لا تقتضى تسليم الشاه للحكومة الإيرانية الجديدة (أى أن المسألة تتجاوز مجرد تراجع الولايات المتحدة) ولكنها تقتضى مجرد بادرة من جانب الولايات المتحدة تعترف فيها بأن للمقهورين مظالم مشروعة .

وهكذا فإن أسلوب البحث نفسه فى برنامج **تقرير ماكنيل / ليرار** كان ، فيما يبدو ، دليلاً على رقابته على ذاته ، فحال دون خوض البرنامج فى المجالات الأوسع للخبرة الإنسانية التى كان المتخاصمون أو المتحاورون يعتبرونها مهمة . لقد شاهدنا صفوفًا

دقيـقة التنظيم من المشاركين الذيـن يجلسون حول منضـدة يسيطر عليها مضيفان يطرحان الأسئلة بلا هوادة ، ولاحظنا وجهات النظر المتـسمـة بالتوازن العـام ، والتى لم تتح لأى ضـيف أن يُسْمِـعَنَا بصدق تلـك اللغة "الغريـبة" فى جوهـرها ، أى لغة الشـعوب المقهورة والبعيدة عنا ، والتى ظلت حتى عهد قريب تكابد التدخل الأمريـكى الظالم فى حيـاتها ، فى صـمت وعلى امـتداد عـقود طويلة؛ واسـتمـعنا إلى الأسئلـة التى دائمًا مـا كانت تركـز على أسلوب التـعامل مع هذه الأزمـة ، لا على محـاولة فهم الآفـاق الجديدة التى تتفتح فى كل مكـان فـى عالم الأجـناس غير البيضاء وغير الأوروبية ؛ وأدركنا ذلك اللجوء شبه الغريزى إلى 'الحكمة' التقليدية عن الجغـرافيا السياسية ، والقلاقل الطائفـية ، والنهضة الإسلامية ، وتوازن القوى ، وكانت تلك جميعًا تمثل إطار القيود التى يمارس مـاكنيل وليرار عـملهما فى ظلـها ، ومهـما تغـيرت الظروف ، كـانت تلك القـيـود نفسـهـا هى الإطار الذى تعـمل الحكومة فى ظله .

وفى هذا السـياق الذى أوجـدته الصـحافـة التى تعـانى من الحرص المفرط على اتساق موقفها إزاء قضية إيران ، وهو الاتساق الذى فرضته على نفسها ، نسـتطيع أن نقدر عمق البصيرة المدهش الذى أبداه أ. ف. سـتون فى مقـال له بعنوان "هل تكون الخطوة التالية إنشاء اللوبى اللازم لمناصرة الشاه ؟" ، وهو الذى كتبه فى ١٧ يناير ١٩٧٩ ونشـرته صحيـفة **نيويورك ريڤـيـو أوف بوكس**

(مراجـعة الكتب) فى ٢٢ فبـراير . لقد تحـدث فى هذا المقال عن نجاح الشـاه فى ''حشـد أصدقـاء أقوياء'' ، من مصـرف تشيس مانهـاتان إلى شركات صناعة الأسلحـة ، إلى احتكارات النفط ، إلى وكالة الاستخبارات المركزية ، و''دنيا الجامعات المتعطشة'' . أما وقد حضر الشاه ''إلينا هنا شخصيًا'' فقد نصادف احتمال اتخاذ إجراءات مغرية ، على الرغم من أنه ''كان ينبغى علينا أن نتعلم ، لكننا لم نتعلم الابتعاد عن الشئون السياسية الداخلية لإيران ، وقد نتعلم درسًا آخـر فى القريب العاجل فى إقصـاء الشئون السيـاسية الإيرانية عن حياتنا السياسية'' . ولماذا ؟ ويجيب ستون ، مواصلاً تنبؤاته الغـربية قائلاً ''ماذا يكون عليـه الحال لو أن النظام الإيرانى الجـديد تقـدم بمطالب خاصـة من جـانبـه . . . فزعـم حقـه فى الاستـيلاء على أملاك الشـاه فى الخارج والحـسابات المصرفـية له وللمؤسـسة البهلوية ؟ ومـاذا يكون الحال عليـه لو أنه طلب عودة الشاه لمحاكـمته بتهمة نهب ثروات البلد ؟ ومـاذا يكون الحال عليه لو أنه اتهمه ، باعـتباره الحاكم المطلق ، بالمسئوليـة المطلقة عما لا حصر له من وقائع التعذيب والإعدام التى ارتكبتها الشرطة السرية التابعة له ؟'' .

وأنا لا أقـتطف أقوال سـتـون لمجرد أن تـنبؤاته تصـادف أن صدقت، لـكننى أستشـهد به أيضًـا لأنه ليس من '' الخبراء'' فى شئون إيران ، ولم يـلجأ إلى إدعاء ذلك يومًا مـا ، كما أنه رجل لم يعرف عنه أى تعاطف مع المسلمين . وما عليك إلا أن تفحص

مقاله حتى تتأكد من خلوه من أية إشارات إلى العقلية الإسلامية أو غرام الشيعة بالاستشهاد أو سوى ذلك من الهراء الذى يطالعنا باعتباره من " المعلومات" ذات الصلة بإيران . إنه رجل يفهم السياسة ، ويفهم دون أن يحاول أن يكذب بشأن ما يدفع الرجال والنساء للعمل فى هذا المجتمع وفى غيره من المجتمعات، وقبل ذلك كله ، فإنه لا شك لديه فى أن الإيرانيين، وإن لم يكونوا أوروبيين أو أمريكيين ، قد تكون لديهم مظالم وطموحات وآمال مشروعة ومن الحماقة أن يتجاهلها الغربيون . لن تجد فى المقال كنايات أو مبالغات . فما دام ستون لا يعرف الفارسية ، فإنه لا يسمح لنفسه بترف تعويض النقص بإطلاق التعميمات عن "مراوغة" اللغة الفارسية واستعصاء معانيها على الفهم .

ولقد عبر جوزيف كرافت ، بما يميزه من واقعية ، عن رؤيته **الخاصة** للقضية فى مقال بعنوان "حان وقت استعراض القوة" ، ونشرته **واشنطن بوست** يوم ١١ نوفمبر ، وكان ما كتبه فى هذا المقال قد أوضح وألقى بأضواء تزيد عما ألقته جميع الإشارات النمطية إلى الحصانة الدبلوماسية وقداسة سفارتنا ، على بعض جوانب **الأساس المنطقى** الذى يقوم عليه كل ما تقوله وما تفعله أجهزة الإعلام ، وربما دون وعى منها . كتب كرافت يقول إن سقوط الشاه يمثل "كارثة للمصالح القومية الأمريكية" . إذ لم يقتصر الشاه على توفير كميات النفط التى نحتاجها ، بانتظام ، لنا، بل إنه قد فرض النظام على الهضبة الإيرانية من خلال

''طمـوحات الامبـراطورية'' . وكان هذا خـيرًا لأمريـكا ، فلقد حافظ على تدفق النفط ، وحـافظ على تبعية المنطقـة له وإخضاع ''الوطنيين الكامنين''، الأمر الذى أتاح لنا ''نحن'' أن نظهر بمظهر القوة . ويمضى كـرافت فى مقـاله ليوصى ''بالعثور علـى مناسبة لتأكيد قوة أمريكا بصورة لا يمكن إغفالها وحبذا لو كانت مفاجئة، لصالح وباسم النظم التى تشعـر بتهديد آية الله لها'' باعتبار ذلك جانبًا من جـوانب محاولة ''إعادة بناء السـياسات الأمـريكية إزاء إيران'' . وما الطرق الأخرى لتنفيذ ذلك ؟ يقول كرافت :

> قد يتخذ ذلك شكل مساعـدة العراق فى جهودها لبعث المقاومة المحلية داخل إيران . وقـد يعنى تقديم مساعدة عسكرية إلى تركيا . . . وإيجاد هذه الفرص واستغلالها يتطلب تغـييـرًا داخليًّا حـاسمًـا فى واشنطن . وعلى الولايات المتـحدة أن تتـمتع بالقـدرة على أن تفعـل ما يتجـاوز إرسال مـشاة البـحرية وإلقـاء القنابل ، أى إن عليها أن تعيد بناء قدرتها (وهى القدرة التى دمرت ذاتها منذ أعوام معدودة فحسب) على التدخُّل الخفىِّ المقنَّع .

ويتـضح من مـقال كـرافت أنه يرفـض أن يتقـبل أن الثـورة الإيرانية قد قـامت أصلاً . ومن ثم فلابد من '' تنقيـحها'' بمعنى إعادة النظر فـيها وفى كـل ما يتصل بهـا - آية الله ، والإسلام ، والشعب الإيرانى - باعتـبارها انحرافًا يتـمنى أن يقول به قراؤه . وبعبارة أخرى ، نجد أن كرافت ''يسقط' رؤيته الخاصة للواقع على

واقع إيرانى وأمريكى معقد إلى درجة بعيدة ، ويريد من ثم أن يستعيض بهذه الرؤية عن الواقع الفعلى . كما تتميز رؤية كرافت بمزية ' تعليمية' إضافية وهى مجافاتها الكاملة للأخلاق : إنها تتعلق بالقوة ، القوة التى تمكّن أمريكا من صوغ العالم وفقًا لشروطنا ''نحن'' ، فكأنما لم نتعلم شيئًا من استمرار تدخلنا ، فى الواقع ، فى إيران ، على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية. وأما إذا وجد نفسه ، فى غمار ذلك ، ينكر حق الآخرين فى إحداث ما يرونه من تغيير فى شكل حكومتهم ، بل وينكر حتى أن تغييرًا ما قد حدث بالقطع، فذلك لا يهمه كثيرًا. فهو يريد لأمريكا أن تعرف العالم (وأن يعرفها العالم) بما لها من قوة ، ومن احتياجات ومن رؤية خاصة . وأما ما عدا ذلك فهو إساءة بالغة .

وأما ما يعيب هذه النظرة فهو أنها ، حتى من الزاوية البراجماتية والأنانية المحضة ، نظرة فظة وعمياء . ففى الوقت الذى كان كرافت ومن لفّ لفّه يهاجمون الثورة الإيرانية وينعون فقدان الشاه ، كان الموقف فى إيران قد أصبح مزعزعًا ومقلقلاً إلى أقصى حد ، إذ كانت الجماهير التى أسقطت نظام حكم الشاه تتصدّر ائتلافًا سياسيًا يرأسه آية الله الخومينى . كان يتمتع وحده بالسلطة وبالشرعية الروحية والسياسية القادرة على اجتذاب أنظار البلد . أما تحت السطح الذى يهيمن عليه فكان الصراع يدور بين العديد من الفصائل ، وكان من بينهم بطبيعة الحال رجال الدين

(الذين انتظم أتباعهم فى الحزب الجمهورى الإسلامى) وليبراليو الوسط (وبتصدرهم بازرجان) وتجمّعٌ عريض من أحزاب وشخصيات إسلامية تتفاوت ميولها ما بين الليبرالية واليسار (وقد برز بنى صدر من بين هذه الشخصيات) واليسار غير الإسلامى ، وهو الذى يتشكل من أحزاب وتجمعات كثيرة مختلفة . وقد ظل الصراع على السلطة قائمًا بين هذه الفصائل المختلفة لما يزيد على عام كامل بعد قيام الثورة - أى من فبراير ١٩٧٩ حتى مارس على الأقل أو إبريل ١٩٨٠ ، وكان يبدو أحيانًا أن بنى صدر قد انتصر ، وفى أحيان أخرى - أساسًا فى أواخر أيام الشتاء وأوائل الربيع عام ١٩٨٠ - أن رجال الدين (بزعامة آية الله محمد بهشتى) قد انتصروا . **ولم يُنشر فى الولايات المتحدة من أنباء هذا الصراع أثناء احتدامه إلا قدر بالغ الضآلة** . فلقد بلغ الالتزام الأيديولوجى بفكرة جمود الإسلام وثباته درجة من القوة حالت دون ملاحظة التحولات السياسية الجارية **فى داخل** ذلك البلد المعين. وعندما انتصر التجمع الإسلامى المحافظ نتيجةً لذلك الصراع بعد ذلك ، بدا للناس أن الأوصاف الأولى للإسلام كانت صحيحة على أى حال . لكنه عندما فشلت محاولة إنقاذ الرهائن بالطائرات العمودية ، وبعد أن قررت إدارة الرئيس كارتر تخفيض أولوية قضية إيران لفترة ما (ومن زاوية معينة بعد أن فات الموعد) بدأت الصحافة تؤدى واجبها فى نشر أنباء الصراع على السلطة بين بهشتى وبنى صدر . وكما جرت العادة صورت بنى صدر فى

صورة الشخص الذى **نستطيع** التعامل معه لولا وجود بهشتى ، وأما حين كان نجم بنى صدر ساطعًا صاعدًا فى أواخر عام ١٩٧٩ ، فلم يكن يلقى إلا التجاهل أو الازدراء .

لا شك أن القوة مسألة معقدة ، فالقوة لا تلمحها العين فى جميع الأحوال . وتتغير أشكالها بسرعة ، إلا إذا اقتصرنا فى تفكيرنا على القوة العسكرية . ومع ذلك فقد تنشأ مواقف تصعب فيها رؤيتها أو فهمها ، على نحو ما أشار إليه كرافت بدقة ، ويستعصى فيها استعمالها مباشرة (غارة ، تخريب تدبره وكالة الاستخبارات المركزية ، ضربة تأديبية من لون ما) ولا يمكن استعمالها إلا بصورة غير مباشرة (''احتجاز أمريكا رهينة'' هو النموذج الذى قدمه وأعاد تقديمه جهاز إعلامىٌ يتمتع بموارد لا حصر لها فيما يبدو) . فمنذ زمن بعيد وأجهزة الإعلام مشغولة بتأكيد ما تتمتع به **هى** من قوة مباشرة . ولا أرى أنه من المبالغة أن نقول إن الإحساس ''بالعجز القومى'' الذى تحدث عنه كرافت كان بمثابة طغيانٍ مؤقّتٍ لنوعٍ من أنواعِ القوةِ الأمريكية على نوعٍ آخر : طغيان قوة أجهزة الإعلام التى حجبت قوة العسكريين الذين أحسوا بعد احتلال السفارة بالإحباط إذ أحرجتهم قوة أخرى كانت فيما يبدو خارج نطاق القوة العسكرية الأمريكية (وهى الحقيقة التى أثبتتها بوضوح محاولة الإنقاذ الفاشلة فى أواخر إبريل ١٩٨٠) .

ولكن هذه القوة نفسها ظلت مع ذلك خاضعة للحدود التى فرضتها عليها قوى أجهزة الإعلام الغنية القادرة على الرمز

والإيحاء . فمهما يكن ما كسبه الفرد الإيرانى من حريته أو تحرره من الشاه ومن الولايات المتحدة ، استمر ظهوره على شاشات التليفزيون الأمريكى فى خضم جمهور غوغائى كبير مجهول الاسم ، فسلبته الصورةُ فرديته وإنسانيته وعادت للتحكّم فيه نتيجة لذلك . وسواء كانت أجهزة الإعلام على وعى بما تفعله أم لا ، فإنها كانت فى الواقع تستخدم طاقاتها على التمثيل والرمز لتحقيق غرض معين ، شبيه بالأغراض التى قصدت إلى تحقيقها حكومة الولايات المتحدة فى الماضى : ألا وهو توسيع نطاق الوجود أو الحضور الأمريكى ، أو ما كان لا يختلف معناه فى نظر الإيرانيين أىْ إنكار وجود الثورة الإيرانية . ولم يكن هذا يعنى فى المقام الأول تقديم الأنباء أو تقديم تحليلٍ أو تأمّلٍ لمرحلة جديدة مهمة من مراحل العلاقات الخارجية الأمريكية ، بل ، وباستثناءات جد قليلة، كان غرض أجهزة الإعلام ، فيما يبدو ، أن تشن حربًا من لون ما على إيران .

وقد أعد صحفيان فى صحيفة **واشنطن بوست** هما وولتر بنكاس و دان مورجان مجموعة رائعة من التقارير التى تتضمن ثمار بحوثهما وتحقيقاتهما ونشراها فى ديسمبر ويناير وفبراير ومارس ١٩٨٠ ، فكانت من باب الاستثناء للقاعدة ، إذ وضعا أمام القارئ أدلة قاطعة على الصفقات المربحة التى عقدها الشاه مع شركات السلاح الأمريكية ، وعلى ما يملكه فى المؤسسة البهلوية ، وعلى تلاعبه وقمعه للشعب (وقد نشر روبرت جراهام تفاصيل

بعضهـا فى كتابه **إيران : وهم القوة)** ولكن أمثال هذه المقالات ، إلى جانب المقال الذى كتبه برنارد نوسـيتر فى نيويورك تايمز بتاريخ ٢٦ نوفمبر ويقارن فيـه الخومينى بالشاه ، كـانت قليلة العدد، إذا قارناها بحالة الاستياء السـائدة التى تنقلها أجهزة الإعلام وتنشرها مـرارًا وتكرارًا . ومـن الغـريب أن أحـدًا لم يحـاول النظر إلى سياسـات الولايات المتحدة فى إيران فى إطار ما يسمى بامـتيازات الأجانب التى كـان معمولاً بهـا على امتداد قرن كـامل ، وكانت هذه السياسة تمنح شتى الدول ، ابتداءً بانجلترا ، امتيازات اقتصادية ودبلومـاسية وقـضائيـة خارج أراضـيها ، فى إيران (وهـكذا قال الخومينى فى عام ١٩٦٤ "لو أن الشاه صدم بسيـارته كلبًا أمريكيًا لتعرض للحساب ، ولو صـدم طبـاخٌ أمريكىٌ بسيارته الشاه . . . فليس لأحد أن يطالبه بأى شىء" (٧)). ولكن أجهزة الإعلام لم تشر قط إلى هذه السياسة ، وإن كان يمكن بوضـوح أن نستخدمها فى تفسيـر الحدّة الشديدة لمشاعر الإيرانيين ضـد جميع "الشياطين الأجانب" وخصـوصًا من الدبلوماسـيين الأجانب ، لا الولايات المتحدة فقط . وقد كان يمكن أن يؤدى ذلك إلى إسكات صيحات الاستنكار والتظاهر بالتـقوى التى سمـعناها من الكثـير من المعلقين الذين قـالوا إن إيران قد ظلمت أمـريكا ظلمًـا بيّنًا فادحًـا ، وإن أمريكا بريئة لم تقدم إلى الإيرانيين إلاّ الخير السابغ الفياض .

وليس من المدهش إذن ألا يخرج القـارئ بمعلومات كثـيرة مما نشر عن الأزمة فى شهورها الثلاثة الأولى ، إذ لا تقدم لنا أجهزة

الإعلام إلاّ **الإصرار** على موقفها ، بدلاً من التحليل أو التغطية المتعمقة للتعقيدات الحافلة التى تزخر بها القضية وأظن أن الأمريكيين سوف يقولون إن أجهزة الإعلام قد قدمت أدلة كثيرة على قدرتها على الوجود ، وهناك فى طهران ، وعلى طاقتها على حفز الأحداث على اتخاذ أشكال يسهل هضمها مهما بدت ساذجة. ولكنها لم تر فائدة فى تحليل الجوانب السياسية المعقدة للأحداث ، ولم يشعر أحد قطعًا بأن أجهزة الإعلام كانت تقوم بتسجيل وتوثيق التحولات التاريخية المعقدة التى تحير الألباب أحيانًا. ولكننا استطعنا أن نكتسب بعض المعرفة بأساليب عمل أجهزة الإعلام .

فإذا نحينا جانبًا ذلك التصوير الذى لا هوادة فيه لتجربة المواجهة التى أشرت إليها ، فسوف نقدر مدى ما أنفق على تغطية أنباء إيران والكم الهائل لتلك الأنباء . فعلى امتداد الأسابيع العشرة التى قمت فيها برصد ثمانى صحف يومية ، والشبكات الثلاث ، ومجلة **تايم** ومجلة **نيوزويك** ومحطة الإذاعة العامة ، بدا لى أن كل صحيفة كبرى فى البلد قد غطت وأبرزت الأحداث الإيرانية ، إلى جانب "لمحات عن خلفيتها" وبعض التحقيقات الصغرى المرتبطة بها . وقال جون كيفنر ، المحرر فى **نيويورك تايمز** فى ١٥ ديسمبر ١٩٧٩ إن فيلقًا من الصحفيين الغربيين ، الذين لا يقل عددهم عن ثلاثمائة ، يقيم فى طهران (وكان معظمهم ، إن لم يكونوا جميعًا ، فى حاجة إلى مترجمين).

وذكر كول ألن يوم ١٦ ديسمبـر ١٩٧٩ فى صحيفة **ذى أستراليان** أن مجمـوع ما تنفقه الـشبكات الأمريكية الكبـرى فى طهران يبلغ مليون دولار يوميًّا . وقال ألن إن محطة إذاعة كولمبيا كان لديها فى طهران ، إلى جـانب رئيس مكتب المحطة "فريق يتكون من ٢٣ صحفيا ، ومصوّر تليفزيونـى ، وخبير تسجيل الصوت ، وخبراء أفلام وفنيين يسـاعدهم ١٢ مترجـمًا إيرانيًّا ، وسائق ومرشد" . وكانت تستخدم جناحًا فى أحد الفنادق ، إيجاره الشهرى ٦٠٠٠ دولار ، مركزًا للعمليات ، إلى جانب خمس وثلاثين غرفة أخرى إيجار الغـرفة الواحدة ٧٠ دولارًا فى اليـوم للصحفـيين والسائقين والمترجمين ؛ وتضاف إلى هذا تكاليف الطائرات الخاصة ، وآلات التليكس ، والسـيارات والتليـفونات ، إلى جـانب قمـر صناعى للاتصالات يستخدم أربع ساعـات يوميًا بتكلفة قدرها ١٠٠ دولار فى الدقيقة ، وترتفع التكاليف بمعدل جد كبير .

وعندما عاد ڤيرمونت رويستر إلى الولايات المتحدة من رحلة إلى الخارج ، كـتب فى **وول سـتريت چورنال** يقول ، فى ١٩ ديسمبر ١٩٧٩ ، إن الكومـة التى تجمعت لديه من الصحف ومن برامج التليفزيون التى بدأ يستعرضها كانت شاهدًا

"على مـدى ضآلة ما وجـدته من معلومـات لم أكن أحيط بها سلفًا عن الأزمـة الإيرانية على الرغم من التغطية الهائلة لأنبائها . وعندما اسـتقر بى المقام فى المنزل وجدت نفسى أغـرق فى طوفان يومى من التحقـيقات التليفـزيونية

والإذاعية والصحفية عن إيران . كانت الصحف تنشر موضوعات مطولة بعناوين ضخمة ، والتليفزيون يخصص معظم نشرات الأنباء المسائية للقضية ثم يذيع برامج خاصة فى وقت متأخر كل ليلة تقريبًا .

وخطرت لى ، استنادًا إلى ذلك ، فكرة كالزندقة وهى أن أجهزة الإعلام تقوم عمدًا بالمبالغة فى التغطية لغاية ما .

وقد يبدو ذلك رد فعل غريب بشأن قضية تتمتع بهذه الأهمية الواضحة . . . ولكن عدد الكلمات المستخدمة فى الحديث عن موضوع ما لا يعادل بالضرورة المعلومات التى يقدمها الحديث . والحقيقة أن جانبًا كبيرًا من الكلمات المستخدمة لم تكن له أى قيمة إخبارية حقيقية على الإطلاق .

اليوم ٢٨ . . اليوم ٣٥ . . اليوم ٤٠ - لم أجد فى معظم الأيام خبرًا يختلف عما جاء به اليوم السابق .

ربما لم يكن رد فعل رويستر موجهًا فقط إلى تشابه الأخبار بل كذلك إلى ضيق نطاق الافتراضات المستخدمة فى البحث عن الأنباء ، والتى سريعًا ما تنفد ، وهو أمر غير مرض . فإلى أى مدى زمنى نستطيع الاعتماد على الخبراء أو الصحفيين الذين يساورهم قلق مفهوم بشأن الرهائن ، وتغضبهم بذاءة الحادثة ، وربما أحسوا بالغضب من الإسلام كذلك ، ثم نأمل رغم هذا أن

نحـصل على الجـديد من المعلومـات والأنبـاء والتـحليل ؟ لو أن شخصًا قرأ صحيفة **شيكاغو تريبيون** يوم ١٨ نوفمبر ، واطلع على المقال المطول الذى كتـبه چيمز يانجر ويسـتشهد فيـه بالخبراء الذين يقولون "إن هذا الأمـر ليس مطروحًـا للمناقـشة علـى المستـوى الوطنى" وإن الإيرانيين "متـعطشون للاستشـهاد" وإنهم "يميلون إلى البحث عن كـباش فداء" ، ثم انتقل إلى قـراءة مجلة **تايم** أو مجلة **نيوزويك** فى الأسبوع التالى ، ومنها إلى قـراءة التحقيقات العديدة فى **نيويورك تايمز** فى الأسبـوع الذى يعقبه ، فـإنه سوف يواجه فـى كل حالة المعلومـات التى تقول إن الإيرانيين شـيعـيون يتحـرقون شـوقًا إلى الاسـتشـهاد بقـيادة رجل غـير عقـلانى هو الخومينى ، وأنهم يكرهون أمريكا ، وأنهم مصـممون على تدمير شياطين الجواسـيس ، ولا يرغبون فى حل وسط وهلم جرًا . ألم تقع فى إيران أحداث **قبل** الاستيـلاء على السفارة ، ربما ألقت لنا الضـوء على الوضع الراهن ؟ ألم يكن لإيران تاريخ أو مـجتـمع جدير بالـكتابة أو الحديث عنه دون تـرجمتـه إلى الصور البـشرية لإيران الملتاثة التى تقـوم ، دون سبب ، بتعيـير واستفـزاز أمريكا وهى 'البطل الصالح' فى القصة ؟ وقبل كل شىء ، هل كان همّ الصحـافة ينحصر فى نشـر أنباء تتفق ، فيـما يبدو ، مع سيـاسة حكومة الولايات المتحدة الرامية إلى الحفاظ على "وحدة الصف" الأمريكـى فى المطالبة بالإفـراج دون قيد أو شـرط عن الرهائن ، وهو المطلب الذى وصفه روجر فيشر ، الأستاذ بجامعة هارڤارد ،

فى برنامج ''**توداى شو**'' يوم ٣ ديسمبر ، وصـفًا بارعًا قائلاً إنه يقع فى المرتبة الثانوية بعـد الأولوية الحقيقيـة ، التى لا تتمثل فى إطلاق سراحهم بل فى ''الحفاظ على قوة أمريكا'' ؟

ومن المفارقات أن يظهر ما يشى أحيانًا بالخصومة بين الحكومة وأجهـزة الإعلام ، والمـثال عليـه هو الضجـة التى أثيرت عندمـا هاجمت الحكومـة محطة الإذاعة العـامة لأنها اسـتخدمت مـقابلة كاليـجوس(٨) ، أو الإشارات المتكررة الصـادرة من دوائر تتحدث باسم الحكومة أو بلهجتها ، والتى مفادها ، بتعبير چورج بول فى برنامج **تقرير مـاكنيل / ليرار** يوم ١٢ ديسمبر ، ''أن أعظم شبكة اتصـالات فى العالم أصـبحت تـعمل حـقا فى خـدمة الحكومـة المزعومة فى إيران'' . ويرتبط بهذا الموضـوع ما لمحناه من الطعن المتواصل فى الشهـادات أو الأقوال أو التصريحـات التى تذيعها أو تطبعها أو تنشرها أو تصـورها أجهزة الإعلام ، وهو الطعن الذى يقول إن زيدًا أو عمروًا قـد تعرض لغسيل مخ ، أو إن س أو ص من الإيرانيين يمارس الدعاية أو يعـتبر من الأعداء المتـعصبين ، إذ قال چيمز كوتـس فى صحيفة **شيكاغوتـريبيون** يوم ٢٢ نوڤمبر ما يلى : ''يقول المسئولون فى الإدارة الأمريكية إن الرهائن المحتجزين فى سفارة الولايات المـتحدة فى طهران يتعـرضون لضغوط نفـسية شبـيهة بغسـيل المخ الذى تعرض له أسرى الحرب الأمـريكيون فى الحرب الكورية وحرب ڤيتنام'' . وقد أقر المسئولون فيما بعد بأنهم ''يساورهم القلق بشأن بعض الأقوال التى أدلى بها الرهائن المفرج

عنهم منذ إطلاق سراحهم'' . وقال لويس تيـمنيك فى صحيـفة **لوس أنجـيليس تايمز** يوم ٢٦ نوفـمبـر إن ''على العالـم أن يتوقع مشاهدة وسماع مقابلات مسجلة بالڤيديو مع بعض الرهائن الذين 'يعترفون' بشتى ألوان الأخطاء ويدلون بأقوال تعود بالضرر عليهم وعلى الولايات المتحدة'' .

وهاك مثـالاً آخر لنفس النزاع بين الزملاء وهو الهـجوم الذى تعرض له السناتور إدوارد كيندى (مثلاً: ''إن طهران تشرب نخب إدوارد ، **نيويورك بوست** ، ٥ ديسمبر) بسبب تقديمه رأيًا آخر غير مطابق لآراء الحكومة وأجهزة الإعلام ، أو 'العلقة الساخنة' التى تلقاها چورج هانسـن ، عضو مجلـس النواب ، إذ تعرض لنبش ماضـيه كله حـتى يصــدّق الناس التهــم التى وجـهها إلـيه تيب أونيل .

وأنا لا أقول إن أجهـزة الإعلام كانت متواطئة تواطؤًا مـباشرًا مع الحكومة ، ولا إن **جميع** الأخبار الخـاصة بإيران قد شوهـتها 'القيود' الأيديولوجية التى ناقشـتها ، بل ولا أرى أى سبيل على الإطلاق للموافقـة على احتجاز الرهائن ، وهو مـا أقر به منصور فرهانج نفـسه ، السفـير الإيرانى فى الأمم المتـحدة ، فى برنامج **تقرير ماكنيل / ليرار** يوم ٥ نوفمبر ، ولكن أحدًا لن يشك فى أن أزمـة الرهائن لعـبت دورًا لم يلق التـحليل اللازم حـتى الآن فى الديناميات المعقدة للثورة الإيرانية المستمرة ، وإن كان قد بدا لنا أن الاحتجاز الذى طال أمده قد خدم قضـية العناصر المتخلفة الرجعية

فى المجتمع الإيرانى . أما الآن وقد شارفت الأزمة على الحل والانفراج (أساسًا لأن الحرب مع العراق لم تعد تجعل لاحتجاز الرهائن أىَّ فائدة للسياسة الإيرانية الداخلية) فقد بدأت تظهر أوضاع جديدة . ومع ذلك ، فإن ما أقصده هو أن العالم الذى نعيش فيه يتميز اليوم بالتعقيد البالغ ، والاختلاف الشديد، بل ومن الأرجح أن يستمر فى إفراز أوضاع غير تقليدية (مهما تكن على غير هوى الأمة فى الولايات المتحدة) إلى الحد الذى تتعذر معه ترجمة كل شىء إلى ما يمكن اعتباره إساءة إلى القوة الأمريكية أو إعلاءً من شأنها . ولا ينبغى أن يواصل الأمريكيون اعتقادهم بأن أهم ما يعنيهم فى "الإسلام" هو مناصرته لأمريكا أو معاداته لها . فإن مثل هذه النظرة القائمة على كراهية الأجانب واختزال صورهم كفيلة باستمرار المواجهة بين الولايات المتحدة وسائر أفراد الجنس البشرى العنيد ، وهى سياسة تعنى توسيع نطاق الحرب الباردة بحيث يشمل جانبًا من الكرة الأرضية يفوق ما يمكن قبوله . وأظن أن بيننا من يعتبر هذه السياسة من باب الدعوة الإيجابية "لأسلوب الحياة الغربى" ، لكننى أعتقد أيضًا أننا لن نخطئ إذا قلنا إن أسلوب الحياة الغربى لا يتضمن بالضرورة إثارة العداء والمواجهة باعتبارهما من وسائل إيضاح مفهومنا للمكانة التى نشغلها فى العالم .

ولابد لى الآن من عرض آرائى الخاصة بإيجاز شديد عمّا أصفه بالموقف السياسى العالمى الناشئ (والذى تمثل إيران إحدى

بوادره الكبرى) . يقول الكثيرون إن قوة أمريكا آخذة فى التدهور، لكننى أقول إن الوعى السياسى قد انتشر فى المزيد من مناطق العالم فأدى إلى انحسار احتمال رضى هذه المناطق بمواصلة الدوران فى فلك المستعمرات التابعة لغيرها ، أو البقاء فى صفوف الحلفاء دون تفكير. وإيران وأوروبا الغربية اليوم ، على الترتيب، يمثلان ما أعنيه . أضف إلى ذلك أنه لا حاجة بنا إلى الظن أن شعب أفغانستان كان يريد غزو الاتحاد السوفييتى لأراضيه أو إلى الظن بأن الإيرانيين كانوا سعداء بمناصرة الولايات المتحدة للشاه السابق ، فالحالان متماثلان . وأعتقد أنه من الخطأ والحمق أن تعتبر أن "الإسلام" كتلة موحدة ، كما أعتقد أنه من قبيل سوء الرأى السياسى أن نتعامل مع "أمريكا" كما لو كانت فردًا لحقه الضرر لا باعتبارها نظامًا معقّدًا . وأعتقد من ثم أننا فى حاجة لمعرفة المزيد عن العالم ، لا العكس ، وهكذا يجب أن نتوقع مستويات أرفع مما لدينا الآن لنقل الأنباء ، ومزيدًا من الحذق الإعلامى ، ومزيدًا من الحساسية والدقة فى إبلاغنا بما يجرى من حولنا فى العالم . ولكن هذا يعنى ، ولا شك، أن نتجاوز كثيرًا ما يتاح عادة للصحفيين العاملين فى مجتمع ما ، وهو الذى (أ) يتشكل وعيه أساسًا فى ضوء الأزمات الطارئة أو بدوافع تعصب عرقية غير مشروطة ، و(ب) يتمتع بقدرة مذهلة على أن يبنى لنفسه هياكل بالغة التعقيد من المعلومات استنادًا إلى بعض القوالب اللفظية التى يلتقطها بسرعة ، والمصالح الذاتية ذات التعريف

الضيق و(ج) لم يشكل تاريخ تفاعله مع الشعوب الإسلامية البالغة التنوع ، فى الآونة الأخيرة ، إلا النفط أو بعض الحكام الذين يعود عليهم تحالفهم مع الولايات المتحدة (مثل الشاه السابق) بفوائد محدودة ، وتتسم بالقصور الشديد فى فحصها ، مثل "التحديث" ومناهضة الشيوعية .

وأما تجاوز ذلك كله فهو شاقٌّ عسير . وانظر كيف يخوض مراسلو معظم كبرى الصحف الأمريكية وشبكات التليفزيون نضالاً بطوليًا فى أداء واجب متصل الحلقات ، وهو العودة بموضوع صحفى ، وهم يجهلون ، مع ذلك ، فى العادة لغة المنطقة التى يغطونها ، ويفتقرون إلى الخلفية الخاصة بها ، ويتعرضون للنقل إلى منطقة أخرى بعد فترة 'خدمة' قصيرة فيها ، حتى بعد أن يكونوا قد بدأوا إرسال مادة صحفية مهمة . ومهما يكن حظ الفرد من الموهبة ، فلن يستطيع التغطية الإعلامية لبلاد معقدة التركيب مثل إيران أو تركيا أو مصر دون قدر ما من التدريب وإقامة طويلة فيها . وانظر مثلاً كيف أن چيمز ماركام ، القدير الموهوب الذى غطّى أنباء الحرب الأهلية اللبنانية لصحيفة **التايمز** فى ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، كان قد عاد لتوه من ڤيتنام ، وبعد أن قضى قرابة عام فى الشرق الأدنى ، نقلته الصحيفة إلى إسبانيا ، وكيف أن أنباء بلاد الشام بأسرها قد تولى تغطيتها هنرى تانر ، بصورة متقطعة لصحيفة **التايمز** ، وهو الذى كان مقره فى روما ، بسبب رحيل جون كفنر ، إلى طهران ، ثم تولاها نيكولاس كيدج من بعد

تانر، وأما مارڤين هاو ، المراسلة السابقة فى بيروت (والتى كان من المفترض أيضًا أن تغطى أنباء الأردن ، وسوريا ، والعراق ، والخليج) فقد قضت عامًا واحدًا فى بيروت بعد إقامة قصيرة فى البرتغال ، ثم نُقلت بعد ذلك بعام ، فى خريف ١٩٧٩ ، إلى أنقره . فإذا قارنّا ذلك بالمعمول به فى بعض الصحف الأوروبية ، برزت لنا بوضوح أخطاره ، وهى التى يرتكبها أصحابها فى حق أنفسهم : إن صحيفة **لوموند** الفرنسية لديها إريك رولو ، الذى يتكلم العربية بطلاقة ، وتولى تغطية أنباء المنطقة لما يقرب من ربع قرن ، وصحيفة **الجارديان** البريطانية لديها داڤيد هيرست، الذى يجيد لغات المنطقة كذلك، ولديه خبرة لا يقل طولها عن خمس عشرة سنة . (ولكن تغطية الصحافة الأوروبية للأنباء الخارجية لا تقل ضعفًا، فى معظم جوانبها الأخرى ، عن نظيرتها الأمريكية). وأما احتمال عدم قيام مراسلى الشبكات التليفزيونية بالتغطية اللازمة ، ومن الأرجح أن يكون هؤلاء أشد تجوالاً حتى من مراسلى الصحف ، فيجعل من مراسل الصحيفة دائرة معارف ومثالاً للوداعة إن قورن بمراسل التليفزيون .

وأظن أن التذبذب الشديد فى المستوى ، وهو ما اعتدناه فى ما تنشره الصحف الأمريكية عن الشرق و"الإسلام" ، لن يحظى بالسكوت والرضا إذا كانت الأنباء تتعلق بأوروبا الغربية ، وإن كان ذلك لا يعنى أن مشكلات تغطية أوروبا الغربية قد وجدت الحل ، ولكننى أجد من الصعب ، على أى حال ، أن أفهم سر اتفاق

جميع المسئولين فى الإذاعة والتليفزيون والصحافة، فيما يبدو، على أن مدرسة كتابة الأخبار 'بعيون جديدة' أجدر بالثقة من الاستناد فى كتابتها على الخبرة الطويلة بالمنطقة . ولقد شاهدنا بعض المراسلين التليفزيونيين من ذوى الكفاءة مثل مورتون دين ، وجون كوتشران ، وجورج لويس ، وهم يتحولون أثناء الأزمة الإيرانية إلى ''خبراء'' أمام عيوننا ، لا بسبب إحاطتهم بالمزيد من العلم ، بل لمجرد افتراض أنك إذا مكثت فى بقعة ما فترة زمنية قصيرة ، فسوف تكتسب المعرفة الكافية بها . وأما ما شاهدناه فى الواقع فهو استناد الصحفى إلى ضرورة إعداد موضوع صحفى ما، ويزداد فى غمار ذلك افتقاره إلى العين الناقدة (على نحو ما رأينا مثلاً فى المناقشات اليومية فى المساء بين چون تشانسلور وبين لويس كوتشران) ويقل اعتماده على التحليل وجمع الأخبار فى الواقع الفعلى . وهكذا اعتدنا التضحية بالدقة ، وإن لم تكن الدقة من فضائل أجهزة الإعلام فى يوم من الأيام ، فى سبيل إعداد الموضوع الصحفى ونشره ، سواء جدّ جديدٌ جديرٌ بالنشر حقًّا أم لا .

ولكن بعض الضغوط الأخرى تلعب أيضًا أدوارًا مهمة ، فالعاملون فى الصحف المطبوعة يدركون أن مراسلى شبكات التليفزيون قادرون على إعداد موضوعات إعلامية تخطف الأبصار بصورها ، دون مبالغة ، كل ليلة ؛ كما أنهم يعملون حسابًا لما من شأنه أن يجتذب القراء ، والموضوع فى نهاية المطاف لا يكاد

يتميز بالتغطية الفعلية ، أو بالدقـة أو الأهمية الحقيقية . وقد أدت المنافسة بين الكلمة المطبوعة وبين الصورة إلى زيادة التأكيد على ما هو غريب فى الإسـلام الشيعى ، وعلى تقـديم صور سيكلوجـية للخومـينى ، وإن كانت هذه المنافـسة نفـسها تفـسر التـجاهل فى التغطية الإعـلامية لشخصـيات وقُوىً نشطة فى داخل إيران . ومما له أهمـية أكبـر ، ويؤدى إلى تشـويه أخطر ، استـخدام أجـهزة الإعـلام كقنوات اتصـال دبلوماسـية ، وهو من جـوانب "قصـة إيران" التى أشـارت إليها مـجلة **برودكاسـتنج** (الإذاعة) فى٢٤ ديسـمبـر ١٩٧٩ . فلقد كـان الإيرانيـون ، مثلمـا كانت حكومـة الولايات المتـحدة ، عـلى علم تام بأن التـصريحـات التى ينقلهـا التليفزيون ليـست موجهة فقط إلى الـذين يريدون الأنباء بل أيضًا إلى الحكومات ، وإلى أنصـار فصيلة من الفـصائل ، وإلى بعض القواعد الشعبية السيـاسية الجديدة والناشئة . ولم يقم أحد بدراسة ما لهذا من تأثير فى "تحديد ما يصلح خبرًا" ، ولكننى أعتقد أن إدراك الصحفـيين الأمريكيين لهذا يضع قيودًا مـعينة على تفكيرهم ويدفعـهم إلى اختـزال صورته فى ثنـائيات المواجـهة بين "نحن" و"هم" ، وإن كان هذا التفسير الحرفى للمشاعر الجماعية قد أدى إلى إيضاح مظاهر عـجز الصحـفيين وعدم دقـتهم ، لا إلى زيادة إخفائها .

ثالثا : الافتراضاتُ الخفية التى لم تفحص :

كفى بالصحفىّ سوءًا أن يفتقر إلى الدقة ، لكننى أرى أن الكتابة الصحفية التى تستند إلى افتراضات مسبقة عن الوضع الراهن أسوأ ، إذ نُشر فى عدد يناير - فبراير ١٩٧٩ من مجلة **كولمبيا جورناليزم ريڤيو** مقالٌ يتناول أسلوب تغطية أنباء نظام حكم الشاه فى أجهزة الإعلام بالولايات المتحدة ، وقد بيّن مؤلفا هذا المقال الذى يتسم بدرجة فذة من الفطنة ، وبأدلة مقنعة ، أن "الصحافة ، إن شئنا الإجمال ، قد قبلت بصفة عامة حجة الشاه المضمرة والتى تقول إن أفضل الموارد الأيديولوجية التى يستطيع شعبه حشدها هو التعصب الدينى والشيوعية" (٩) وعلقت مجلة **سيّانس** أيضًا فى عددها الصادر فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٩ على العجز عن الفهم ، لكنها ألقت بالمسئولية عن ذلك ، بصورة أكبر ، على عاتق أجهزة الدفاع والاستخبارات برمّتها . وأما أعمق عرض وأدق تفصيل لهذا الرأى فقد ورد فى مقال كتبه هيرمان نيكيل فى مجلة **فورتشن** ، فى عددها الصادر فى ١٢ مارس ١٩٧٩ . ولكن النتيجة التى توصل إليها نيكيل ، وتتسم بالحكمة ، لم يلتفت إليها أحد بصفة عامة . يقول نيكيل :

> إن جذور فشل أمريكا [فى إيران] أعمق مما توحى به الأخطاء التكتيكية، فهى جذور تتغلغل فى أعماق الماضى.
>
> ولن نستطيع إجراء بحث يعود بفوائد حقيقية فى المستقبل إلا إذا تتبعنا هذه الجذور بصبر وتفكير منصف .

ولابد أن نكرر القول بأن أى جهد تبذله الولايات المتحدة لمحاسبة نفسها يجب ألا يجرى من خلال تبادل التهم بأسلوب انفعالى ويؤدى إلى الانقسام ، فى البحث عن إجابة للسؤال "من ضيّع الصين من أيدينا ؟" وهو السؤال الذى تسبب فى تسميم الأجواء السياسية فى الأربعينيات والخمسينيات . والفترة الأخيرة من تاريخ سياسات الولايات المتحدة تجاه إيران ليست قصة واضحة إلى الحد الذى يتيح للمتنبئين الحكماء الذين طال تجاهلهم أن يقولوا إن من حقهم الآن أن يرفعوا أصواتهم ويوجهوا أصابع اتهامهم . لا ! إن مسئولية الفشل ، فيما يبدو ، يشارك الجميع فى حملها مشاركة تدعونا جميعًا إلى الإحساس بالتواضع .

لقد كانت المبالغة الخطيرة فى تصور قدرة الشاه على حكم إيران تمثل خطأ فى الحكم احتضنته بنفس القدر من الثقة حكومات الحزبين الجمهورى والديموقراطى . ولم تكن تسمع فى قاعات الكونجرس أصوات الشك أو الاختلاف ، مثلما لم تكن تسمع فى مجالس البيت الأبيض .

وأما المناظرات التى توازن بين المسائل السياسية البناءة، لا التراشق بالاتهامات الشخصية ، فقد يكون من اللازم أن نبدأ بتجديد وعينا بأن الأمم الأخرى ليست على أى حال ملكًا لنا حتى نقول إنها "ضاعت من أيدينا" .

وإذا كـان على الأمـريكيين أن يخرجـوا بدرس واحـد من مأساة ڤيتنام ، فهو أننا لا **نمتلك** القدرة على إملاء مجرى الأحداث فى البـلدان العريقة التـى تعيش فى كنف التـأثير العميق لما لدى كل منهـا من تاريخ وثقافة ودين . وإذا كان الدور الذى تضطلع به البوذية فى جنوب شرقى آسـيا كثيرًا ما بدا لنا محـيّرا عسير الفـهـم ، فلقد أثبت دور الإسلام فى إيران أنه أكبـر وأكثر إثـارة لحيـرة راسمى السيـاسات الأمريكيين .

وبعد انقـضاء ما يقـرب من عام كامل ، كـانت المواقف التى توحى بالملكية [أى امتلاك إيران] وتقوم على تبادل الاتهامات ، لا تزال سائدة ، وقـد أضيفت إليـها مفـارقة أخرى وهى أن أجـهزة الإعلام ، بصـفة عامـة ، كانت تجد صعـوبة ، فيمـا يبدو ، فى التسليم بأن الثورة نفـسها قد قامت فعلاً - وبصـورة قاطعة . خذ مثـلاً أن معظم الصحـفيين كانوا يشيـرون إلى محمـد رضا بلقب "الشاه" لا بعبارة "الشاه السابق" . كما أن أجهزة الإعلام ظلت حتـى منتصف عـام ١٩٨٠ (وهو الوقت الذى بدا فيـه أن الجناح اليمينى للثورة بدأ نجمه فى الصـعود) تركز على نشر أنباء الفظائع وإعدام الأشـخاص والتى زادت نسـبتهـا كثـيرًا عن أنبـاء الصراع السـياسى فى البلد ، وهو الـذى كان أبعـد ما يكون عن الحـسم ويجـرى علنًا فى الـواقع الفـعلى . وقـد كنت أتصـور أن أحـد الصحفيين سوف يدرك أن تفصيل القول فى دلالة وجود اثنى عشر

حزبًا سياسيًا تتنافس على السلطة والنفوذ ، فى جو خال نسبيًا من التعـذيب والسجن، بعد عقـود طويلة من القمع الشديد ، وفـيما يعنيه ذلك للكيان القومى لبلد من البلدان ، أمر جدير ببذل الجهد فيـه . ماذا يعنى لأمة أن يكون لهـا قائد يتمـيز ، على الرغم من عناده وعدم جاذبيـته من عدة جوانب ، بأنه يشـغل موقعًا رسـميًا غير محدد بوضـوح، وبأنه لا يولى الحكم المركزى اهتمامًا زائدًا ، وبأنه يتمتع بالتـبجيل الواضح ، ويبدو ذا مهارة فـائقة فى الحفاظ على انشغـال الفصائل الاثنـتى عشرة بعـضها بالبـعض وإن كانت تخضـع لسلطانه فى النهاية ، وبأنه يتكـلم باقتناع وثقـة لا حدود لهما بالمسـتضعفين ؟ ومـا أقل الموضوعات الصحـفية ، فى الأيام الأولى لأزمـة الرهائن ، التى قالـت إن الحكومة فى إيران كـانت مؤقتة على أفضل تقدير ، ريثما تكتمل إقامة دولة جديدة ، أو إنه فى مـعظـم فتـرات عام ١٩٧٩ كـان النقاش دائرًا فى إيران حـول الدستـور وهيكل الحكومة ، أو إن فى إيران أحـزابًا متعـددة تبذل جهودًا جبـارة (دينية أو علمانية ، يمينية أو يسـارية) أو إن عشرات الصحف كـانت تصدر بانتظام ، أو إن الشعب كان يناقش قـضايا سياسيـة حقيقية ، (لا يمكن اختزالهـا بأى حال وتصويرها بصورة التـحـزب الطائفى أو العـرقى أو الدينى) وإن أعـدادًا كبـيـرة من الإيرانيين يشـاركـون فـيـهـا ، أو إلى أن الصـراع بين آيات الله (الخومينى وشـريعت - مدارى وغيرهمـا) كان يتعلق بالتفـسيرات السياسية إلى جانب التفسيرات الدينية للمبادئ الإسلامية ، أو إلى

أن مستقبل إيران قد لا يندرج ، بالضرورة ، في الأنساق التي يراها المحررون من الطبقة الوسطى في الصحف الأمريكية مطلوبة أو غير مطلوبة .

وأما أشد ما يصعب فهمه في قطاع التحرير الصحفي وإعداد التحقيقات الصحفية في أجهزة الإعلام فهو السبب الذي حدا بالعاملين فيه ، دون استثناء تقريبًا ، إلى النظر بهذا القدر الكبير من الاحتقار والريبة إلى الحركة التي أسقطت الأسرة البهلوية المالكة وأتت إلى الحكم بجماعات مختلفة، وربما كانت تتمتع بشعبية أكبر ، إذ يشير هال جاليفر في صحيفة **أتلانتا كونستيتيوشن** بتاريخ ١٣ نوفمبر ١٩٧٩ إلى "الهمجيين الجدد الذين أطلق لهم العنان في إيران" ولم يكن يشير فحسب إلى الطلاب الذين يحتجزون الرهائن بل إلى الجميع في إيران . وإذا قرأت المقال الطويل الذي كتبه يوسف إبراهيم ، وهو المقال الذي يفصح في ظاهره عن الخبرة ، في المجلة التي تصدر يوم الأحد مع **نيويورك تايمز** ، في يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٩ فسوف تقتنع بأن الثورة قد فشلت فعلاً ، وبأن إيران مكان يمور بالحمم البركانية المستعرة استياءً وخوفًا وحنقًا على الثورة . وأما أدلته فتكاد تنحصر في بعض الانطباعات الشخصية ، ومقتطفات من أقوال وزيرين ، وتتكون في معظمها من مناقشات مع أحد رجال المصارف ، وأحد المحامين ، وأحد مديري شركات الإعلانات .

ولا يعنى هذا أنه لا ينبغى للصحفيين استطلاع الآراء ، أو إحاطة قرائهم بهذه الآراء ، لكنه حين تتحول هذه الآراء إلى حقيقة واقعة ، تتحول الصحافة فجأة إلى نبوءات تحقق رغائب أصحابها. فإذا افْتَرَضْتَ أن الثورةَ الإيرانيةَ شرٌّ لأنها تستخدم مصطلحات المقاومة الدينية والسياسية فى تصدّيها للطغيان ، وهى المصطلحات البالغة الغرابة والجدّة (فى عيون الغرب) فسوف تشرع فى البحث عن هياج الحماسة غير العقلانية وتجده فى كل الأحوال. وانظر معى إلى ما يقوله راى موزلى فى مقال عنوانه "الالتزام بشىء واحد والتعصب يستبدان بإيران الثورية" نشرته صحيفة **شيكاغو تريبيون** يوم ٢٥ نوفمبر :

> إن الذين يرون الموت شرفًا يُعتبرون، تعريفًا، متعصبين. ويبدو لنا أن شهوة الدم الثأرية والتحرق شوقًا إلى الاستشهاد سمتان يتسم بهما ، على وجه الخصوص ، الشيعة المسلمون فى إيران . وهذا هو الدافع الداخلى الذى جعل آلاف المواطنين العزل يقفون فى تحد سافر للجنود المسلّحين بالأسلحة الأوتوماتيكية أثناء الثورة .

إن كل جملة من هاتين الجملتين تتضمن افتراضات خلافية إلى حد بعيد ، ويعرضها الكاتب علينا باعتبارها حقائق ، وإن كانت تبدو مقبولة بصفة عامة ما دام الأمر يتعلق بالثورة الإسلامية. ومعظم الأمريكيينَ لا يعتبرون باتريك هنرى متعصبًا لأنه قال "أعطنى الحرية أو الهلاك" . كما إن الرغبة فى قتل

المواطنين الفرنسيين الذين كانوا يتعاونون مع جنود الاحتلال النازى (بل إن آلافًا مـؤلفة منهم قتلوا فـعلاً فى غضون أيام مـعدودة) لا تعنى أننا نسـتطيع وسم الفرنســيين بهذه السمـة بوجه عـام . وما قولك فـى الإعجاب البـالغ الشيـوع بالأشخـاص الذين تدفعـهم الشجاعـة الأدبية إلى الوقوف فى وجه الجنود المسلـحين وإرغامهم على التقهقر ؟

وكان مما دعم هجـوم موزلى على إيران مـقال افتـتاحى بالغ الطول نشرته الصحيفة التى يعمل بها فى اليوم نفسه ، ويوجه إلى الخومينى تهمة هائلة هى ''شن حرب مقـدسة على العالم'' وعاد موضوع الحرب المقدسة أو الجهاد إلى الظهور فى مقال كتبه إدموند بوزويرث فى صحيفة **لوس أنجيليس تايمز** يوم ٢ ديسمبر ويتناوله فيه تناولاً شديد الغرابة . فإذا نحينا جانبًا تلك الحقيقة التى ذكرها فضل الرحمن وهى أن ''الخوارج المتعصبين قد انفردوا بين المذاهب الفقهيـة الإسلامية المتأخرة بإعـلان أن الجهاد يمثل ركنًا من 'أركان العقـيدة' (١٠) '' نجد أن بوزويرث يواصل مـقاله بمنهج عـشوائى فيقـدم كمية كـبيرة مما يعتـبره من ''الأدلة'' التاريخيـة على صحة نظريته التى تقول إن **جميع** ضروب النشاط السياسى فى الفترة التى تمتـد نحوًا من ألف ومـائتى عام ، وفى المنطقـة التى تضم تركـيا وإيران والسودان وإثيـوبيا وإسـپانيا والهند ، يمكن تفـسيـرها بأنها تقوم على الدعوة الإسلامية للجهاد .

وإذا كانت المبالغة الهجومية من طرائق التعبير التى تشيع بين الصحفيين فى وصفهم لإيران ، فإن الطريقة الأخرى هى التلطف فى التعبير ، وهو ما يسئ الصحفيون استعماله ، عادةً بسبب الجهل ، وإن كان السبب يرجع فى حالات كثيرة إلى عدائهم الأيديولوجى الذى لا يكادون يخفونه . وأشد أشكاله شيوعًا إيراد الصحفى "لتفسير" مقبول ظاهريا من عنده ليستعيض به عن الواقع الفعلى . فلقد كان نظام الحكم الإيرانى السابق هو الموضوع الوحيد الذى لم تتعرض له الصحف وبرامج التليفزيون إلا بصورة سطحية على امتداد الشهور الثلاثة الأولى من بداية احتلال السفارة الأمريكية فى طهران ، إذ لم يكن من المفضّل جماهيريًا أن يأخذ أحدٌ مأخذَ الجدِّ مظالم الإيرانيين الحالية ضد الملك المخلوع ، وضد السياسة الأمريكية (التى طال عليها الأمد) بمناصرته دون تحفظ . كذلك لم تر الصحافة أن عليها أن تبحث البحث اللازم موضوع انتهاك السيادة الإيرانية فى أغسطس ١٩٥٣ ، عندما تضافرت وكالة الاستخبارات المركزية مع شركة النفط الانجليزية الإيرانية فى تدبير إسقاط محمد مصدق[١١] (وهو ما أفاض القول فيه كيرمت روزفلت فى كتابه الأخير **الانقلاب المضاد** والذى تعجل فى سحبه من الأسواق) وأما سبب تجاهل الواقعة فهو افتراض أن الولايات المتحدة بصفتها دولة عظمى من حقها تغيير الحكومات والعفو عن الطغاة إذا كان ضحاياهم من الأميين ومن الأجناس غير البيضاء ، وفقًا لتقديرنا . وقال جورج أ. جروس ، وهو من الأطباء

النفسيين العاملين فى مقال نشرته صحيفة **نيويورك تايمز** يوم ١١ يناير ١٩٨٠ إن الولايات المتحدة عندما سمحت للشاه السابق بدخول نيويورك كانت فى الواقع تصفح عنه ، وكان ذلك عملاً "مجافيًا للمبادئ الأخلاقية" مثلما كان قرار چيرالد فورد بالعفو ، فى عظمة ، عن ريتشارد نيكسون يدل على "النقص فى قدرته على إصدار الأحكام فى إطار أخلاقى ، وفقدانه التعاطف مع الآخرين حين يغضبون لما يمس الخلق الكريم" .

ولكن أمثال هذه الملاحظات كانت قليلة وتفصل بينها فترات طويلة . إذ إن معظم كتاب التحقيقات الصحفية والمقالات الافتتاحية لم يكونوا يتجاوزون التلطف فى التعبير . وكانوا فيما يبدو يتفقون على أن الإيرانيين قد قاموا بعمل حربى ضد سفارة الولايات المتحدة ، وإن لم يقل أحد ، تقريبًا ، إن ما فعلته الولايات المتحدة ضد إيران عندما أسقطت مصدق فى عام ١٩٥٣ كان عملاً حربيًا . وهاك المثال المعهود على ذلك ، إذ كتب إرنست كونين فى افتتاحية **لوس أنچيليس تايمز** يوم ١٠ ديسمبر ١٩٧٩ يقول :

> يبدو أن الأنباء الصحفية تؤكد صحة ما يقول به خبراء الشرق الأوسط من أن ما نشهده حقا هو التمرد الواسع النطاق على المؤثرات الدافعة على القلقلة التى صاحبت حركة التحديث بالأسلوب الغربى فى السنوات الأخيرة .

إن كراهيــة الشاه لا ترجع فــقط إلى أن رجال شــرطته كانوا يعذبون الناس ، بل أيضًا إلى أنه رفع الدعم الحكومى الذى كان يتقاضاه رجال الدين ، وإلى أنه قاد ثورة صناعية تســببت فــى اقتــلاع جــذور الإيرانيين من أســاليب الحيــاة التقليدية فى الريف .

وأما ســبب اختــيار "الشيطــان أمريكا" لدور الشرير الرئيسى، لا فى إيران فحسب بل فى بلدان أخرى كذلك ، فهو أن الولايات المتحــدة ظلت على مدى ٢٥ سنة ، القوة الأشد بروزًا فى المنطقة ، وأصبحت من ثم الرمز 'الجاهز' للقــوى الأجنبيــة التى تســببت فى هذه الــتغــييــرات غيــر المستحسنة لديهم .

إن جانبًا كبيرًا من هذه الحجة المقامة ضد الإيرانيين تستند إلى افتــراضات غــير مــصرح بــها ، وهكذا فــلابد من قراءتهــا بعناية وحرص ، إذ إن كونين يقول ضمنًا ، أولاً ، إن "المؤثرات الدافعة على القلقلة" التى صاحب حركة "التحديث بالأسلوب الغربى" هى نتيــجة للمحاولة التى بــذلها الغرب بحسن نيــة لإخراج إيران والإســلام من الماضى إلى الحاضــر ، وبعــبارة أخــرى ، إن إيران والإسلام متخلــفان والغرب متقدم ، ولا غرو إذا عــانى المتخلفون فى مــحاولتــهم اللحــاق بركب التــقــدم . ولكن ذلك من أحكام القيمة، وهى أحكام تقبل الطعن فيها بوضوح وجلاء وهى تستقى جــوهرها ، كــمــا ألمحت فى الفــصل الأول ، من أيديولوجــيــة

التحديث . وإلى جانب ذلك ، يفترض كونين ، دون أى مبرر سوى تحيزه العرقى الضيق ، أن الإيرانيين لم يغضبوا من التعذيب قدر غضبهم من إهانة 'رجال الدين' لديهم، وهو يسميهم عمدًا تسمية توازى ، حرفيًا ، تعبير 'رجال القداسة' أو 'المقدسين' ، للإيحاء بالشعوب البدائية وأطبائهم السحرة الذين يُطلق عليهم هذا التعبير . وهو يوحى ، بالإضافة إلى ذلك بأن الإيرانيين قد لا يشاركوننا ما يخامرنا ''نحن'' من أحاسيس . وآخر مسألة يطرحها ترتبط بهذه المسائل وتطوّرها ، إذ يعتبر أن الإيرانيين المتخلفين قد أخطأوا بعدم تقديرهم الجهود القائمة على النوايا الحسنة التى بذلها الأمريكيون والنظام البهلوى لتحقيق التقدم فى إيران ؛ وهكذا لا يكتفى بتبرئتنا ''نحن'' ، بل يدين الإيرانيين إدانة خفية لجهلهم بقيمة نمط الحداثة لدينا ، ولهذا يعتبر الشاه السابق (فى رأيه الموحى به) شخصية نبيلة سامية .

ولم نلمح إشارات تذكر إلى الحقيقة التى ليست خفية باطنة، بل ولا يصعب الوقوف عليها ، وهى أولاً أن الشركات الأمريكية العاملة فى المنطقة قد حققت أرباحًا طائلة (ولم يكن من الصعب إقامة الصلة بين زيادة أرباح شركات النفط بنسبة ٢٠٠ فى المائة فى السنوات القليلة الماضية وبين ثروة الأسرة البهلوية) وثانيًا أن معظم الإيرانيين ، مثل الملايين الكثيرة من العرب الذين لا يستفيدون مباشرة من النفط، يرون أن الثروة المرتبطة بالأمريكيين تمثل عبئًا من لون ما . وأما إذا قيل إن الشاه كان يلجأ أحيانًا إلى قليل من

التعذيب ، على نحـو ما ذكرت **واشنطن بوست** فى ١٦ ديسمبر ''فلنا أن نحـتج بـأن ذلك كـان يتـفق تمامًـا مع تقـاليـد التـاريخ الإيرانى''. ويبدو أن المعنى الموحى به هنا هو أنه لما كان الإيرانيون قد تعرضوا على مـر التاريخ للتعذيب فإن أى محـاولة من جانبهم لتـغييـر هذا القَـدَرِ المكتوب تدخل فى باب خـيانتـهم لتاريخـهم الخاص، ناهيك بطبيعتهم الخاصة .

وفـيمـا يلى هذا الموقف المنطقـى الذى لا يمكن دحضـه (!) والذى طالعنا فى موضـوع صحفى كـتبه أ. شـانش فى صحيـفة **لوس أنجيليس تايمز** بتاريخ ٥ ديسمبر ١٩٧٩ ، إذ يقول إنه لما كان الدستور الإيرانى الجديد ''من أغرب الوثائق السياسـية فى العصر الحديث'' ولما كان لا يشبـه الدستور الأمريكى شـبهًا كبيـرًا (فهو يخلو من الضـوابط !) فإن صـعود الخـومـينى إلى السلطة لا يقل سوءًا عن جلوس الشـاه على العرش . والواقع يقول إن الدسـتور الإيرانى الجـــديد ينص ، نظـريًا على الأقـل ، على ''الأحكام الخاصـة بانتخاب رئيس الجمـهورية ونواب البرلمان انتـخابًا شعبيًّا وعلى وجود جهاز قضائى منظم'' ولكن شانش لا يقيم وزنا لهذا أو لذاك باعـتـبارهمـا (فى رأى شـانش) ''من مظاهر الزخـرفـة الديمقراطية''. أى إن شانش لا يشير إطلاقًـا إلى ما عرضه إريك رولو وقدم لـه تحليلاً مفـصّلاً فى صـحيـفة **لوموند** يومى ٢ و ٣ ديسمبر ١٩٧٩، ونعنى به المناظرة الحامية الوطيس بشأن الدستور، والخلافات التى نـشأت حول دور الخومينى على وجـه الدقة وهلم

جرًا . وبعبارة أخرى فإن شانش كان يقدم رأيه الخاص ، أى رأى المحرر الصحفى ، على أنه الحقيقة الواقعة للدستور الإيرانى ، على الرغم مما كان يقع أمام عينيه فى الواقع . وأما ما تلا ذلك من أحداث جعلت النظام الجديد فى إيران لا يبدو مبشرًا بأى خير بحلول منتصف عام ١٩٨٠ فكان من قبيل المصادفة المحضة وثمرة لنضال مرير ، كانت نتيجته محبطة لآمال الكثيرين من الإيرانيين (وغير الإيرانيين) من مناصرى الثورة . وكذلك ، وبلا شك ، كان ظهور مرشح للرئاسة يمثل أقصى اليمين فى الولايات المتحدة - أى أنه كان مصادفة لا تقل إحباطًا للآمال !

وباستثناء أندرو يَنْج ، وهو استثناء جدير بالتنويه ، لم يعلق واحد من الشخصيات العامة البارزة فى الولايات المتحدة ولم يقل أى شىء فى عام ١٩٧٩ عما كان النظام السابق يعنيه للإيرانيين الذين اتخذوا ما اتخذوه من إجراءات ضد الولايات المتحدة ، ولم يذكر أحد شيئًا عن ذلك للمراقبين مثل القساوسة الثلاثة الذين تولوا إقامة صلوات عيد الميلاد فى طهران فى السفارة، ولا لجماعات رجال الدين المسيحى الذين كانوا فى طهران فى أواخر ديسمبر (وظهر هؤلاء وهؤلاء فى برنامج ماكنيل / ليرار يوم ٢٨ ديسمبر و يوم ٤ يناير) . ولقد شاركت الصحافة فى هذا الصمت إذ ظلت تتعامل مع الشاه السابق لما لا يقل عن عشرين يومًا من دخوله الولايات المتحدة باعتباره حالة إنسانية لا يجوز فيها إلا التعاطف والإشفاق ، فبدا ، بعد تجريده من ماضيه السياسى ، لا

علاقـة له ، على نحو ما ، بما يحـدث فى السفارة الأمـريكية فى طهران . وحاول بعض الصحفيين ، وعلى رأسهم دون أوبردورفر من **واشنطن بوست** ، اقتفـاء الخطوات الملتوية التى اتخذها داڤيد روكيفـيلر ، وهنرى كيسنجر ، وجون مـاكلوى ، للضغـط على حكومة الولايات المتحـدة حتى تقبل حضوره إلى هنا . ولكن هذه الحقـائق ،وكذلك الارتبـاط الطويل الأمد بين الشاه الـسابق وبنك تشـيس مانهـاتن - وهو الارتباط الذى كـان يمكن أن يساعـد فى تفسـير أسـباب عداوة الإيرانيين - لم يقل أحـدٌ إن لها أية عـلاقة بالاسـتيـلاء على السفـارة ، وقدم الـصحـفيـون بدلاً منها عـدة تفسيرات تتسم بالتلطف فى التعبيـر لأزمة الرهائن باعتبارها نتيجة لتلاعب الخـومينى ، وحاجـته إلى صرف أنظـار الشعب عنه إلى شىء آخر ، وللصعوبات الاقتصادية الداخلية وما شابه ذلك (انظر **لوس أنجيليس تايمز** فى ٢٥ و ٢٧ نوڤمبر، و ٧ ، و ١١ ديسمبر، وكذلك **واشنطن بوست** فى ١٥ نوڤمبر) .

لقد اقتنعت فى النهاية أنه ليس من قـبيل السخرية المفرطة أن نقول إن مـوقف حكومة الولايات المتحـدة برمته تجاه إيران (كـما يرمز له رفض الرئيس كارتر مناقـشة تعاملات البلد فى الماضى مع إيران ، وهى التى يصفها بأنها ''تاريخ غابر'') يعتبر وسيلة مفيدة لتحويل عـداء أجهزة الإعلام للإيرانيين وللإسلام ، وللعـالم غير الغربى بصفة عامة ، إلى رأس مـال سياسى له فى عام الانتخابات الأمريكيـة . وهكذا ظهر الرئيس فى صورةِ من يحـافظُ على قوة

أمريكا فى وجه الهجمات الأجنبية المنحطّة ، وكان هذا ، إذا قلبنا الصورة ، هو موقف الخومينى فى إيران . كان رفض كارتر استخدام القوة يعرضه أحيانًا لسهام الاحتقار التى يصوبها وليام سافاير وجوزيف كرافت ، ولكنه فيما يبدو قد أكد للجمهور أنه يدعم المعايير الغربية للسلوك المتحضر ، إذا قورن بما يفعله من أصبحوا يسمّون "بالإرهابيين" الإسلاميين . وكان من الآثار الأخرى للأزمة أنْ صوَّرَتْ أجهزةُ الإعلام بعضَ الحكّام الآخرين، مثل الرئيس السادات ، فى صورة 'المعيار' المرغوب فيه للإسلام (بعد أن ردَّدتْ ، مرارًا وتكرارًا ، وصفه للخومينى بأنه مجنونٌ وعارٌ على الإسلام) . وكان هذا يصدق أيضًا على الأسرة المالكة السعودية ، وأما ما لم تتناوله أجهزة الإعلام فى الوقت نفسه فكان يتمثل فى مقدار هائل من المعلومات المثيرة للقلق ، إلى جانب إطالة الأزمة إلى مدى بعيد فى حالة إيران .

خذ مثلاً السادات والسعوديين أولاً . لقد اتفقت الآراء منذ اتفاقيات كامب داڤيد عام ١٩٧٨ على أن السادات هو صديقنا فى المنطقة ، إذ اشترك مع مناحم بيجين فى التصريح علنًا عن استعداده للقيام بدور الشرطى الإقليمى ، وإتاحة القواعد العسكرية فى أراضيه للولايات المتحدة وما إلى ذلك بسبيل . وكان من نتائج ذلك أن معظم الأنباء التى تنقلها أجهزة الإعلام من مصر أصبحت تُصوِّر وجهة النظر المذكورة فيما يتعلق بالشئون المصرية، والعربية والإقليمية ، فى صورة النظرة الصائبة . والأنباء التى تصلنا الآن

عن مصر والعالم العربى موجّهة لتأكيد تفوق سطوع نجم السادات، وبالمقارنة بهذه الأنباء لا يكاد يصلنا شيء عن المعارضة التى يواجهها ، كما إن الافتراض السائد هو أنه يمثل 'المعيار' السياسى والمصدر الرئيسى للأنباء أيضًا . وبطبيعة الحال كان ذلك نفسه ما حدث فى ظل نظام الحكم البهلوى فى إيران ، وإذا استثنينا مقالاً يتفرد بنبوءاته الصائبة كتبه باحث من بيركلى يدعى حامد الجار(١٢) لم نجد من يبدى أى اهتمام بإمكانيات المعارضة الدينية والسياسية للشاه . وتقوم الولايات المتحدة حاليًا بتحقيق عدد كبير من مصالحها السياسية والعسكرية والاستراتيجية والاقتصادية من خلال السادات ، ومن خلال منظور السادات الخاص للأمور. ويرجع جانب من هذا إلى جهل أجهزة الإعلام، وإلى تفضيلها "للشخصيات" اللامعة البراقة ، وإلى الانعدام شبه الكامل للبحث والتحرى فى العمل الصحفى فى إطار المناخ الأيديولوجى السائد حاليًا فى مصر والشرق الأوسط.

ولسوف نجد أسبابًا أخرى لذلك أيضًا ، أحدها هو الجوانب **المحلية** الحساسة للشرق الأوسط . فليس من قبيل المصادفة ألا نطالع ، بعد فضيحة ووترجيت ، وشتى ما أميط اللثام عنه من أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية ، وصدور قانون الحرية الإعلامية ، أية ' مكتشفات' كبرى بشأن تورط الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط . ويتضح هذا بالنسبة لإيران ، لا لأن الكثير من الأمريكيين كانوا مرتشين وحسب بل أيضًا بسبب انغماس

إسرائيل انغماسًا شـديدًا فى أنشطة الولايات المتحدة فى المنطقة فى ظل نظام الشاه . إذ إنه أنشـأ شرطته السـرية بمساعدة مبـاشرة من جهاز الموساد الإسرائيلى ، وعلى نحو ما شهدنا فى حالات كثيرة أخرى ، كانت وكـالة الاستخبـارات المركزية ومكتب التحقـيقات الفـيـدرالى يـتـعـاونان عن طيب خـاطر مع الأجـــهـزة السـرية الإسرائيلية(١٣) وقد نشرت الصحافة الإسرائيلية سلسلة من المقالات التى ترفع الستـار عن الكثيـر فى عام ١٩٧٩ وفى أوائل ١٩٨٠ ، وكان من بين كـتابها 'أورى لوبرانى' وآخرون ممن كـانوا مكلّفين بإدارة التـعاون بين إســرائيل وإيران قـبل الثـورة (انظر صـحيـفة **دافار**، ٢٠ مـارس ١٩٨٠ ، وصـحيـفـة **ها آرتس** ، ١٠ يناير ١٩٨٠) ولم تنشر الصحف الأمريكية أى شىء من هذا ، ربما لأنه قد يبدو محرجًا لإسرائيل وماسًّا بصورتها كبلد ديموقراطى محب للحرية . وفـى الوقت الذى هبت فيه المؤســسة الاجـتماعـية فى الولايات المتحدة برمّتها لمعارضة أى اعتزام لتسليم الشاه السابق إلى إيران ، كـان شـاب فلسطينى فـقـير يدعـى زياد أبوعين ، يكابد إجراءات الترحيل المـطولة وما يصاحبها من عذاب ، لتـسليمه إلى إسـرائيل (إلى جانب رفـض الكفالة وحـرمـانه من حق الحضـور للشهادة) وبالتعاون الإيجابى من جانب وزارة الخارجية الأمريكية . وأما السـبب (والسبب الأوحد) فكـان أن الحكومة الإسرائيليـة قد زعمت أنه كان إرهابيًّا مسئـولاً عن حادث تفجيـر قنبلة قبل ذلك بعامين ، وكان ذلك الزّعم لا يستند إلا على اعتراف شخص آخر

وهو فلسطينى أيضًا ومن نزلاء أحـد السجون الإسرائيلـية ، وكان الاعتراف المنتزع منه ، والذى عَدَلَ عنه فيـما بعد ، باللغة العبرية التى لا يعـرفها . ولم يكد شىء من هـذا يسترعى انتـباه أجـهزة الإعلام ، باستثناء المقالة المهمة التى كتبتها كلوديا رايت المحررة فى **نيو ستيتسـمان** ، فى عددى ٧ يناير و ٢١ يناير ١٩٨٠ من مجلة **إنكوايرى** بعنوان ''اللعب بتسليم الأشخاص'' .

أضف إلى ذلك أن انتـشار القلق عـلى استـقرار بلدان مـثل المملكة العربيـة السعودية والكويت لم يؤد إلى أى اهتـمام إعلامى يتناسب مع مـستـوى هذا القلق ، باسـتثناء الانتـقادات الضـيقـة المحدودة و' الانتقـائية' إلى أبعد حـد ، والخاصة بما تتـعرض له المملكة العربية السعودية من أخطار تحدثت عنها فى الفصل الأول. فإذا استعرضنا الشبكات التليـفزيونية والصحف الكبرى لم نجد إلا ما أشار إليه إد برادلى ، فى محطة إذاعة كولمبيا ، يوم ٢٤ نوڤمبر ١٩٧٩ ، من أن جمـيع المعلومـات الخاصة بـاحتلال الحـرم المكىّ جاءتنا من الحكومة ، وأن الحكومـة لم تسمح بخروج أنباء من أى مصدر آخر ، ولكن هيلينا كوبان ، المحررة فى **كريستيان سيانس مونيتور** نقلت من بيروت يوم ٣٠ نوفمبر نبأً يفيد بأن احتلال ذلك المسجد كان له معنى **سياسى** قاطع بكل تأكيد ، وبأن المعتدين لم يكونوا على الإطلاق من المتعـصبين الإسلاميين فـحسب، بل كانوا يمثلون جـانبًـا من شبـكة سيـاسـية لـها ، إلى جـانب البـرنامج الإسلامى، برنـامج علمانى يعـارض بشدة احتكار الأسـرة المالكة

السعـودية للسلطة والمال . وبعد بضعـة أسابيع ، اختـفى المصدر الذى اعتمدت عليه ، وهو أحد السـعوديين المقيمين فى بيروت ، والمعتقد أن الاستخبارات السعودية هى المسئولة عن اختفائه .

ومن المحتـمل ، بعد غزو أفغـانستان ، أن يزداد زيادة كبـيرة عمق الهوة التى نراها تفـصل بين الصالح والطالح من المسلمين ، وأن يزداد عدد الأنبـاء التى تهلل لمنجزات المسلمين الصـالحين مثل السادات وضياء الحق والمجاهدين الأفغانيين الذين يقاومون الغزو ، وأن تزداد معادلة الإسلام الصالح بمناهضة الشيوعية ، وأيضًا ، إذا أمكن ، بالتحـديث . ولكن ما أقل من يعادلـون مقاومة الأفـغان للاحتلال السوڤييتى بمقاومة الفلسطينيين للاحـتلال الإسرائيلى ، وهو ما أشـار إليه الملك حـسين ، عاهل الأردن ، حين ظـهر فى البرنامج التليـفزيونى **"لقـاء الصحـافة"** يوم ٢٢ يونيو ١٩٨٠ . وأما فى حـالة المملكة العربية السـعودية ، فإن الأخطار المصاحـبة للاسـتثـمارات الهـائلة فيـها لم يلتـفت إليهـا (وهو ما لا يـدعو للدهشة) إلا مـن يناصرون إسرائيل من الأمـريكيين ، إذ يرون أن الرعاية الأمريكية ينبغى ألا تـتحول من إسرائيل إلى العرب . ومن الشواهد علـى ذلك المقال الذى كتـبه پيـتر لوبين فى **نيو ريبـبلك** بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٩٧٩ بعنوان "ما لا نعرفه عن المملكة العربية السعودية" . وهو يقدم وجـهة نظر مـقبولة ، ولو أنـه يبالغ فى عرضـها ، وهى أن علينا أن نرفض الكثيـر مما يقال أو يكتب عن دول النفط الخليجية لأنه يقوم إما على أساس الدعاية للأسر المالكة

أو على الجهل . ومع ذلك فـهو يبدى العجـز الكامل عن توسيع نطاق انتقاداته حتى تشمل ما يكتب عن إسرائيل ، أو عن الانحياز لإسـرائيل ، الذى لا يسـتعـصى على الإدراك ، فى الكـثيـر من مناهج دراسات الشرق الأوسط بشتى الجامعات . وعلى غرار ذلك ، كـان يجب على لوبين ، فى إطار إصـراره المحقّ على ضـرورة تحرى الصحـفيين للصدق فى المعلومات الخاصـة بحلفائنا من ذوى الثروات النفطية ، أن يقول مـا لم يقله من أن الكتابة عن إسرائيل تفتقر افتقارًا ، ذاع سوء صيته ، إلى الدقة العلمية والإنصاف .

رابعًا: بلد آخــر :

نســتطيع تلخـيص كل ما قلتـه حـتى الآن عن تناول أجهـزة الإعلام للإسـلام وإيران فى الشهور الأولى لأزمـة الرهائن ، التى وصل فـيهـا التوتر إلى ذروته والـكرب إلى أقصى مـداه فى بضع نقاط رئيسـية . وأجدى أسلوب لإيضاح وصيـاغة هذه النقاط هو النظر فى التـصوير الأمريكى العـام لقصة إيـران ومقارنتـه بإحدى الصور الأوروبية ، وهى سلسلة المقالات اليومـية التى كتبها إريك رولو فى صحيفة **لوموند** الفرنسية ، والتى استمرت من أول أسبوع للأزمـة حتى آخـر ديسمـبر ، وعنـدما طلبت إيران بعـدها ، فى يناير، مغـادرة معظم الصحفـيين لإيران ، نشرت صحيـفة **التايمز** مقالات رولو المذكـور لعدة أيام. ومن المهم ، بطبيـعة الحال، ألا ننسى أن رولـو ليس أمـريكيًـا ، وأن إيران لم تحـتـجـز رهائن فرنسيين، وأن إيران لم تكن فى يوم من الأيام داخل منطقة النفوذ الفرنسى وأن أجهزة الإعلام الفرنسية ليست أفضل كثيرًا ، باستثناء ما كتبـه رولو ، من نظيرتها الأمريكية . ومن المهم أيضًـا أن نشير من جديد إلى أن الكمية المذهلة من المادة الإعلامية فى هذه التغطية أتاحت ظهور عدد معين من الموضوعات البالغة القيمة، والتى تتسم بأنها تعارض الـرأى المتفق عليه ، بصفة عـامة (وإن لم يكن ذلك فى جميع الأحوال) . ولننظر إلى بعض المقالات المختارة للنشر فى **لوس أنجيليس تايمز وبوسطن جلوب** ، وبعض المقالات الإبداعية عن البدائل المتاحة لاستعمال القوة ومحاولات التناول الجاد لحقائق

الواقع فى إيران (مثل مقال ريتشارد فولك فى **أتلانتا كونستيتيوشن** فى ٩ ديسمبر ، ومقال روجر فيشر فى مجلة **نيوزويك** فى ١٤ يناير) وبعض المادة الصحفية الممتازة عن خلفية السماح للشاه بدخول البلاد ، والتحليل السياسى الجيد الذى يصادفنا من حين لآخر ، والموضوعات الصحفية التى تتميز بالسرد الشائق ، (ومن الأمثلة ما كتبه دويل ماكمانوس فى **لوس أنجيليس تايمز** وكفنر فى **نيويورك تايمز**) فهذه بعض نماذج المادة الراقية التى نشرت فى الأسابيع القليلة الأولى لأزمة الرهائن ، وكانت فى متناول أى قارئ تقريبًا ممن كانوا يتطلعون إلى شىء يتجاوز الاتجاه الوطنى الضيق الذى كان الكتاب يلتزمون به فى أغلب الأوقات . وعلينا أن نذكر أيضًا مقالين يتسمان بالقوة البالغة ويتناولان النُّعَرَة الوطنية المفرطة التى ظهرت أخيرًا وتجلت فى تعليق شارات على الصدر عن "إيران النووية" وغيرها ، واللذين نشرا فى مجلة **إنكويرى** (٢٤ ديسمبر و ٧ -٢١ يناير) وأن نشير كذلك إلى المعلومات التى جاءت فى الوقت المناسب تمامًا ، وعرضها فريدج كوك فى مقال نشره فى **ذا نيشن** بتاريخ ٢٢ ديسمبر ، وتناول فيها قضية العدول غير المفهوم عن التحقيق الذى كان الكونجرس قد شرع فيه عام ١٩٦٥ فيما يسمى بردود الفعل الإيرانية ، ويبين فيها أن المسئولين يحولون دون استئنافه ، ولأسباب غير مفهومة أيضًا ، فى هذا الوقت الذى أصبح فيه ذا صلة بالقضية وبصورة عاجلة .

وأما الغالب الأعم فهو أن التليفزيون والصحف اليومية

والمجلات الإخبارية الأسبوعية عالجت أنباء إيران بأسلوب أبعد ما يكون عن الفهم العميق والإدراك الفطن لما يجرى فى إيران ، وهو ما يتجلى فى سلسلة المقالات التى كتبها رولو لصحيفة **لوموند** فى الفترة نفسها . فإذا شئت المبالغة قلت إن ما كتبه رولو يجعل إيران تبدو بلدًا آخر ، يختلف عن البلد الذى تصوره أجهزة الإعلام الأمريكية . فلم يغفل رولو لحظة واحدة عن الحقيقة وهى أن إيران بلد ما زال يمر بتحولات ثورية هائلة ، ولما كان بلا حكومة ، فإنه يمر بمرحلة إنشاء مجموعة جديدة كل الجدة من المؤسسات والإجراءات والحقائق السياسية الواقعة . ومن ثم فلا مناص من النظر إلى أزمة سفارة الولايات المتحدة باعتبارها أزمة نشأت فى إطار التحولات المذكورة ، وهى التى كثيرًا ما تختلط صورها على الباحث ، لا خارج إطارها . وهو لا يلجأ إلى الإسلام مطلقًا لإلقاء الضوء على الأحداث أو الشخصيات . ويبدو أنه نظر إلى مهمته الصحفية باعتبارها تشمل تحليلاً للسياسة والمجتمع والتاريخ فى كل بلد ، على الرغم من تعقيدها ، دون اللجوء إلى التعميمات الأيديولوجية والألفاظ الرنانة التى تفتقر إلى المعانى الواضحة ، حتى إذا لم تؤد تطورات الموقف إلى النتائج المرجوة ، على نحو ما حدث فى الواقع فيما بعد ، ولم تسر فى الطريق الذى نستطيع فهمه . لم يتحدث صحفى أمريكى واحد عن المناظرة المديدة فى إيران حول الاستفتاء الدستورى ، وما أقل التحليلات التى صادفناها عن شتى الأحزاب ، وأندر الإشارات

إلى الصراعات الأيديولوجية المهمة التى تفصل ما بين بهشتى ، وبازرجان ، وبنى صدر ، وقطب زاده ، ولم يعرض صحفى واحد للحديث عن شتى مناهج النزاع التكتيكى المستخدمة فى إيران ، أو يقدم لنا تحليلات مفصلة (حتى منتصف عام ١٩٨٠ على الأقل) عن العديد من الشخصيات والأفكار والمؤسسات السياسية المتنافسة على السلطة والاستئثار بانتباه الجماهير ، ولم يشر صحفى أمريكى واحد إلى أن الحياة السياسية فى إيران تكتسى فى ذاتها من الأهمية ما يجعلها جديرة بالدراسة ، خارج نطاق السؤال عما إذا كان الرهائن سوف يُفرج عنهم أو التساؤل عمّا إذا كان أحد الأطراف مناصرًا لأمريكا أو معاديًا لها . بل لقد كان التجاهل من نصيب بعض الأحداث الحاسمة مثل زيارة بنى صدر للطّلاب فى السفارة يوم ٥ ديسمبر ١٩٧٩ ، بل ولم يشر أحد ، ولو إشارة عابرة ، إلى الدور المهم الذى لعبه فى السفارة حجة الإسلام خوئينى ، وهو الذى تصادف أن كان كذلك مرشحًا لرئاسة الجمهورية فى إيران . وقد كانت هذه بعض الموضوعات التى عالجها رولو .

والأهم من ذلك أن رولو قد استطاع التسليم مقدمًا ، فيما يبدو ، بأنه قد يكون للشخصيات أو التيارات الفكرية المؤثرة فى الأزمة دور جاد وجدير بالنظر ، فلم يتهور فى الحكم على الأمور، ولم يصدر أحكامًا مسبقة على شيء ، ولم يقدم أيًّا من النتائج التى يحبّذها المسئولون دون مبررات ومقدمات ، ولم يتوان

عن التحقيق فى كل مـوضوع من موضوعاته الصحـفية . ويتضح لنا من مـقـالات رولو أن زيارة هانسن ، عـضـو مـجلس النواب الأمريكى ، لإيران حـققت من النجاح مـا لم نكن نظنه ، بل إن رولو يقدم لنا أدلة كثيـرة فى مقاله المنشور يوم ٢٤ نوڤمبر ١٩٧٩ على أن البيت الأبيض (مـع أجهزة الإعلام الأمـريكية) قد تعـمد السـمـاح للـنجـاح الذى أحـرزه هانسن مع الإيـرانيين بأن يذوى ويذبل، على نحـو ما قمع البـيت الأبيض إمكان قيـام الكونجرس بالتحقيق فى الإجراءات المصرفيـة المشتركة ما بين الولايات المتحدة وإيران (وهو ما كان يريده الإيرانيـون ، وربما كانوا يطلبون إجراءه فى مقـابل الإفراج عن الرهائن) . وقـد تحدث رولو بالتفـصيل ، على مـدى النصف الأخـير من عـام ١٩٧٩ عن الصـراع بين بنى صدر وقطـب زاده ، والأول اشتراكى ومنـاهض للإمبريـالية دون هوادة ، والأخيـر يلتزم بموقف المحافـظين تجاه القضـايا السياسـية والاقتصادية ، كما سجل مـواقفهما التى تتسم بالتناقض الظاهرى إزاء أزمة الرهائن فى نوڤمبروديسمبر (فبنى صدر يدعو إلى حلّها، وقطب زاده إلى تصعيدها) .

وأما ما نستطيع تخمـينه - وإن لم يذكره أى صحفى أمريكى - فهو أن الولايات المتحدة كـانت تفضل التعامل مع قطب زاده ، وتشجع ، فيما يبدو ، إقصاء بنى صدر عن وزارة الخارجية (بعدم أخذه مـأخذ الجد ، والعمل على الانتـقاص من مقتـرحاته ، بل وإطلاق صـفة 'العبـيط' عليـه فعـلاً) . ومن الواضح أيضًـا أن

مواقـف حكومة الولايات المتـحدة تجـاه إيران (وتفضـيلها المـؤكد للتعامل مع المحافظين على التعـامل مع الاشتراكيين) فى ضوء فوز بنى صدر برئاسة الجمهورية القـريب ، ذات علاقة ما بهذه الفترة، كما يتصل بهـا أيضًا السبب الحقيقـى لسقوط بازرجان : لم يكن ذلك السبب قطعًا أنه كان ليبراليًا ديمقراطيًا ، وهو ما كانت أجهزة الإعلام الأمريكية تفضل القول به ، ولم يكن أنه صافح برزنسكى فى الجـزائر ، بل كان افـتقـاره إلى الكفاءة والقـدرة على تحقـيق السياسات " الإسلامية" المعلنة لحكومتـه . ويبيّن رولو أيضًا فى مقال من أهم مقالاته (وهى التى نشرت صحيفة **مانشستر جارديان** صورة مخـتصرة لها فى ٢ ديسمـبر ١٩٧٩) كيف شنّت الولايات المتحدة حـربًا اقتصادية متـصلة الحلقات ضد إيران قبل الاسـتيلاء على السفـارة بوقت طويل ، فى نوفـمبر ، ومن الجوانب التى لا تبشر بالخـير فى هذه الحرب استـمرار مصرف تشيـس مانهاتان فى القيام بدور رئيسى فيها .

ويرجع نجاح رولو إلى عـدة عوامل منها أنه صحـفى قدير ، ومنها أن الخبرات التى اكتسبها فى بلدان الشرق الأوسط لها تاريخ طويل ، ومنها أنـه ، مثل نظرائه الأمريكيين ، يـكتب وقد وضع نصب عينيـه قراء صحـيفتـه فى بلده . فالواقع أن **لوموند** ليست مجرد صحـيفة فرنسيـة من بين الصحف الكثيرة ، لكنها صحـيفة التوثـيق الأولى ، ولا شك أنها ترى أن عـملها هو تقـديم صورة العالم وفقًا لمفهوم معين عن المصالح الفرنسية . وهذا المفهوم يفسر

لنا ، إلى حد ما ، سر الاختلاف بين صورة إيران كما يراها رولو وصورة إيران فى **نيويورك تايمز** فالنظرة الفرنسية تقوم على الوعى بأنها نظرة **بديلة** أى إنها لا تشبه نظرة القوة العظمى بل وتختلف عن نظرة الأوربيين الآخرين . أضف إلى ذلك أن موقف فرنسا تجاه الشرق (وموقف لوموند إذا اعتبرناه امتدادًا له) موقف قديم قائم على الخبرة ، فهو يحرص على مراعاة ما طرأ من تغيير بعد زوال الاستعمار ؛ ولا يهتم بالقوة الغاشمة اهتمامه بالانتشار والاستراتيجية والتحولات ؛ ويركز على بذر بذور المصالح وتنميتها بدلاً من حماية الاستثمارات الهائلة فى نظم حكم معزولة ؛ ويقدم على الانتقاء ويقبل التغيير ويراعى الفروق الدقيقة (وقد يذهب البعض إلى أنه انتهازى) فيما يختار أن يبدى رضاه عنه وفيما ينتقد. والواقع أن **لوموند** تقوم على الملكية الجماعية ، فهى صحيفة البورجوازية الفرنسية ، وهى تعبر إزاء العالم غير الفرنسى عن سياسة تعددت أوصافها وتنوعت فقيل إنها تبشيرية ، أو رعوية، أو أبوية ، أو "اشتراكية ذات قلب رحيم" أو إنها تنتمى لحركة التنوير فى القرن الثامن عشر ، أو كاثوليكية تقدمية (لويس ويزنيتسر فى صحيفة **كريستيان سيانس مونيتور** بتاريخ ١٣ مايو ١٩٨٠ ، وجين كريمر فى **نيويوركر** بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٨٠)[١٤] مهما يكن الأمر ، فالعبرة حقًا بالمنهج الذى تتبعه **لوموند** ، واعيةً دون شك ، فى محاولة تغطية أنباء العالم كله . فإذا كانت **نيويورك تايمز** تهتدى أساسًا ، فيما يبدو، بالأزمات الطارئة وبما

هو جدير باعتباره من "الأنباء"، فإن **لوموند** تحاول توثيق معظم ما يحدث فى الخارج أو الإشارة إليه على الأقل . ولا ينفصل الرأى فيها عن الحقائق بنفس الدرجة من الصرامة التى ينفصلان بها عن بعضهما البعض ، فيما يبدو (ولو اقتصر ذلك على الانفصال الشكلى) فى صحيفة **التايمز**، ومن نتيجة ذلك أنه عندما تعرض موضوعات صحفية أو قضايا تتسم بتعقيد غير عادى ، نجد فى **لوموند** قدرًا أكبر من المرونة ، سواء كان ذلك فى الطول أو التفاصيل أو العمق فى التحقيق الصحفى . والحق أن لوموند توحى فى أنبائها الصحفية بالحُنكة بشئون العالم ، وأما **التايمز** فتوحى بالاهتمام الرزين الوقور ، والانتقائى إلى حد ما . ولننظر الآن فيما كتبه رولو يومى ٢ و ٣ ديسمبر ١٩٧٩ .

يبدأ رولو بالإشارة إلى الاهتمام بصورة غير عادية ، على مدى الشهور الثلاثة السابقة ، بالمناقشة حول الجمعية المكلفة بوضع الدستور ، إذ عقدت المئات من الاجتماعات العلنية ، نقل التليفزيون وقائع الكثير منها ، كما قامت الصحافة ، والصحف الحزبية ، بتحليل القضايا المطروحة ، واستغرق المشاركون وقتًا طويلاً فى استنكار العناصر "المناهضة للديموقراطية" فى نصّ الدستور المقترح . (وبالمناسبة ، لم تتعرض أجهزة الإعلام الأمريكية لأى شىء من هذا، تقريبًا) . ويعلق رولو ، بعد ذلك، على الانشقاق ، الذى يعد من المفارقات ، بين الخومينى وبين جانب كبير من **الطبقة السياسية** فى البلد ، ثم يمضى فى تحليله

فيبين بأقصى درجة من التفـصيل كيف استطاع الخومينى رغم ذلك تحقيق إرادته فورًا عن طريق اللجـوء إلى المخاطرة بمخاطبة الشعب مباشرة بدلاً من المراوغة والمماطلة كسبًا للوقت . وقد اقتضى ذلك من رولو ، بطبيـعة الحال ، تحليـل المناظرة الجارية حول الدسـتور (قضاياها ، وأنصـارها ، وأسلوبها) **ثم القوى** الحقيقـية المشاركة فيهـا ، محافظًا على وضوح الصـدع الذى يفصل بين السلطة وبين الدستـور . ونرى من عرضـه للموضـوع فى النهايـة أن الأنصار "الإسلاميين" للخومـينى يمثلون طائفة غير مـتجانسة ، تتـجمع وتتفـرق فى شتى أنحـاء البلد حسـبمـا يقضى به وعى الخـومينى المذهل بما يسـمى "الثورة الـدائمة" بمعنى القـدرة الدائمـة على التغييـر ، وهى التى لا يستطيع التحكم فيها إلا الخـومينى نفسه ، بما جبل عليه من طبيعة "قانونية عسيرة الإرضاء" ، وهذا فى رأى رولو من المفارقـات . وبعد أن يقـدم رولو قائمة بشـتى الأحزاب اليسارية واليـمينية ، والاستشهـاد ببعض المواقف التى اتخذها كل منهـا ، يضع رولو أصـبـعـه على عـدد من مظاهـر التناقض فى الدستور المقترح الذى يقول بأن المرأة يجب ألا تكون مجرد مصدر للمتعة الجـنسية أو الربح الاقتصادى ، وإن كان لا يـصرح بحقوق المرأة ؛ وهو يستنكر النـقابات باعتبـارها من اختراع الماركـسيين ، لكنه ينص على أن مجالس العـمال يجب أن تنهض بدور مهم فى الحـياة الاقـتصـادية ، ويقول إن جـميع المواطنين مـتسـاوون فى الحقوق، ولكن المذهب الشيعى هو الدين الرسمى للدولة ؛ وهلم جرًا . ويؤدى هذا كله إلى الفقرة التالية :

مما لا غنى عنه للإمام الخومينى أن يصدر، دون إبطاء، هذا الدستور القادر على إثارة مناقشات لا تنتهى . لقد أشار عليه الكثيرون بإرجاء الاستفتاء حتى ينتهى اختبار القوة مع الولايات المتحدة ، وقيل له إن البلد الذى يمر بمرحلة انتقالية يستطيع التكيّف بسهولة مع نظام حكم انتقالى يستمر فترة طويلة ، ولكن الخومينى أزاح عن طريقه جميع المشورات والاعتراضات المقدمة إليه .

ومن المفارقات أن يبدو ذلك الشيخ الوقور المقيم فى بلدة قُمْ ذا طبيعة قانونية عسيرة الارضاء ، لمن لا يعرفونه خير المعرفة . فهو يصر على إرساء صرح سلطته على أسس قانونية ، وأرضاه بصورة مباشرة ما اكتسبه من شعبية هائلة فى الأسابيع القليلة الماضية . وأما أى تغيير فى هذه الشعبية فى المستقبل، فسوف يقل دور النص الدستورى فى إحداثه عن دور توازن القوى السياسية الذى سوف تفرزه ''الثورة الثانية'' التى تجرى حاليًا .

إن رولو لا يحاول هنا إصدار أحكام صريحة على شىء (قارن ذلك بالتحليل السطحى الذى نشره دون شانش فى **لوس أنجيليس تايمز** ، وسبقت الإشارة إليه) ولكنه يبين فحسب نقاط الانفصال بين المظهر وبين القوة ، وبين النص وبين القراء ، وبين الشخصيات وبين الأحزاب ، إذ يضعها جميعًا فى مواضعها الصحيحة من سياقها ، وهو فى جوهره فيضٌ دفاقٌ مضطرب .

وأما الذى يحـاول توصيله للقارئ فـهو الإحساس إلى حـد ما لا بالتحولات الجـارية فحسب بل أيضًا بنقاط التـركيز والتنازع داخل هذه التحولات. وأقصى ما يفـعله رولو هو تقديم تقدير للموقف يتسم بالحرص والحذر. إنه لا يلجـأ مطلقًا إلى المقـارنات القائمة على الحماس الوطنى ولا إلى إصدار أحكام القيمة التى تنم عن الجهل.

وإن شئنا إجمال القول قلنا إن ما كـتبه رولو لصحيفة **لوموند** مقـال سياسى بأفـضل معنى من معـانى الكلمة . وأما مـا نشرته أجـهزة الإعـلام الأمريكيـة فلم يكن كـذلك على امتـداد شهـور عديدة، أو قل إنـه كان سيـاسيًا بـالمعنى السيئ. فكل ما بدا غـير مـألوف أو كان غـريبًا عـلى الصحـفيين الأمـريكيين (والغـربيين الآخرين) وصـموه بأنه "إسلامى" وعاملـوه بقدر 'مناسب' من العداء والسخرية . فلم تنجـح إيران ، باعتبارها مجتمعًـا معاصرًا يمر بتغـيير غيـر عادى ومهم فى إحـداث تأثير يذكر فى الصحـافة الغربيـة بصفـة عامة ، والمؤكـد أن هذه الصحـافة نادرًا مـا كانت تسمح لتـاريخ إيران بأن يظهر ، فى العام الأول لقيـام الثورة على الأقل ، بدرجـة كبـيرة من الصـحـة ، بل طغى بوضوح وجـلاء استـعمـال القوالب الجاهزة ، والكـاريكاتيرات اللفظيـة ، وتبدّى الجهل والتعصب العرقى وعدم الـدقة بصورة مفرطة ، إلى جانب ما يكاد يكون خـضوعًا كامـلاً للأطروحة الحكوميـة التى تقول إن أهم ما يعنينا الآن هو "عدم الاسـتسـلام للابتزاز" وما إذا كان الرهائن سوف يُطلق سراحهم أم لا . كان الصحفيون يتهورون فى

التوصل إلى نتائجهم وفى حسم مصير صراع لا يزال دائرًا ، وكان من نتيجة ذلك عدم تبيان العناصر المميزة للحياة الثورية الإيرانية على الإطلاق ، وهى العناصر التى قد تؤدى إلى استمرارها أو انقطاعها ، وقد صاحب ذلك افتراض مقلق ، وهو أنه إذا كانت الولايات المتحدة قد غفرت للشاه السابق وأعلنت أنه حالة إنسانية وجدير بالإحسان إليه ، فلا يهمها ما يقوله الإيرانيون (أو التاريخ الإيرانى نفسه) . وفى أثناء هذه الفترة أبدى أ. ف. ستون من الشجاعة ما جعله يقول بصراحة إن ضرورة اعتذار الولايات المتحدة لإيران "عن قيامنا بإعادة الشاه إلى العرش فى عام ١٩٥٣ ... ليست تاريخًا قديمًا للإيرانيين ، وقد لا تمثل لنا نحن أيضًا تاريخًا قديمًا" (**ڤيليدچ ڤويس** ، ٢٥ فبراير ١٩٨٠) .

كان تناول أجهزة الإعلام لأنباء ' الإسلام' وإيران فى عام ١٩٧٩ يتسم بدرجة بالغة من الضعف والروح العدائية ، حتى إننا لنظن أن ذلك قد أضاع علينا عددًا من الفرص السانحة لحل أزمة الرهائن ، وربما كان ذلك هو السبب الذى حدا بالحكومة الإيرانية فى عام ١٩٨٠ إلى أن تقول إن تقليل عدد الصحفيين فى إيران قد يؤدى إلى تهدئة التوتر ويؤدى إلى الحل السلمى . وأما ما يعتبر أخطر نتائج فشل أجهزة الإعلام ، وما لا يبشر بالخير للمستقبل ، فهو أن هذه الأجهزة لا ترى (بالسهولة وبالثقة اللازمين) أنها تؤدى مهمة إعلامية حقيقية ومستقلة فيما يتعلق بالقضايا الدولية العاجلة وأثناء فترة تأزم حاد . ويبدو أن أجهزة الإعلام لا تكاد تعى أنها

تستطيع ، دون أن يلحقها الضرر ، تصوير الحقبة الجديدة التى ندخلها فى الثمانينيات فى صورة المواجهة بين الثنائيات - ''نحن'' فى مقابل ''هم'' ، والولايات المتحدة فى مقابل الاتحاد السوفييتى، والغرب فى مقابل الإسلام، مع انحياز هذه الأجهزة دائمًا إلى جانب ''الأخيار'' ، إلا إذا وصلنا إلى حيث نعتقد أنه من المحتوم أن تشترك الدولتان العظميان معًا فى تدمير العالم .

ومع ذلك فالإنصاف يدعونا إلى رصد التغييرات التى تتعرض لها أجهزة الإعلام مع مرور الوقت على أزمة الرهائن فى عام ١٩٨٠ . فلقد شهدنا ازدياد التعمق فى فحص دور الولايات المتحدة فى إيران ، إذ خصصت **محطة إذاعة كولمبيا** جانبًا كبيرًا من حلقتين من حلقات برنامجها ''**ستون دقيقة**'' للحديث عن التعذيب أيام حكم الشاه ، وللأحابيل التى قام بها هنرى كيسنجر لحساب الشاه . وأدت صحيفتا **نيويورك تايمز وواشنطن بوست** واجبهما فأشارتا إلى الجهود التى بذلتها الحكومة لمنع إذاعة المحطة لذلك التحقيق (فى ٧ مارس و٦ مارس على الترتيب) وكذلك ، وعلى نحو ما كان متوقعًا ، نشرت جميع الصحف الكبرى موضوعات تعرب فيها عن استيائها وتشكيكها فى الحكمة من القيام بمحاولة الإنقاذ الفاشلة فى أواخر إبريل . واتسع نطاق اتفاق الآراء بما ينم عن زيادة استعداد أجهزة الإعلام بصورة غير مسبوقة للإقرار بإمكان اختلاف الرأى حول إيران . وازداد انتقادها لموقف الحكومة المتسم بالمماحكة والمماطلة مثلما ازداد الوعى لدى القراء

(والذى تعبـر عنه أبواب 'بريد القراء' فى الصحف) بأن أجـهزة الإعلام لا تقـول لنا الحقـيقة الكاملة عن إيران . ومـع ذلك فلقد استمـر العداء للإسلام واستمـر سوء فهمه (وهو المتـوقع) بزعامة الصحف المحافظة مثل **نيو ريببلك** إذ نشرت فى عددها الصادر فى ٧ يونيو ١٩٨٠، مـقالاً بقلم إيلى قـدورى بعنوان ''الغرب يذعن'' يقول فيه إن على الغرب أن ''يبرز صورته ويفرض احترامه'' وإلا استمرت الفوضى التى تضرب أطنابها فى العالم . وكنا نشعر بين الفينة والفـينة باتفاق الآراء الذى يفتّ فى العضد ، علـى نحو ما حدث عندمـا عاد رامزى كـلارك من مؤتمر ''جرائم أمريكا'' فى طهران ، وظهر فى التليفزيون فى برنامج **''قضايا وإجابات''** يوم ٨ يونيو ١٩٨٠ ، وهو البرنامج الذى تـذيعه محطة إيه بى سى ، إذ لم يسمح الذين أجروا المقابلة معه لأنفسهم بتوجيه **سؤال واحد يتطلب الإيضاح الحـقيقى لموقـفه** بل كانت جمـيع أسئلتهم تنضح بالعداء العـميق ، وتفصح عن الانصـياع دون تردد لموقف الإدارة الأمريكية الذى يقول إن كلارك قد ارتكب بذهابه إلى طهران خيانة لوطنة[١٥] .

لكننا كنا نصـادف من وقت لآخـر مواقف مـخـتلفة ، مـثل المقالات الأربعة التى كتبها چون كفنر فى صحيفة **نيويورك تايمز** ، فى ٣٩ و ٣٠ و ٣١ مـــايو وأول يونيـــو ١٩٨٠ ، وهى سلـسلة يتناول فيهـا الثورة الإيرانية بذكاء ، أو مثل المقال الذى كـتبه شول بَخَش عن الثورة الإيرانية فى **مجلة نيويورك لمـراجعة الكتب** (٢٦

يونيـو ١٩٨٠) إذ وجـدنا ما يـنم عن الجهـد المبـذول فى التـأمل والتصـدى لحقيقـة الثورة المستـمرة والتى لا يمكن تفهّم حـقيقتـها بألفاظ نظرية مبسطة أو من حيث دلالاتهـا العملية الصرِّفة . ومع ذلك فإننى أعتقـد أن هذه المقالات ما كانت لتكتب لو أن الرهائن قد أُطلق سراحـهم فعلاً . أى إن احتلال السـفارة - ذلك الحادث اللا أخلاقى ، وغـير القانونى ، والبـشع ، والذى تقتصـر فائدته السياسـية لإيران على الأجل القصير ويؤدى إلى تبـديد الجهود فى الأجل الطويل - قـد فـرض أزمـة وعى ، دون مـبـالغـة ، فى الولايات المتحدة . فبـعد أن كانت إيران مستعـمرة آسيوية لا يكاد يذكرها أو يكترث لها أحد ، أصبحت بين الحين والحين 'مناسبة' لمحاسبة النفس من جانب الولايات المتحدة . أى إن قصة إيران قد أدّت - بسبب إلحاحها نفسـه ، وطولها الزمنى القبيح والمثير للقلق - إلى تغيـير تدريجى فى موقف أجهـزة الإعلام ، فبعـد أن كان يتسم بالتركيز الضيق الذى لا يحيد ولا يتحول عن هدفه ، أصبح يتميز بالمزيد من النقد ويعود بالمزيد من الفائدة . ونستطيع أن نقول بإيجاز إن احتلال السفارة قد أحلّ **الحركة الدينامية** محلّ الغضب الثابت الساكن ، وقد اكتسـبت هذه الحركة الدينامية على مر الأيام تاريخًا خاصًا بها ، ومن خلاله اكتشفت أجهزة الإعلام جوانب فى ذواتها لم تكن تدرى بها (وكذلك الأمريكيون بصفة عامة) . وأما إذا كان هذا ما قصد إليه المتمـردون أصلاً ، أو كان سببًا فى تأخير عـودة الأحوال العـادية بدلاً من حفـزها ، فلم يحن الوقت بعـد

للقطع فيه . ولا شك أنه قد ازداد عدد الأمريكيين الذين يفهمون الآن معنى الصراع على السلطة (من ذا الذى لم يدرك الصراع بين بنى صدر وبهشتى ، وشبح الخومينى يكمن خلفهما فى غموض وإبهام ؟) ولا شك أيضًا أنه قد ازداد عدد الأمريكيين الذين أصبحوا يدركون أنه من العبث محاولة فرض نظامنا ''نحن'' على تلك الفورة العارمة ، أو ، فى هذا الصدد أيضًا ، على المعركة الدائرة بين العراق وإيران . ولا تزال أسئلة كثيرة فى انتظار الإجابة عليها ، مثل ظروف سطوع نجم بهشتى ، وأنماط الصراع بين اليسار واليمين ، وحالة الاقتصاد الإيرانى - وقد يسفر ذلك كله عن شتى النتائج فى القريب العاجل[١٦] .

وأما السؤال الذى لم يستكشف أحدٌ أبعاده ، فهو السؤال الذى يكمن خلف الأزمة ، والذى يجب علينا الآن أن نحاول التعرض له ، ألا وهو : ما أهمية إيران ، وما أهمية الإسلام ، وما هو نوع المعرفة أو التغطية التى نحتاجها لهذا وذاك ؟ ليس هذا السؤال الثلاثى من قبيل الأسئلة التجريدية . ولا يجب أن نعتبره فحسب جزءًا لا يتجزأ من السياسة المعاصرة ، بل هو جانب حيوى أيضًا من جهود البحث الأكاديمى وجهود التفسير التى تتطلب المعرفة بالثقافات الأخرى . لكننا إذا لم نلق نظرة ترفع أستار الغموض عن العلاقة بين السلطة والمعرفة فى هذا السياق ، فسوف نكون قد تهربنا من مواجهة جوهر القضية . وينبغى أن يكون ذلك ما يحدد مسار بحثنا من الآن فصاعدًا .

الفصل
الثالث

3

المعرفة والسلطة

أولاً : المبادئ السياسية لتفسير الإسلام :

المعرفة الصحيحة والمعرفة المضادة :

فى ظل الظروف الراهنة ، حيث لا يعيش " الإسلام" فى سلام مع "الغرب" ولا يعيش "الغرب" فى سلام معه ، بل ولا يعيش كل منهما فى سلام مع ذاته ، قد يبدو من العبث المبالغ فيه أن نتساءل عما إذا كان أبناء ثقافة معينة يستطيعون أن يحيطوا حقًّا بمعرفة الثقافات الأخرى . إن علينا أن نطلب العلم ولو فى الصين، كما يقضى بذلك أحد الأقوال المأثورة الذائعة فى الإسلام، كما اعتاد الناس فى الغرب ، على الأقل منذ العهود اليونانية القديمة ، أن يقولوا بوجوب طلب المعرفة ، ما دامت تلك المعرفة تتعلق بما هو إنسانى وطبيعى . ولكنه كان من المعتقد فى العادة ، فى حدود ما انتهى إليه المفكرون الغربيون ، أن نتيجة هذا

الطلب أو البحث كانت فى الواقع ناقصة معيبة . بل إن فرانسيس بيكون نفسه ، مـؤلف كتاب **تقدم المعـرفة** الذى يعد البادرة التى انطلق منها الفكـر الـغـربى الحديث بأكثر طرائقـه حماسًا وحـفزًا ذاتيًا، يعـبر فى الواقع عن شتى الشكـوك فى إمكان إزالة العوائق المختلفـة (تحطيم الأصنام) التى تحول دون المعرفـة . وأما ڤيكو ، تلميذ بيكون الذى كـان يبجل أستاذه ، فيقول صـراحةً إن المعرفة البشرية لا تزيـد عما أتى به البشر ، ومن ثم فـالواقع الخارجى لا يزيد عن كونه "صـورًا معدلة للعـقل البشرى" [1] ويزداد تضاؤل احتمالات المعرفة الموضـوعية بما هو بعيدٌ وأجنبىٌ تضاؤلاً أشدَّ بعد نيتشه .

وفى مـقابل تيـار الشك والتشـاؤم المذكور ، نجـد أن دارسى الإسلام فى الغرب (ودارسى الغرب داخل العالم الإسلامى ، ولو

أننى لن أعرض فى مناقشتى لهم) يميلون إلى التفاؤل وإبداء الثقة التى تثير القلق . كان أوائل المستشرقين المحدثين فى أوروبا لا يخامرهم ، فيما يبدو ، شك يذكر فى أن دراسة الشرق، والعالم الإسلامى جزء منه ، هى السبيل الأعظم للمعرفة العالمية . وقد كتب أحدهم ، وهو البارون دكشتاين ، فى العشرينيات من القرن التاسع عشر يقول إنه :

> مثلما اكتشف كوڤيه وهمبولت أسرار تنظيم [الطبيعة] فى أحشاء الأرض، سوف يقوم إيبل رموسات، وسانت مارتن ، وسلڤستر دى ساسى، وجريم ، وبوپ ، وأ. ڤ. شليجل بمتابعة واكتشاف التنظيم الداخلى للفكر البشرى وأسسه البدائية فى إحدى اللغات(٢) .

وبعد سنوات معدودة كتب إرنست رينان تصديرًا لمناقشته لموضوع "محمد وأصول الإسلام الأولى" بملاحظات عن الآفاق التى تتفتح أمام ما أسماه "علم النقد" . وقال رينان إن علماء الجيولوجيا والتاريخ واللغة يستطيعون التوصل إلى معرفة الأشياء الطبيعية "البدائية" – ويعنى بها الأساسية والأصلية -- عن طريق فحص آثارها بدقة وصبر ، وإن الإسلام ظاهرة ذات قيمة كبيرة لأن مولده كان قريب العهد نسبيًّا ولا أصالة له . وانتهى رينان من ذلك إلى القول بأن دراسة الإسلام دراسةٌ لموضوعٍ يستطيع المرء أن يصل المرء فيه إلى معرفة يقينيّة وعلمية(٣) .

وربما يكون هـذا الموقف ' المناسب' هو مـــا جـــعـل تاريخ الاستشراق الإسلامى يخلو نسبيًّا من تيارات الشك ، ويكاد يخلو تمامًا من مساءلة الباحث لنفسه عن منهجه . ولم يخامر معظم دارسى الإسلام فى الغرب أى شك فى إمكان الإحاطة بالمعرفة الموضوعية الحقة عن الإسلام ، أو عن جانب من جوانب الحياة الإسلامية ، على الرغم من القيود التى تفرضها حدود الزمان والمكان . ولكننا لن نجد عددًا كبيرًا من الباحثين المحدثين الذين يشاركون رينان غطرسته الصريحة فى آرائهم عن ماهية الإسلام ، فلن نجد باحثًا محترفًا مثلاً يقول مثل رينان إننا نستطيع أن نعرف الإسلام لأنه يمثل نموذجًا أساسيًّا من نماذج توقف النمو والتطور الإنسانى ، لكننى لم أستطع العثور على أى مثال معاصر للباحث الإسلامى الذى يرى فى البحث نفسه مصدرًا للشك . وأظن أن السبب يرجع أيضًا ، إلى حد ما ، إلى تقاليد العاملين بالدراسات الإسلامية ، وهى التى يتوارثونها جيلاً بعد جيل منذ قرنين تقريبًا، فهى تحمى الباحثين الأفراد وتؤكد لهم صحة ما ينتهون إليه ، بغض النظر عن الأخطار المنهجية والتجديدات المنهجية التى تتحدى الباحثين فى معظم مجالات العلوم الإنسانية الأخرى .

ومن النماذج التى تمثل ما أعنيه مقال نشر منذ عهد قريب بعنوان ''الوضع الحالى لدراسات الشرق الأوسط'' فى عدد صيف ١٩٧٩ من مجلة **الباحث الأمريكى** ، وكاتبه باحث بريطانى شهير فى الدراسات الإسلامية ، وهو يقيم حاليًّا ويعمل فى الولايات

المتحدة . والمقال بصفة عامة ينم عن الكسل الذهنى إذ لا يتعرض إلا لما اعتدناه وبأسلوب لا طرافة فيه ، ولكن به ما يستوقف غير المتخصص ، إلى جانب لا مبالاة الكاتب بصورة تدعو للدهشة بالقضايا الفكرية ، ألا وهو ما يرويه عما يفترض أنه جذور شجرة النسب الثقافى للاستشراق ، وهو جدير بأن نستشهد بجانب مطوّل منه :

أتى عصر النهضة الأوروبية بمرحلة جديدة كل الجدة فى تطور الدراسات الإسلامية ودراسات الشرق الأوسط فى العالم الغربى. وربما كان أهم عامل هو حب الاستطلاع الفكرى الذى لا يزال فريدًا فى تاريخ البشرية . فحتى ذلك العصر لم يخامر أحدًا إحساسٌ مماثلٌ ولم يبذل أحد جهدًا مماثلاً لدراسة وتفهم الحضارات الأجنبية بل تلك التى هى أقل عداءً لنا . فلقد حاولت مجتمعات كثيرة دراسة أسلافها ، أى من تحسُّ بأنها تدين لهم بدين ما ، أو من ترى أنها مستقاة منهم . كما إن المجتمعات الخاضعة لسيطرة ثقافة أجنبية أقوى من ثقافتها قد اضطُرّت ، . سواء كان ذلك قسرًا أو طواعية ، إلى دراسة لغة من يسيطرون عليها ومحاولة فهمهم . أى إن المجتمعات ، باختصار ، قد درست ساداتها ، بكلا المعنيين لهذه الكلمة . . . . ولكن نوع الجهد الذى بذلته أوروبا (وبنات أوروبا فيما وراء البحار فى وقت لاحق) لدراسة الثقافات النائية والأجنبية ،

ابتداء من عصر النهضة الأوروبية **يمثل شيئًا جديدًا ومختلفًا كل الاختلاف** . ومما له دلالته أن شعوب الشرق الأوسط لا تبدى اليوم اهتمامًا يذكر ببعضها البعض، بل هى أقل اهتمامًا بالثقافات غير الإسلامية فى آسيا وإفريقيا . وأما المحاولات الجادة لدراسة لغات وحضارات الهند والصين فى الشرق الأوسط فتقتصر على جامعات تركيا وإسرائيل - وهما البلدان الوحيدان فى المنطقة اللذان اختارا عن عمد أسلوب الحياة الغربية .

ولا تزال الحضارات غير الأوروبية تواجه أكبر صعوبة فى تفهم حب الاستطلاع الفكرى من هذا النوع . وعندما بدأ أوائل علماء الآثار المصرية الأوروبيون حفرياتهم فى الشرق الأوسط ، وجد الكثير من أبناء البلد أنه من المحال عليهم تصديق استعداد الأجانب لبذل مثل هذا القدر الكبير من الجهد والوقت والمال والتعرض لمثل هذه الأخطار والمشاق الكثيرة فى التنقيب والكشف عما خلفه أسلافهم القدماء المنسيون وفك رموز آثارهم . ومن ثم سعوا إلى تفسيرات أخرى أقرب إلى العقل ، فكان القرويون البسطاء يرون أن علماء الآثار يبحثون عن الكنوز الدفينة ، وأما المتعلمون من سكان المدن فقالوا إنهم إما جواسيس أو عملاء يخدمون حكوماتهم بسبل أخرى . ولم يكن نجاح بعض علماء الآثار فعليًا فى إسداء مثل هذه الخدمات إلى

حكوماتهم يعنى أن مـثل هذا التفسيـر لعلمهم أقل خطأً ، بل هو يكشف عن عـجز مـحزن عن تفـهم عملٍ أضـاف فصولاً جـديدة إلى تاريخ البشرية وأبعـادًا جديدة إلى وعى أمم الشـرق الأوســط بذواتهـا . **وصـعـــوبة الإدراك المذكـورة لا تزال قائمة حتى اليوم** بل إنها قد أصابت بعض الأكاديميين الذين يصرون على أن المستشرقين إما باحثون عن الكنوز أو عملاء للإمبريالية .

وكـان إرضـاء حب الاسـتطلاع الفكرى الجـديد الذى أشرنا إليه قد اسـتفاد كثيرًا من الرحلات الاسـتكشافية التى قام بها الأوروبيون إلى الأراضى الجديدة الغـربية فيما وراء المحيط . إذ إن هذه قد ساعدت على تحطيم بعض القوالب الفكرية وكـانت بمثـابة حـافـز وفرصـة لإجـراء المزيد من الدراسة[٤] .

إن هذه الكتابة تـتوسل بما لا يكاد يتجـاوز بعض المزاعم التى لا تدعمها الأدلة ، والتى تتناقض تناقضًـا مباشرًا مع كل ما كتب حتى الآن ، سـواء كان ذلك ما كتـبه عدد كـبير من المستـشرقين أنفسهم أو مؤرخو أوروبا من عصـر النهضة إلى الوقت الحاضر ، أو دارسو تاريخ التـفسيـر من القديس أوغـسطينوس حتى الآن . وحتى لو نَحَّيْنا جانبًـا ما يقوله عن حب الاستطلاع الفكرى الذى يصفه بأنه ''جديد ومختلف كل الاختلاف'' ومن ثم (نفترض) أنه حب استطلاع فكرى خـالص - وهو ما لم يسعـد الحظ أى إنسان

آخر حاول قراءة نص وتفسيره بامتلاكه - فلسوف نجد فى كلامه الكثير مما لا يقبل إلا بافتراض حُسْنِ النية . فإن قراءة ما كتبه بعض مؤرخى الثقافة والاستعمار ، مثل دونالد لاك أو ج. هـ. پارى تجعلنا ننتهى إلى أن الاهتمام الأوروبى بالثقافات الأجنبية كان يستند إلى التلاقى الفعلى مع تلك الثقافات ، وعادة ما كان ذلك نتيجة للتجارة ، أو للغزو أو للمصادفة(٥) . "فالاهتمام" ينبع من الحاجة ، والحاجة تستند إلى عوامل تستثيرها دوافع عملية تعمل وتعيش مع بعضها البعض - مثل الخوف ، والشهية ، وحب الاستطلاع ، وما إلى ذلك بسبيل - وهى التى دائمًا ما كانت تمارس تأثيرها حيثما وأينما يعيش البشر .

وإلى جانب هذا ، كيف يتأتّى للإنسان تفسير ثقافة أخرى إلا إذا نشأت وتوافرت الظروف التى تتيح إمكان هذا التفسير أصلا ؟ أما فيما يتعلق بالاهتمام الأوروبى بالثقافات الأجنبية ، فلقد كانت هذه الظروف دائمًا تجارية أو استعمارية أو ناجمة عن التوسع الحربى ، والغزو ، وبناء الامبراطوريات . وحتى حين قام الباحثون المستشرقون فى الجامعات الألمانية ، فى القرن التاسع عشر ، بدراسة اللغة السنسكريتية ، وتقنين الحديث النبوى ، أو إيضاح نظام الخلافة الإسلامية ، فإنهم كانوا يعتمدون على الجامعات نفسها ، أى على المكتبات وغيرهم من الباحثين والفوائد الاجتماعية التى أتاحت لهم احتراف هذا العمل ، أكثر من اعتمادهم على الوهم المسمى حب الاستطلاع الخالص . وأما

القول بأن الدافع على بناء وامتلاك امبراطوريات أوروبية هائلة ، واكتساب المعارف المرتبطة بها ، كان بصفة أساسية إشباع حب الاستطلاع الفكرى فلا يمكن أن يصدر إلا عن شخصية من الشخصيات الروائية الخيالية ، مثل الدكتور بانجلوس فى رواية **كانديد** للكاتب الفرنسى ڤولتير ، أو مثل أعضاء 'أكاديمية المفكرين' فى مدينة لاجادو الخيالية فى رواية **رحلات جاليڤر** التى أبدعها چوناثان سويفت . ولا غرو إذن إذا كان أبناء البلاد غير الأوروبية "الجهّال" قد نظروا بمثل هذه الريبة إلى "حب الاستطلاع الفكرى" لدى الباحثين ، إذ متى أقام باحث غربى فى بلد غير غربى إلا بفضل السيطرة الغربية على ذلك البلد ، مهما تكن رمزية وغير مباشرة[٦] ؟ ومن الأدلة على ما يتسم به **هذا** المستشرق من جهل غريب وغرور أنه ، فيما يبدو ، لا يدرى شيئًا عن المناظرة المحتدمة حاليًا فى مجال علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) حول التواطؤ بين الإمبريالية وعلم وصف الشعوب (الاثنوغرافيا)، بل إن ليڤى شتراوس نفسه ، ذلك الرائد الفكرى المرموق ، قد أعرب عن مخاوفه من أن تكون الامپريالية من الجوانب الأساسية للعمل الميدانى فى علم الأجناس البشرية (الاثنولوجيا) وإن لم يعرب عن أسفه لذلك .

فإذا استبعدنا دون تردد ما قاله الكاتب عن حب الاستطلاع الخالص ، فلابد أنْ ننتهى ، أيضًا ، فى اعتقادى ، إلى أن الحُجّة التى يسوقها ، برمّتها ، بشأن دراسات الشرق الأوسط ليست فى

الواقع إلا دفاعًا عن قدرتها التى يعيبها شيء فى جوهرها - تاريخيًا وثقافيًا - على أن تصدق فيما تقوله لنا بشأن المجتمعات النائية الأجنبية . وهو يفصل القول فيما بعد ، وفى المقالة نفسها، عن هذه المسألة حين يشير إلى الأخطار الكامنة فى ''إضفاء الطابع السياسى'' على هذا المجال ، وهو ما يزعم أنه لم يستطع تجنبه إلا عدد محدود من الباحثين والأقسام العلمية . ويبدو لى أن السياسة هنا مرتبطة بالتحيز والتعصب الضيق ، كأنما كان الباحث الحقيقى فوق المشاجرات حول التوافه ، لا تشغله إلا الأفكار ، والقيم الخالدة والمبادئ العليا ؛ ومما له دلالته أنه لا يأتينا بشواهد على ذلك . والطريف فى هذه المقالة كلها هو أنها ، مع ذلك ، لا تدعو إلى العلم والإجراءات العلمية إلا بالاسم فقط ، وأما حين يعرض الكاتب **لحقيقة** دراسات الشرق الأوسط غير السياسية أو ما ينبغى أن تكون عليه ، فهو لا يقول شيئًا . أو بعبارة أخرى ، يقول إن ما يُعتد به حقًا هو ما يتخذه الباحثون من مواقف ، أو ما يتصنّعونه منها ، وما يقولونه من ألفاظ رنّانة ، أو باختصار ما لديهم من أيديولوجيات . أما المضمون فالكاتب لا يصرح به ، بل إننا نكتشف ما هو أسوأ ، ألا وهو أنه يحاول عامدًا إخفاء الروابط القائمة بين البحث العلمى وبين ما يمكننا أن نسميه الإقبال على الدنيا والولع بها ، وذلك حتى يواصل إيهامنا بما يأتى به البحث من حقيقة بريئة من الهوى ، ومن التعصب ومن السياسة.

ونحن نكتشف فى هذا حقائق عن المؤلف أكثر مما نكتشفه عن

المجال الذى يُفـترض أنه يكتب عنه ، وهى مـفارقة تتـسم بها كل المحاولات الأوروبية أو الغربية الحديثة للكتـابة عن المجتمعات غير الغربية . ولم يكن جميع الباحثين الآخرين واعين بهذه الصعوبة . ففى عـام ١٩٧٣ قامت رابطة دراسات الشرق الأوسط، بالتـعاون مع مؤسسة فورد ، بتكليف فريق من الخبراء بإجراء مسح للمجال كله ، بهـدف تقـييـم حـالتـه الراهنة ، واحـتـيـاجـاته وآفـاقـه ومشكلاته(٧). وكانت النتيجة مجلدًا ضخمًا حافلاً زاخرًا عنوانه : **دراسـة الشـرق الأوسط : البـحث والتـخـصص فى الإنسـانيـات والعلوم الاجتمـاعية** ، وكان محـرره هو لينارد بايندر ، ونشر فى عام ١٩٧٦ . ولما كان الكتاب عـملاً جماعيًا فـقد اتسم بالتفاوت المحتوم فى مستواه ، ولكن القارئ يستوقفه ذلك الإيحاء العام فى شتى مباحثـه بالأزمة والعجلة ، وهو ما لا نجده على الإطلاق فى المقالة المنشـورة فى مجلة **الباحث الأمـريكى** المذكورة . إذ إن هذه المجمـوعة مـن الباحـثين الأمريكيين الذين لا يقلون امـتيـازًا عن نظيرهم البـريطانى ، ترى أن 'دراسات الشـرق الأوسط' مجـال محـاصر يمـر بضائقـة ، إذ لا يحظى بالاهتمـام الكافى ، ولا بما يكفى من المال ولا من الباحثين . (ومن المفارقـات أن أحد أعضاء لجنة البحث والتدريب فى الرابطة المشار إليها ، وهى التى وضعت التصور الأول للدراسة ، كان قـد كتب دراسة عن مجال دراسات الشـرق الأوسط بتكليـف من الحكومـة الأمـريكيـة ، قـبل ذلك بسنوات مـعـدودة ، ينتـقص فـيـها من الحـاجـة إلى الدراسـات المتخصـصة للإسلام أو للعرب ، قـائلاً إن هذا المجال لا يمثل إلاّ

أهمية ثانوية، من الزاويتين الثقافية والسياسية للولايات المتحدة[٨]). ولننظر إلى المشكلة التى تكمن خلف جميع المشكلات التى يشير إليها الباحثون المشار إليهم ، وهى التى يعالجها المحرر لينارد بايندر بصراحة فى مقدمته للكتاب .

وأول جملة في المقدمة المذكورة هى: "كان الدافع الأساسى ، ولا يزال ، وراء تنمية وتطوير دراسات مناطق العالم المختلفة فى الولايات المتحدة ، دافعًا سياسيًا" [٩] . وينطلق بايندر بعد ذلك إلى استعراض جميع القضايا التنظيمية والفلسفية التى تواجه المتخصص الحديث فى الشرق الأوسط ، دون أن يغفل ولو للحظة عن الحقيقة – وهى حقيقة واقعة – التى تقول إن دراسات الشرق الأوسط تعتبر جزءًا من المجتمع الذى تجرى فيه ، إن صح هذا التعبير . وفى نهاية المسح الذى يجريه ، وبعد أن يقول بصراحة إن جميع المسائل الأساسية المطروحة بشأن هذا المجال ، حتى أولاها وأبسطها ، لا تخلو من أحكام القيمة -- مثل التساؤل عما إذا كان علينا أن نبدأ بدراسة الهياكل الاجتماعية أو بدراسة الدين، أو مثل المفاضلة فى الأهمية للباحث بين الهياكل السياسية وبين معدلات دخل الفرد – وبعد أن يقول أيضًا إنه ، حتى إذا "كانت التوجهات المبنية على القيمة فى دراسات الشرق الأوسط أدق على الفهم فى معظم الأحيان من منظورات المعلومات الحكومية" يقول "إن المشكلة لا يمكن تجنبها" [١٠] . ويحاول بايندر فى آخر المقدمة تلخيص تأثير السياسة فى مدى صدق ما ينتهى إليه الدارسون الغربيون للثقافات الأجنبية .

إنه لا يتردد فى التسليم بأن لكل باحث ''توجهات تحكمها القيمة'' وبأنها تؤثر فى نتائج بحوثه ، ولكنه يستدرك قائلاً ''إن التوجهات المعيارية للمباحث العلمية'' تقلّل من آثار الانحراف الذى تأتى به ''الأحكام الخاصة'' الشخصية . ولا يشرح لنا بايندر أساليب أداء ''المباحث العلمية'' بل ولا يحدد لنا ما تتسم به تلك '' المباحث'' من طاقات قادرة على تحويل الأحكام البشرية إلى تحليلات رائعة مهيبة . وكأنما كان يريد معالجة هذه المسائل بصورة ما فأضاف عبارة فى آخر حجته تتسم بغموض لا ضرورة له ولا تمثل أى استمرار لما جاء قبلها ، إذ يقول إن المباحث العلمية ''تقدم لنا أيضًا المناهج اللازمة لاستكشاف القضايا الأخلاقية التى تنشأ فى سياق مجال البحث'' . أية قضايا أخلاقية ؟ أى مناهج؟ أى سياق لأى مجالات ؟ لا نجد لديه الشرح . ولكن النتيجة التى يتوصل إليها تكتسى مظهر الجدّيّة المحيّرة المربكة ، إلى الحد الذى يبث فى نفسك الشقة فى هذه ''المباحث العلمية'' ، وهو ما يدفعك إلى الاطمئنان دون أن يشرح لك على الإطلاق ما تدور حوله هذه ''المباحث العلمية'' .

بل إنه حتى حين يعترف كاتب من الكتاب بما للضغوط السياسية الفظة من تأثير فى دراسات الشرق الأوسط ، فإنه يميل إلى إخفاء هذه الضغوط فكأنما تبخرت فى الهواء ، ومن ثم إلى إعادة السلطة ' المعتمدة' لما يسمى 'الخطاب الاستشراقى' . ولا بأس من تكرار ما قلناه من أن السلطة تنبع من القوة الكامنة فى

الثقافة الغربيـة والتى تسمح لدارسى الشرق أو الإسلام بأن يقولوا أقـوالاً عن الإسـلام وعن الشـرق ظلت سنوات عـديدة لا تقـبل الطعن فيـها تقريبًـا . فمن سوى المسـتشرقين قـد تحدث ولا يزال يتحدث باسم الشرق ؟ ولم يكن يخالج المستشرق فى القرن التاسع عشر ، أو باحث القرن العشرين ، مثل لينار بايندر ، أى شك فى قدرة "مجـال الدراسة" - ولاحظ أنه لا يقـول الشرق نفـسه أو شعوبه - على تزويد الثقافة الغربيـة بكل ما تحتاج إلى معرفته عن الشرق ، وهكذا ، فإن كل من يستطيع استعمال لغة ذلك المبحث العلمى، ونَشْر مـفاهيمـه ، وإجادة تطبيق أسـاليبه ، وحيـازة ما يؤهله له ، يستطيع أن يتجاوز التعصب والظروف الحاضرة ليصدر أحكامًا علمية . وهذا الإحسـاس بالاكتفاء الذاتى ، والقدرة على التصحيح الذاتى ، وطاقة التزكية الذاتية ، هو الذى منح ولا يزال يمنح الاستشـراق لغته الطنانة التى يستعملهـا دون حرج وباطمئنان بالغ . وبايندر يقول إن المباحث العلمية ، لا شعوب الشرق ، هى التى تحدد القضايا المعيارية بصفة عامة ، إذ إن هذه المباحث ، على حد قوله ، لا رغبـات أهل المنطقة ولا أخلاقيات الحيـاة اليومية، هى التى "تقـدم لنا المناهج اللازمـة لاسـتكشاف تلك الـقضـايا الأخلاقية التى تنشأ فى سياق هذا المجال" .

وهكذا نرى ، من ناحية، أن "المباحث العلمـية" تعتـبر هنا مؤسسات أكثر مما تعتبر أنشطة ، وأنها من ناحية أخرى تحدد تنظيم ووضع المعايير لما تدرسه (وهو ما أنشأته هى أيضًا من زاوية معينة)

بأيسر مما تحلل ذاتها أو تتأمل ما تـفعل . والمحصلة التى نخرج بها من هذا ، إذا سمحنا لأنفسنا بـترف الإطناب ، يمكن أن يقال إنها المعرفة الكاملة بثقافة مختلفة . صحيح أن الغرب له منجزات هامة فى دراسة الإسلام ، فقد تولى تحـقيق بعض النصوص ، وأضفى الدقة البالغة على بعض التوصيفات الوضعية للإسلام الكلاسيكى، وأما فـيما يتـعلق بالأبعاد **الإنسانـية** للإسلام المعـاصر ، أو بمحنة التعرض لجهود التفسير المتباينة ، فإن "المباحث العلمية" فى مجال دراسات الشرق الأوسط المعاصرة لم تقدم إيضاحات كبيرة لهذه أو تلك ولم تساعد أيا منهما .

لا يمكننا أن نقول إن دراسة الإسلام اليوم "حرة" أو "بريئة" فى أى جانب من جوانبها تقريبًـا ، أو إن الضغوط المعاصرة الملحة والعاجلة لا تحـدد مسارها . ومـا أبعد هذا عن الموضـوعية غـير السـياسـيـة التى يصف بهـا الكثيـرون من البـاحـثين فى مجـال الاستشـراق عملهم ، وهو يبتعـد البعد نفسـه تقريبًا عن الحتـمية الآلية التى يحـاول بها الماديون السـوقيون تفـسير جـميع الأنشطة الفكرية والثـقافيـة ، قائلين إن القوى الاقـتصاديـة هى التى تحدد مسارها وتتحكـم فيها مسبّقًـا ، وهو يبتعد البعد نفـسه تقريبًا عن الثقة "المناسبة" للمتخصصين الذين يولون إيمانهم الكامل للكفاءة الفنية "للمـباحث العلمـية" . وفى موقع مـا بين هذه الأطراف المتباعدة تحقق "مصالح" المفسر ذاتها وتنعكس آثارها على الثقافة كلها بصفة عامة .

ولكننا نجـد هنا درجة أقل من التنوع والحـرية عمـا نحب أن نتصوره . إذ ماذا عساه أن يضـفى الأهمية والطرافة على موضوع يمكن اعتـباره أكاديميًا أو حتى أثريًا إن لم يكن السلطة والإرادة ؟ ونحن نرى أن المجتمع الغربى يقوم (مـثل كل المجتمعات الأخرى ولو بدرجات مـختلفـة) بتنظيم هذين العـاملين ، ويتيح لهـما أن يتحققـا بصور متفاوتة ، وأن يمارسا قـدرًا هائلاً من النفوذ الخاص بهمـا ، والذى يتجـاوز الضرورات الحـاضرة المباشـرة الضيـقة . ولسوف أضرب مـثالاً بسيطًا حتى تتضّح المسألة بسـرعة ، وبعدها ننطلق إلى دراسة بعض التفصيلات .

ينظر الجمهـور فى أمريكا وأوروبا اليوم إلى الإسلام باعـتباره ''أنباء'' من نوع لا يسر على الإطلاق . ويسوق التناغم بين أجهزة الإعلام وبين الحكومة وبين خبراء الجغرافـيا السياسية – إلى جانب الأكـاديميين من ذوى الخبـرة فى الإسـلام ، رغم كونهم يشـغلون مكانًا على هامش الثقـافة بوجه عام – فى اعتـبار أن الإسلام يمثل تهـديدًا للحضـارة الغربيـة . ولكن هذا لا يعنى أننا لن نجـد فى الغرب إلا التصوير الذى ينتقص من قدر الإسلام أو يكتسى بطابع العنصرية ، فأنا لا أقول بهذا ولا أتفق مع من يقوله ، لكننى أقول إن الصور السلبية للإسلام سـائدة إلى درجة أكبر مما عداها ، وإن هذه الصور لا تتفق مع '' حقيقة'' الإسلام (ما دمنا سلمنا بأن ما يشار إليه باسم ''الإسلام'' ليس حقيقة طبـيعية بل هو بناء مركب أنشأه إلى حد ما المسلمون والغرب بالأساليب التى حاولت وصفها

فيما سبق) ولكنها تتفق حول ما ترى القطاعات البارزة أنه "الإسلام" . وتتمتع هذه القطاعات بالسلطة وبالإرادة اللازمتين لنشر تلك الصورة المحددة للإسلام ، ومن ثم فإن هذه الصورة تزداد انتشارًا وحضورًا بحيث تسود ما عداها . وكما قلت فى الفصل الأول ، يجرى ذلك وفقًا لعوامل اتفاق الآراء ، وهو الاتفاق الذى يضع الحدود ويمارس الضغوط .

ومن المفيد أن ننظر فى الحلقات الدراسية الأربع التى عقدت فى الفترة من ١٩٧١ إلى ١٩٧٨ ، بتمويل من مؤسسة فورد ، فى جامعة برنستون ، وهى مكان ذو جاذبية واضحة لعقد الحلقات الدراسية الأكاديمية ، لأسباب اجتماعية وسياسية كثيرة . فإلى جانب شهرتها العامة ، يوجد فى الجامعة برنامج لدراسات الشرق الأدنى ذاعت شهرته ويتمتع باحترام كبير ، وكان يسمى حتى عهد قريب قسم الدراسات الشرقية ، وكان الذى أنشأه هو فيليب حتىّ منذ نصف قرن تقريبًا . ويسيطر على التوجه الحالى للبرنامج - مثل توجه الكثير من برامج الشرق الأدنى الأخرى - علماء الاجتماع والسياسة . إذ يقل مثلاً عدد المناهج الدراسية الخاصة بالآداب الكلاسيكية الإسلامية من عربية وفارسية ، وعدد المتخصصين فيها من الأساتذة ، عن نظائر هذا وذاك فى علوم السياسة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ الخاصة بالشرق الأدنى . والتعاون بين هذا البرنامج وبين موسسة فورد ، مؤسسة العلوم الاجتماعية الأولى فى البلد ، يدل (وأضيف أنه قد قُصد به أن

يدل) على التمتع بسلطة علمية وثقة مرجعية من الطراز الأول فى الولايات المتحدة . ومن ثم فإن أى موضوع يحظى بالتركيز عليه تحت رعايتها يجرى إبرازه إبرازًا لا شك فيه ، فما تقترحه برنستون وما تموله فورد يوحى (ويقصد به أن يوحى) بقضايا جديرة بالتأكيد والأولوية وتتمتع بأهمية بالغة . وإن شئنا الإيجاز قلنا إن الحلقات الدراسية المذكورة ، على الرغم أن واضعيها ومديريها من الأكاديميين ، قد عُقدت ونصب عينيها المصلحة القومية . أى إن البحث العلمى كان يعتبر فى خدمة تلك المصلحة، وعلى نحو ما سوف نرى ، كان اختيار الموضوعات يشير إلى أن كل ما يتمتع بأفضلية سياسية لدى الحكومة كان يؤدى فى الواقع إلى فرض مجالات بحثية معينة . ومن الجدير بالذكر فى هذا الصدد أن مؤسسة فورد وجامعة برنستون لم يكن من المحتمل ، بل ومن غير المحتمل الآن ، أن يبديا الاهتمام بعقد حلقات دراسية ' فاخرة' حول نظريات النحو العربى فى العصور الوسطى ، على الرغم من إمكان إقامة الحجة على زيادة أهمية عقد حلقة دراسية حول هذا الموضوع ، من الناحية الفكرية الصرفة ، عن أهمية أى من الحلقات التى عقدت .

مهما يكن من أمر ، فعلينا أن نسأل : ماذا تناولت الحلقات الدراسية ومن الذى حضرها ؟ كانت إحداها تتناول موضوع "الرق والمؤسسات المرتبطة به فى مناطق الإسلام فى إفريقيا" . وكان الاقتراح الخاص بعقد هذه الحلقة يركز تركيزًا شديدًا على خوف

إفريقيا واستيائهـا من المسلمين العرب ، كما يذكر أيضًا أن ''بعض العلماء الإسـرائيليين'' قـد حاولوا تحـذير البلدان الإفـريقيـة من الاعتماد أكثر مما ينبغى على الدول العربية التى قامت ''فى الماضى بإفراغ أراضيهم من سكانها''(١٢) . وهكذا فإن 'رعاة' هذه الحلقة الذين اختاروا هذا الموضوع يؤكدون قضية من المؤكد أن تؤدى إلى تعكيـر صفـو العلاقـات بين المسلمين الإفريقـيين والعـرب، وقد دفعـتهم محاولة تحـقيق هذا الهدف إلى عدم دعـوة أى علماء من العالم الإسلامى العربى .

وعقـدت حلقة دراسية أخـرى حول نظام 'الذمّيين' ، وكان محـورها الرئيسى هو ''وضع الأقليـات ، وخصـوصًا الأقليـات الدينيـة ، داخل الدولة الإسـلاميـة فى الشـرق الأوسط''(١٣) أما 'الذمّيون' فتعبـير يشار به إلى جماعات الأقليـات المستقلة نسبيًّا داخل الدولة العثـمانية . وبعد تفكك هذه الدولة ، وانتـهاء شتى النظم الاسـتعمـارية الفرنسـية والبـريطانية ، نشـأ عدد من الدول الجديدة فى الشرق الأدنى فى زمـن الحرب العالمية الثانيـة تقريبًا . وكـانت كل منهـا ، أو حـاولت أن تكون 'دولة أمة' ، فكانت إحـداها (إسرائيل) دولة أقـلية دينيـة فى إطار الدول الإسـلاميـة المحيطة بها ، وقُدّرت لدولة أخرى (لبنان) أن تقوم بتمزيقها ، إلى حد كـبير ، أقليـةٌ مناوئةٌ من غير المسلمين ، تـتلقى الأسلحة من إسرائيل وتحظى بمناصرة الولايات المتحدة .

كـان ذلك المحور أبعـد ما يكــون عـن الموضوع الأكـاديمى

المحايد ، ''فنظام الذمّيين'' تعبير ، حتى فى وضعه بهذه الصيغة ، عن الحل السياسى المفضل للمشاكل المعقدة لمسألة الجنسية والقضايا العرقية فى العالم الإسلامى المعاصر ، ومهما تكن الأسباب الأكاديمية من وراء دراسته ، فإن نظام أهل الذمة يمثل ارتدادًا ونكوصًا إلى عهد سالف بائد ، كانت القوى الاستعمارية (عثمانية أو غربية) تطبق فيه سياسة 'فَرِّقْ تَسُدْ' ، حتى تتحكم فى أعداد هائلة من السكان الذين قد يقومون بمناوأتها . وأما الأغلبية السُّنّيَّة من سكان هذه المنطقة ، وبعض الأقليات أيضًا ، فلقد كان التاريخ القريب للعالم الإسلامى الحديث يمثل لها نضالاً فى سبيل تَخَطِّى التقسيمات العرقية والدينية وصولاً إلى نوع ما من الديموقراطية العلمانية (ربما كانت وحدوية) . ولم تنجح أى دولة من دول المنطقة فى تحقيق ذلك إلا فى دنيا السياسات المعلنة (وغير المطبقة فى العادة) ، ولكن إسرائيل والطائفة المارونية التى تنتمى إلى أقصى اليمين فى لبنان قامتا بحملة مستعرة فى سبيل العودة إلى هيكل للدولة يقوم أساسًا على تمتع الأقلية العرقية بالحكم الذاتى وترتبط بروابط ثنائية مع قوة 'راعية' أجنبية أو دولة عظمى . ولم يكن من قبيل المصادفة أن واضعى خطة الحلقة الدراسية قد اقترحوا تطبيق هذا الحل على الفلسطينيين أيضًا ، إذ إن الشخص الذى أحضروه إلى برنسون للحديث عن ''الأقلية'' العربية الفلسطينية (ويا للسخرية المريرة فى وصفهم بالأقلية !) كان أستاذًا إسرائيليًا . ولا يمكننا أن نعزو عقد هذه الحلقة الدراسية حول هذا الموضوع

البالغ الحساسية فى الولايات المتحدة فى مثل ذلك الوقت (١٩٧٨) ومشاركة عدد كبير من أفراد الأقليات الدينية والعرقية المعادية للحكم الإسلامى المزعوم (وهم من يمكن أن يعودوا بالفائدة على راسمى السياسات الأمريكية) إلى أى اهتمام علمى أكاديمى محض. ولم يكن من المصادفات أيضًا أن الداعى الرئيسى إلى عقد هذه الحلقة الدراسية كان الباحث نفسه الذى أشرت إليه آنفًا ، نفس الشخص الذى امتدح حب الاستطلاع الفكرى فى الغرب ، وسخر من جميع الأكاديميين وجميع غير الأوروبيين الذين كانوا يشتمّون مؤامرة سياسية فى كل شىء .

كانت الحلقة الدراسية الأولى قد ناقشت تطبيق أساليب التحليل النفسى وطرائق التحليل المتبعة فى العلوم السلوكية فى تفهم المجتمعات الحديثة بالشرق الأوسط . وصدر فيما بعد مجلد يتضمن أعمال تلك الحلقة الدراسية[١٤] . وقد حققت الحلقة الدراسية ما كنا نتوقعه ، بصفة أساسية ، إذ انصب تركيزها الرئيسى على دراسات الشخصية القومية (ولو أن المجلد يتضمن نقدًا كتبه على بنوزازى لما يزعمون أنه دراسات الشخصية الإيرانية، وهو نقد يقوم على أسس علمية صارمة ويتسم بالوضوح، وقد أصاب كبد الحقيقة حين ربط بين هذه الدراسات المزعومة وبين أهداف التلاعب للدول الإمبريالية ذات المطامع فى إيران[١٥]) . كانت نتائج الحلقة الدراسية متوقعة إلى الحد الذى يدعو إلى الانقباض ، إذ لا يمل الكتاب من تكرار الإشارة إلى أن المسلمين

يعيـشون فى عـالم وهمى ، وأن الأسرة تمارس القـمع والكبت ، وأن معظم القـادة مصابون بأمـراض نفسيـة ، وأن المجتمـعات لم تصل إلى مرحلة النضج بعد ، وهلم جرًا ، ولا يقدم هذا الكتاب إلينا ذلك كله مـن وجهـة نظر علمـاء يسـعـون إلى تغيـيـر هذه المجتـمعات بحـيث تصل إلى ''النضج'' ، بل من منظور علماء مـحايدين ، مـوضوعـيين ، لا يتقـيدون بأحكام قـيمـة ، ولكن الكتـاب لا يحسب حـسابًا للمـواقع التى يشـغلها هؤلاء العلمـاء (مهـما يبلغ حيـادهم وتحررهم من أحكام القـيمة) فى عـلاقاتهم بالشركـات الكبرى والسلطات الحكوميـة ، ولا يأخذ فى اعتـباره الدور المنوط بأبحاثهم فى تنـفيذ السيـاسات الحكومية تجـاه العالم الإسلامى ، أو ما يتـرتب على تطبيق المناهج النفسيـة عندما يقوم مجتمع قوى بدراسة مجتمع أقل قوة منه .

ولم تتناول الحلقة الدراسية الرابعة بحث أى من هذه الأمور، وكان عنوانها ''الأرض ، والسكان ، والمجتمع فى الشرق الأدنى: دراسات فى التاريخ الاقتصادى من فجر الإسلام إلى القرن التاسع عشـر'' . وقـد صورت هذه الحلقـة نفـسهـا، مـثل غيـرها من الحلقات، باعتبارها علمية وغير منحازة ، وإن استطعنا أن نستشف تحت السطح اهتمامًا مُلحًا إلى حد بعيد ويتعلق بالسياسات ، وكان فى هذه الحـالة اهتـمامًـا بالعـلاقـات ما بين حـيـازة الأراضى ، والأنساق السكانية ، وسلطة الدولة ، باعتبـار هذه العلاقة مؤشرًا على الاستـقرار (أو عدم الاسـتقـرار) فى المجتمـعات الإسلامـية

الحديثة . ولكن ينبغى ألاّ نستخلص من هذا أن كل مساهمة فى الحلقة الدراسية كانت تفتقر إلى القيمة الموضوعية ، أو أن كل مشارك فى الحلقة كان طرفًا فى مؤامرة شنيعة ، فلقد أبدى القائمون على تنظيم الحلقة حكمة بالغة فى أن كفلوا تحقيق "التوازن" بين الآراء، وكفلوا للحلقة الدراسية أن تتسم، إجمالاً، بسمات المسئولية والجدّية . ومن ناحية أخرى علينا ألا نقع فى شرك اعتبار الحلقة مساوية للمجموع الحسابى لأجزائها الكثيرة المنفصلة . فلقد عملت الحلقات الدراسية الأربع معًا ، فى اختيار الموضوعات والاتجاهات العامة ، على تشكيل الوعى بالإسلام بأسلوب يضمن إمّا إقامة مسافة تفصلنا عنه باعتباره ظاهرة معادية وإما تأكيد بعض جوانبه التى نستطيع " التصدى" لها فى سياساتنا .

وفى هذا الصدد كانت الحلقات الدراسية التى عقدت فى جامعة برنستون حول الإسلام تتفق مع تاريخ برامج الدراسات لبعض مناطق العالم الثالث الأخرى ، فى الولايات المتحدة – مثل الفترة التالية مباشرة للحرب فى الدراسة الأكاديمية للصين[١٦]. أما الفرق فهو أن البرامج الإسلامية لا تزال فى حاجة إلى "مراجعة" وتنقيح ، إذ لا تزال تسيطر عليها مفاهيم بالية ، وغامضة إلى حد غير معقول (مثل مفهوم "الإسلام" نفسه) إلى جانب مصطلح فكرى انقطعت صلاته بالتطورات العامة فى العلوم الإنسانية وفى المجتمع كله : فلا يزال من الممكن أن يُقال عن الإسلام ما لا

يمكن قبوله ببساطة إن قيل عن اليهودية ، أو عن أبناء آسيا الآخرين ، أو عن السود ، ولا يزال من الممكن أن تُكتب عن التاريخ الإسلامى ، وعن المجتمع الإسلامى ، دراسات يسعدها أن تتجاهل كل ألوان التقدم الكبرى فى نظرية التفسير منذ نيتشه وماركس وفرويد .

والنتيجة هى أننا لن نجد فى الدراسات الجارية للإسلام إلا أقل القليل مما يمكن أن يعود بفائدة ما على العلماء المهتمين بالمشكلات المنهجية لعلم كتابة التاريخ بصفة عامة ، مثلاً ، أو بتحليل النصوص . ولكن الذى يحدث ، إذا اعتبرنا الحلقات الدراسية المعقودة فى جامعة برنستون خير نموذج لما نقول ، هو أن يظهر عمل علمى عن الإسلام (مثلما ظهر المجلد الذى يتناول علم النفس فى دراسات الشرق الأوسط) ثم تقوم بعرضه أو 'مراجعته' دورية أو دوريتان من المجلات البالغة التخصص ، ثم يختفى . إن هذا العامل وحده دون غيره ، وأقصد به الموقع الهامشى الذى تشغله الدراسات الإسلامية ، وما يريدونه لها من أن تظل مقطوعة الصلة بالثقافة العامة ، هو الذى يتيح للباحثين مواصلة فعل ما يفعلون ، ولأجهزة الإعلام أن تتولى مهمة نشر الصور العنصرية الساخرة للشعوب الإسلامية . وبهذا الأسلوب تواصل قاعدة البحوث الأكاديمية تدعيم بقائها ، ويستمر الزبائن الذين يشترون أخبار الإسلام فى تلقى جرعات هائلة من التهريج حول الحدود (العقوبات) الإسلامية والحريم ، وهو القوت الذى تقدمه أجهزة

الإعلام لهم على مدى عقود مديدة . وعندما تقع عيون الجمهور على الخبراء ، فهم يظهرون باعتبارهم خبراء دعت إلى ظهورهم أزمة طارئة فاجأت "الغرب" دون استعداد لها . وهم لا يخففون من وقع أقوالهم ، ولا يتحرون الرهافة فى التعبير ، بدافع أى تعاطف ثقافى قديم مع الإسلام ، على نحو ما يحدث فى بريطانيا أو فرنسا ، إذ لا يُعتبرون إلا فنّيين يحملون "عُدَّة عمل جاهزة من أدوات الصنعة" (وهذه هى عبارة دوايت ماكدونالد)(١٧) لتقديمها إلى الجمهور الذى يساوره القلق. والجمهور يتقبلهم بطيب خاطر ، فهم يلبّون المطلب الذى يصفه كريستوفر لاش بأنه

> الطلب الكبير بصورة غير مسبوقة على الخبراء ، والفنيين والمديرين [الذى أوجده ما يسميه لاش "نظام ما بعد العصر الصناعى"] إذ يزداد اعتماد الشركات والحكومة، فى ظل ضغوط الثورة التكنولوجية ، والزيادة السكانية المستمرة ، وحالة الطوارئ الممتدة بلا أجل مسمى بسبب الحرب الباردة ، على جهاز شاسع من أنظمة البيانات التى لا يفهمها إلا المختصون المدربون، ومن ثم أصبحت الجامعات نفسها مصانع لإنتاج الخبراء بالجملة(١٨) .

ولقد بلغت درجة الجاذبية التى يتمتع بها سوق الخبراء ، وما يدره من أرباح ، حداً جعل معظم الدراسات الخاصة بالشرق الأوسط تتوجه إلى هذا السوق . وهذا السبب وحده يفسر لنا عدم

التفات أى مجلة راسخة القدم (وكـذلك الكتب التى كتبها العلماء الراسخون فى الآونة الأخيرة) إلى بعض الأسـئلة الأساسية مثل : لماذا نقـوم بدراسات الشـرق الأوسط ؟ ومن الذين نتـوجه إليـهم بصفـقاتها ؟ الواقع أن طمس الـوعى المنهجى يشتـرك فى حدوده اشـتـراكًـا كـامـلاً مع وجـود السـوق (الحكومـات والشـركـات والمؤسسـات) ، فالإنسان لا يَسْأَلُ ببـساطة عن سبب مـا يفعله إذا وجد الزبائن الذين يقـدرون إنتاجه أو الذين يمكن أن يتـقبلوه على الأقل . بل إننا نرى ما هو أسـوأ ، فالباحث يتوقف عن التـفكير فى الإقليم والبـشر المقـيـمين فيـه ، وهم الذين تجرى الدراسـات عنهم، فـإذا كان " الإسلام" هو موضـوع الدراسة لم ينظـر إليه باعتباره مشاركًا له فى الحوار بل باعتباره، بأحد المعانى ، سلعة . والنتـيـجة العـامـة هى نوع من سـوء النية الراسخ فـى المؤسسـة ' العلمية' . فإذا وجه أحـد من خارجها انتقـادًا لها كان الرد هو رفع راية أمانـة البحث العلمى وشـرف المجال الذى ينتـمى إليه ، ورأيت الاستعداد لإبداء الغطرسة بالألفاظ الرنانة فى نفى الانحياز السيـاسى ، ووجدت البـاحثين يهنئون أنفـسهم بصـورة تدعم ما يجرى حاليًا إلى ما لا نهاية .

لقد تحدثت حتى الآن عن عمل يتسم بالعزلة أساسًا ، ومعنى هذا فى هذه الحالة أن الباحث يمارس عمله فى إطار رد الفعل إزاء ما تطلبه منه شتى المصالح ؛ فهـو يسترشد بما يراه أفراد طائفته من الباحثين صحيحًا ، أكثر مما يسـترشد بضرورات التفسير الأصيل ،

وقبل ذلك كله فإن الثقافة العامة تفرض العزلة على عمله ، وتضعه فى موقع هامشى إلاّ فى أوقات الأزمات . أى إنه يفتقر إلى كلا الشرطين اللازمين لمعرفة ثقافة أخرى وهما الاتصال الذى لا إكراه فيه بثقافة أجنبية من خلال التبادل الحقيقى ، والتزام الحذر فى التفسير كذلك ، وهذا الافتقار يفرض العزلة ، والنظرة المحلية الضيقة ، والدوران فى حلقات مفرغة فى تغطية الإسلام . ومما له مغزاه أن هذه الأمور توضح أيضًا أن تغطية الإسلام ليست تفسيرًا بمعناه الأصيل بل تأكيد للسلطة . وأجهزة الإعلام تقول ما تشاء عن الإسلام لأنها تستطيع ذلك . والنتيجة أن نرى " الحدود" الإسلامية (العقوبات) وصورة "المسلمين" الصالحين (فى أفغانستان على سبيل المثال) تسودان المشهد الحالى بلا تمييز ؛ ولا تكاد التغطية تشمل شيئًا آخر لأن كل ما يقع خارج نطاق التعريف المتفق عليه لما هو مهم لا يعتبر مرتبطًا بمصالح الولايات المتحدة ومفهوم أجهزة الإعلام للموضوع الصحفى الناجح . ومن ناحية أخرى نجد أن الدوائر الأكاديمية تستجيب لما تفهم أنه يلبى المطالب الوطنية ويستجيب لحاجة الشركات ، والنتيجة هو أنها تقوم "بنحت" موضوعات دراسات إسلامية مناسبة من كتلة هائلة من التفاصيل الإسلامية ، وهى الموضوعات (الرق ، ونظام أهل الذمة وهلمّ جرًّا) التى تحدد صورة الإسلام والدراسة الصحيحة للإسلام بحيث تستبعد كل ما لا يتفق تمامًا مع هذا أو ذاك . وحتى حين يحدث وتقوم الحكومة أو يقوم أحد أقسام دراسات الشرق الأوسط بإحدى

الجامعات ، أو تقوم إحدى المؤسسات بتنظيم مؤتمر يتناول مستقبل دراسات الشرق الأوسط (وهى العبارة التى تستخدم عادة كناية عن السؤال التالى "ترى ماذا سنفعل إزاء العالم الإسلامى ؟") نجد أن مجموعة المفاهيم والأهداف تواصل الظهور فيه . لا يكاد يتغير شىء .

ونحن نرى المراهنة بالكثير على هذا التكرار ، وليس بأقله أهمية نظام "الرعاية" الذى يدار باقتدار لا بأس به . فكبار الخبراء فى هذا المجال ، سواء من الحكومة أو عالم الشركات أو الجامعات عادة ما تربطهم روابط معينة ببعضهم البعض وبالجهات المانحة التى تسايرهم . فالباحث الشاب يعتمد على شبكة علاقاته فى الحصول على إعانته المالية ، ناهيك بالوظيفة وإمكان نشر بحوثه فى المجلات العلمية الراسخة . والمغامرة بكتابة بحوث نقدية 'غير ودية' عن العلماء المعترف بهم أو عن عملهم تعنى المخاطرة بالكثير فى هذا المجال أكثر من مجالات التاريخ العام أو الأدب . ولذلك فالمقالات التى 'تراجع' أى تعرض الكتب مقالات لا طعم لها وعادة ما تميل إلى امتداح الكتاب ، والنقد عادة ما يكتب بلغة موحدة تكتسى أشد الألفاظ إغراقًا فى التحذلق والتنطع ، دون إشارة على الإطلاق إلى المنهجية أو الافتراضات المسبقة . وأغرب ما يفتقر إليه هذا المجال - وأشد الظواهر شيوعًا - هو تحليل الصلة التى تربط البحث العلمى بأشكال السلطة المختلفة فى المجتمع الذى ينجز الباحثون بحوثهم من أجله . وما إن يُسْمَعْ

صوتٌ يتحدى مؤامرة الصمت المذكورة حتى يصبح الموضوع الرئيسى هو الأيديولوجيا والأصول العرقية ، فيقال إن الناقد ماركسى ، أو فلسطينى (أو إيرانى أو مسلم أو سورى) - أو تتردد العبارة المألوفة: نحن نعرف **طبيعة** هؤلاء النقاد ![١٩] .

وأما فيما يختص بالمصادر نفسها ، فهم يتعاملون معها دائمًا كأنما كانت خامدة لا حياة لها ، وهكذا فالباحث حين يناقش مجتمعًا أو حركة أو شخصية إسلامية معاصرة ، فإنه يتناول موضوع مناقشته باعتباره ، بصفة أساسية ، من **الأدلة** ، ونادرًا ما يعتبره كيانًا يتمتع بالاستقلال وبحق الرد ، بمعنى من المعانى . ومن الطريف أن الخبراء الغربيين فى الإسلام لم يبذلوا أى محاولة على الإطلاق للتناول المنهجى للكتابة الإسلامية عن الإسلام : هل هى بحوث علمية ؟ هل هى أدلة على شىء ما ؟ أليست هذا ولا ذاك ؟

ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه الأحوال القاحلة إلى حد بعيد ، بل وربما بسببها ، يكتب بعض الكُتّاب كتابات تتضمن معرفة لها قيمتها عن الإسلام ، وتتمكن بعض الأذهان المستقلة من عبور الصحراء . ولكننا نستطيع القول بأن الطابع الهامشى العام والتفكك **الفكرى** العام (فى مقابل اتفاق آراء أبناء المهنة الواحدة) وإفلاس الشروح والتفسيرات فى معظم ما يكتب عن الإسلام - لا فى كل ما يكتب قطعًا - يرجع إلى الزمالة التى تربط بين أطراف الشبكة التى تضم الشركات والحكومة والجامعات ، وهى الشبكة

التى تسـيطر على العمـل برمتـه . وهذا فى نهاية المطاف هو مـا يتحكم فى كيـفية رؤية الولايات المتحـدة للعالم الإسلامى . وإلاَّ فمـا السبب الذى يجعل مـثل هذا الهيكل البـالغ الغرابة للمعـرفة بالإسلام ينمو ويزدهر ، وقد تشابكت فروعه، وترسخت جذوره، غير عابئ بما يصيبه من فشل مرة بعد أخرى ؟

وأنجع منهج لفـهم طابع هذه الرؤية بدقـة ، وهى الرؤية التى اكتسبت قوة الإيمان الذى لا يحتـمل التساؤل ، هو أن نقارنها مرة أخرى بالموقف السائد فى بريطانيا وفرنسا ، وهمـا اللتان خَلَفَتْهُمَا الولايات المتحـدة فى العالم الإسلامـى . ففى كل منهمـا كنا نجد دائمًا ، بطبيعة الحال ، صَفًّا من الخبراء الإسلاميين الذين ينهضون بدور استشارى ، ومنذ مدة بعيدة ، فى وضع السياسات الحكومية والتجارية وحـتى فى تنفيذها . ولكنا كنا نجد فـى كلتا الحالتين أن المهمـة المباشرة هى إدارة شئـون الحكم فى المستعمـرات ، وهو ما استـمر قائمًا حـتى نهاية الحرب العـالمية الثانيـة ، وكان يُنظر إلى العالم الإسـلامى باعتبـاره سلسلة من المشاكل المنفـصلة ، وكانت المعرفة بتلك المشكلات ، بصفة عامة ، معرفة علمية تجريبية ونابعة من التصدى المباشر لهـا . صحيحٌ أن بعض النظريات والتجريدات الخاصة بالعقل الإسلامـى ، فيما يتعلق **'بالرسالة الحضارية'** عند فرنسا ، وبالحكـم الذاتى للـشعوب الخاضعة لبـريطانيا ، تتدخل هنا وهناك فى تطبيق السيـاسات ، ولكن ذلك لم يكن يحدث إلا بعد وضع السـياسـات والشروع فى تنفيـذها ميـدانيًا إن صح هذا

التعبير ، وكان للحديث عن الإسلام دور يكاد ينحصر فى تبرير المصلحة القومية (أو حتى المصالح الاقتصادية الخاصة) فى العالم الإسلامى . وهذا هو السبب الذى يفسر لنا وجود علماء كبار فى الدراسات الإسلامية فى بريطانيا وفرنسا اليوم ، واعتبارهم من الشخصيات العامة المرموقة ، وأما مبرر وجودهم ، حتى بعد أن تفككت الامبراطوريات الاستعمارية الآن، فهو الحفاظ على اهتمام فرنسا وبريطانيا بالعالم الإسلامى. والطابع الغالب لأمثال هؤلاء العلماء ، ولأسباب أخرى كثيرة ، هو طابع البحث الإنسانى لا البحث فى العلوم الاجتماعية ، والتأييد الذى يتمتعون به فى الثقافة العامة لا يرجع إلى الطلب على الخبراء الذى يتسم به نظام ما بعد العصر الصناعى (وهو الطلب القائم فى البلدين جميعًا) مثلما يرجع إلى التيارات الفكرية والأخلاقية العريضة فى المجتمع، فإن رودنسون فى فرنسا أستاذ مرموق فى فقه اللغة وهو أيضًا ماركسىٌّ شهير ، وحورانى فى انجلترا مؤرخ ذائع الصيت ورجل يشى عمله بليبرالية واضحة[٢٠] . ولكن أمثال هؤلاء لم يعودوا يظهرون فى فرنسا وفى انجلترا ، ومن المحتمل أن يحل محلهم فى المستقبل علماء اجتماع بالأسلوب الأمريكى أو علماء آثار متخصصون .

وأما العلماء المماثلون فى الولايات المتحدة فلا يُعرفون إلا بصفتهم خبراء فى الشرق الأوسط أو خبراء إسلاميين ، فهم ينتمون إلى طبقة الخبراء ، وأما مجال عملهم ، فى حدود ما

يربطهم بالمجتمعات الحديثة فى العـالم الإسلامى ، فيمكن اعتباره المرادف الفكرى لعلم إدارة الأزمات . وهم يدينون بجانب كبير مما يتمتعون به من مكانة إلى القول بأن الولايات المتـحدة تعتبر العالم الإسلامى منطقـة استراتيجيـة حافلة بالمشكلات **التى يمكن** أن تنشأ (وإن لم تكن دائمًـا مشكلات حـقيقـية) . وعلى امـتداد العـقود العديدة التى تولت فـيها بريطانيا وفرنسـا إدارة شئون المستـعمرات الإسلامـية ، تكونت لديهـما بصـورة طبيـعية طبـقة من الخـبراء بالمستـعمرات ، ولكن هذه الطبـقة لم تفرز مـا يتبعهـا أو ما نراه ملحقًا بها فى الولايات المتحـدة ، أى شبكة التحالف بين دراسات الشرق الأوسط والحكومة والشركات. كـان أساتذة اللغة العربية ، أو الفـارسيـة، أو المؤسسـات الإسلامـية ، يقـومون بعـملهم فى الجامعات البريطانية والفـرنسية ؛ وكانوا يتلقون الدعوة من وزارات المستعـمرات أو من الشركات الـتجارية الخاصة لإسـداء المشورة أو حتى للمـشاركة فيهـا ، وكانوا أحيانًا يعـقدون المؤتمرات ؛ لكنهم فيمـا يبدو لم ينشئوا هيكلاً مـستقلاً خاصًـا بهم ، يتولى الإنفاق عليه بل والمحافظة على وجوده القطاع التجارى الخاص ، أو يتلقى الدعم المباشر من المؤسسات والحكومة .

وهكذا تحـدد المعـرفة بالـعالم الإسـلامى وتغطيـة أنبـائه فى الولايات المتحدة عوامل الجغرافيا السـياسية والمصالح الاقتصادية ، وعلى نطاق هائل من المحال تحـقيقه للفـرد ، ويدعم هذه العوامل ويساعدها هيكل لإنتـاج المعرفة يكاد يماثله فى ضخامتـه واستحالة

التحكم فيه . وما عسى أن يفعله دارس قبائل الجزيرة العربية أو قبائل الإمارات العربية إزاء العقبة التى يمثلها وجود شركة النفط بينه وبين هذه القبائل ، وإزاء الحديث الجاد عن قوات الانتشار السريع والعمل على تنفيذها (انظر موضوع الغلاف لمجلة **نيوزويك** فى ١٤ يوليو ١٩٨٠ بعنوان ''الدفاع عن حقول النفط : زيادة الحشود العسكرية الأمريكية'') فى منطقة الخليج ، وإزاء الجهاز الكامل من ''العاملين'' فى مجال الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الأمريكية ، وبالشركات والمؤسسات ، وشتى كبار الأساتذة من المستشرقين ؟ ترى أى لون تكتسبه المعرفة بثقافة أخرى فى الواقع حين تكون محاطة بسياجٍ من الافتراضات النظرية التى تقول إن ''أزمة الهلال'' أزمة ملحة عاجلة، من ناحية، وسياج من الروابط المؤسسية المزدهرة بين الدراسة العلمية ، والشركات التجارية ، والحكومة ، من ناحية أخرى ؟

ولأختتم هذا القسم بمحاولة الإجابة عن هذا السؤال بحقائق من الواقع ، فى جزءين ، يتعلق الجزء الأول بالأوضاع الفعلية ، وبالحقائق والأرقام التى تحكم ما يمكن أن نسميه التغطية العملية والتى تعتبر 'صحيحة' للإسلام . وسوف أركز على الولايات المتحدة وإن كنت أرى أن موقفًا مماثلاً إلى حد بعيد قد بدأ يسود فى أوروبا ، تدريجيًا ، أيضًا . يقول مسح فرنسى مفيد للمراكز الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط إن عددًا يبلغ تقريبًا ١٦٥٠ متخصصًا فى الشرق الأوسط كان يقوم فى عام ١٩٧٠ بتدريس

لغات المنطقة لعدد من طلاب الدراسات العليا يبلغ ٢٦٥٩ طالبًا، و ٤١٥٠ من طلاب الدرجة الجامعية الأولى (وهم يمثلون، على الترتيب ، ١٢ فى المائة و ٧,٤ فى المائة من مجموع عدد طلاب الدراسات العليا والدرجة الجامعية الأولى الذين اختاروا "دراسات المنطقة" مادة رئيسية[٢١] . وقد اختار المواد الدراسية الخاصة بالشرق الأوسط التى تشملها "دراسات المنطقة" عدد من طلاب الدراسات العليا يبلغ ٦٤٠٠ طالبًا ، وعدد من طلاب الدرجة الجامعية الأولى يبلغ ٢٢٣٠٠ طالبًا (وكان يمثل نسبة ١٢,٦ من المجموع) ولكن رسائل الدكتوراه التى كتبت فى مجال دراسات الشرق الأوسط فى الأعوام الأخيرة كانت لا تشكل إلا نسبة ضئيلة بالمقارنة بغيرها ، إذ لم يتقدم بها إلا أقل من واحد فى المائة من طلاب الدكتوراه فى البلد[٢٢] . وتقول دراسة تتسم بالعمق والفطنة لمراكز الشرق الأوسط فى الجامعات الأمريكية كتبها ريتشارد نولت (والطريف أن شركة إسو للشرق الأوسط ، وهى فرع من فروع شركة إكس كون للنفط ، هى التى كلفته بإعدادها) ونشرها فى عام ١٩٧٩ ، إن وزارة التعليم الأمريكية كانت تساند "دراسات المنطقة" بهدف "إعداد الخبراء والمتخصصين بسرعة وبأعداد كبيرة لتلبية أغراض الشركات والأغراض الحكومية والتعليمية" . ولقد استجابت الجامعات لهذه النظرة ، وقد أصاب نولت حين كتب يقول "تعتبر مراكز الشرق الأوسط ، من وجهة النظر الجامعية ، آلية تسويق جديدة تبشر بالخير لإنتاج الجامعات، إذ لن تقتصر على

المساعدة فى زيادة قابلية هذا الإنتاج للتسويق ، من المتخصصين فى شتى الفروع العلمية المفيدة من دراسات المنطقة ، والمهنيين اللازمين للأسواق الجديدة التى يمكن أن تتسع اتساعًا هائلاً ، لكنها سوف تساعد أيضًا فى إنشاء هذه الأسواق" . ويقول أيضًا فيما يتعلق ببرامج الماجستير "تتمتع الأسواق الحكومية ، وأسواق الشركات والمصارف وغير ذلك من الأسواق المهنية بالرواج النسبى فيما يتعلق بتعيين الحاصلين على الماجستير الذين تلقوا التدريب المناسب فى دراسات الشرق الأوسط ، بفضل العوامل الاقتصادية والسياسية المتماثلة عند الجميع"(٢٣) .

وكما تساعد الحلقات الدراسية التى عقدت فى جامعة برنستون، والتى أشرت إليها آنفًا ، فى تشكيل الاهتمامات الفكرية للباحثين والدارسين ، نجد أن حقائق هذه الأسواق تؤثر هى الأخرى فى المواد الدراسية وموضوعات البحوث . وتركز دراسات الشرق الأوسط أشد التركيز على مجالات معينة مثل الشريعة الإسلامية والصراع العربى الإسرائيلى ، فصلتها بالواقع الحى واضحة فى الظاهر ، ولكن ذلك يترتب عليه ، وفقًا لما يقوله نولت ، تجاهل الأدب ، وتجاهل المجموعات الكبيرة إلى حد ما من طلاب الشرق الأوسط فى الجامعات الأمريكية . كما يقول نولت إن مديرى المراكز الذين حادثهم

أشاروا إلى أحداث معينة تعرضوا فيها لضغوط سياسية منظمة ، كان مصدرها فى حالات كثيرة من خارج

الجـامـعـات ، ترمى إلى منع أو تشـويه صـورة بعض الأنشطة المرتبطة بـالعرب ، والتى تراها المـراكز المعنيـة مشروعـة ومستحـبة من وجهة النظر الأكـاديمية ، ومن بينهـا الاحتفـالات الثقـافية العـربية ، وعـرض الأفلام العربيـة ، واستضافـة المتحدثين العرب ، وقـبول المنح العربيـة لتدعيم الميزانيـة - وغير ذلك كثـير . وقد أدى الوعى بهذا إلى فرض 'التعويق النفسى' على الجميع ، وهو ما لم يـتخلّف معظم المـديرين عن إبداء استـيائهم منه، ولم يكـن بينهم من يملك أن يتـــجـاهله . وقـال بعضهم إن الأحوال تسير فى طريق التحسُّنِ ، وتشكك آخرون فى ذلك[٢٤] .

وتعلن هذه وتلك جميعًا - أى السـياسة والضغوط والأسواق - عن نفسها بطرائق مختلفة . فالحاجة إلى الخبرة بالشرق الأوسط المعاصر تؤدى إلى وضع مناهج دراسية كثـيرة ، والتحاق الكثيرين من الطلاب بهـا ، مع التأكـيـد الواضح على قبـول 'منظورات' المعـرفة الأسـاسـيـة التى تجمـع بين الربح المادى وإمكان التطبـيق الفورى ، والحفاظ على هذه 'المنظورات' . ومن النتائج الأخرى أن الأبحاث المنهـجية غـائبة عن الساحـة غيابًا مطلقًـا ، فالطالب الذى يرغب أن يشق طريق حـيـاته العـملية فـى دراسات الشـرق الأوسط يخـشى أول الأمـــر السنوات الطويلة المجـــدبة اللازمـة للحصول على الدكتوراه (دون ضمـان الحصول على وظيفة مدرس

آخر الأمر) فيحصل على الماجستير أو دبلوم الدراسات الدولية فى موضوع تتوافر فيه الجاذبية لأكبر أصحاب العمل (الحكومة ، وشركات النفط ، وبيوت الاستثمار الدولية، وشركات المقاولات) وأخيرًا يقوم بعمله بأسرع ما يمكن ، وفى شكل 'دراسة حالة' . ويؤدى هذا كله إلى عزل دراسة الإسلام أو الشرق الأوسط عن التيارات الفكرية أو الأخلاقية الأخرى فى دنيا الباحثين والعلماء . وتبدو أجهزة الإعلام هنا مسرحًا أصلح وأجدى لعرض خبرته من الدوريات العلمية المتخصصة مثلاً ، كما أن الظهور فى أجهزة الإعلام يعنى ، على نحو ما يعرف من اعتادوا ذلك ، إما أن تكون مناصرًا لقضية ما (وهو ما يفرض عليك قيودًا شديدة) أو تظهر بصورة الخبير الهادئ الذى استُدْعى دون تحيز ليصدر الأحكام على المذهب الشيعى ومعاداة أمريكا . ومن الواضح أن دور الخبير يساعد المرء فى حياته العملية ، إلا إذا كان قد أصاب النجاح من قبل فى التجارة أو فى عمل حكومة .

قد يبدو ذلك فى صورة 'المحاكاة الساخرة' لأسلوب إنتاج المعرفة ، لكنه يصف بدقة كافية مدى ضيق التركيز والفقر الفاجع للمادة الدراسية اللذين يعيبان المعرفة بالإسلام ، وهو يفسر لنا ، قبل كل شىء ، سبب ابتعاد الخبراء الأكاديميين كل البعد عن الطعن فى الصور النمطية السوقية التى تروجها أجهزة الإعلام ، إذ إنهم يشكّلون هيئة فقدت استقلالها وأصبح أفرادها يقتصرون على أداء الدور الذى تقضى به وظائفهم ، وهو الذى يرمز لمكانتهم

باعتبارهم الحجة الموثوق بها فى موضوع الإسلام ، وكذلك اعتمادهم على النظام الكُلّى الذى يحدد هذه الوظائف فى إطاره ويجعلها مشروعة ، وهذا هو النظام الذى نرى تجلياته فى أجهزة الإعلام التى تعتمد على الصور النمطية القائمة على الخوف والجهل .

وإذا كان ما تحدثت عنه حتى الآن يبدو فى صورة القيود الفكرية التى تحد من حرية البحث العلمى – وهى الصورة الحقيقية دون شك – فإن هذه القيود لا تحول دون إنتاج مادة كلامية هائلة عن الشرق الأوسط وعن الإسلام بل وعن بعض مناطق العالم الأخرى . وبعبارة أخرى نجد أننا نواجه الآن ما وصفه فوكوه ، فى سياق آخر ، بأنه ''الحضُّ على الكلام''(٢٥) . فالقيود التنظيمية للفكر والتفكير بشأن الثقافات الأجنبية النائية تختلف اختلافًا شاسعًا عن عمل الرقيب الذى يتدخل بالمنع والحذف ، إذ إنها تحض بصورة إيجابية و'تأكيدية' على كتابة المزيد من المادة المنتجة فى ظل هذه القيود . وهذا هو سبب استمرارها رغم التغيرات التى يشهدها العالم ، وسبب مواصلتها تجنيد العاملين فى خدمتها .

وهكذا فإن التغطية الحالية للإسلام وللمجتمعات غير الغربية ، فى مجملها ، تضفى القداسة فى واقع الأمر ، على عدد معين من الأفكار والنصوص والثقات . فالفكرة التى تقول إن الإسلام ينتمى للعصور الوسطى ويشكل خطرًا علينا ، مثلاً ، أصبحت تشغل

مكانًا محـددًا بدقة فى الثـقافة العـامة وفى السيـاسة ، فمـا أيسر الاستشهاد بالثقات لتأكيدها ، والإشارة إليها ، وإقامة الحجة على صحة زعمٍ مـا بشأن جانبٍ ما من جوانب الإسلام اسـتنادًا إليها، ولقد أصـبح ذلك ميـسوراً وفى متناول أيدى الجـميع، لا الخـبراء وحدهم ولا الصحـفيين . ومثل هذه الفكرة تقوم بدورها بصفـتها المعيار المسبق الذى لابد أن يضعه فى حـسبانه كل من يبغى مناقشة الإسلام أو قـول شىء ما عن الإسـلام . فبـعد أن كـان الإسلام حقيقة خارجـية ، أو بالأحرى تلك الكيانات المادية المرتبطة به فى كل حالة ، أصبحت هذه الصورة للإسلام ذات صـحة معتمدة فى هذا المجتـمع نفسه ، بعـد أن دخلت الثقافة المـعتمدة وأصـبحت تنتمى إليها ، وهو ما يجعل من مهمـة تغييرها عملاً بالغ الصعوبة حقًا وصدقًا .

ويكفى هذا فيما يتـعلق بالتغطية ' المعتمدة' للإسلام ، وهى التغطية التـى أدت روابطها بالسلطة إلى منحها القـوة ، والثبات ، وكذلك وقبل كل شىء ، **الحضور** . ومع ذلك فلقد شاعت نظرة أخرى للإسلام ، تنتمى إلى فئة أخرى قد أطلق عليها صفة **المعرفة المضادة**[٢٦] .

وأعنى بالمعرفة المضادة نوع المعرفـة الذى ينتجه الذين يعتبرون أنهم يعارضون ، واعين ، الصورة السائدة المعتمدة فيما يكتبون . وهم يفعلون ذلك ، على نحـو ما سوف نرى ، لأسباب مـتفاوتة وفى مواقف مـتباينة ، ولكنهم جمـيعًا يدركون جـيدًا أن أسلوب

وأسبـاب دراستهم لـلإسلام مسـائل تتطلب التأمل والصـراحة . ونحن لا نجد فى تفسيرات هؤلاء المفسرين المضادّين ما نعهده من صمت منهجى فى كتابات المستشرقين ، وهو الصمت الذى عادة ما يشيع فيه التـفاؤل النابع من الثقة فى ' موضوعيتهم' البريئة من أحكام القيمـة ، بل نجد بدلاً منه مناقشة تتميـز بالعجلة والإلحاح للمعانى السياسية للدراسة الأكاديمية .

وتنقسم المعـرفة المضـادة بالإسلام إلى ثلاثة أنمـاط رئيسية ، تنتجـها ثلاث قـوىً فى المجتـمع القادر على تحدى تـلك الصورة السائدة المعتمدة : تتكـون الأولى من مجموعة من الباحثين الشبان الذين يتسمون بالمزيد من الحذق العلمى والمزيد من الأمانة السياسية عن أقرانهم الكبار العـاملين فى هذا المجال ، وهم يرون أن دراسة الإسلام ترتبط بصورة ما بالنشـاط السياسىّ للدولة ومن ثم فهم لا يتظاهرون بأنهم باحثون " موضوعيون" . وهم يرون أن انغماس الولايات المتحدة فى السياسة العالمية ، وهى التى يرتبط جانب كبير منها بالعالم الإسلامى ، حقيـقة لا ينبغى الصمت إزاءها أو تقبلها باعتبارها واقعًا محايدًا . ويتميزون عن المستشرقين الأكبر سنًا بأنهم متخصـصون ولا يهتمون بإصدار الأحكام العـامة مثلهم ، وبأنهم يرحبون بالأدوات المنهجية التجديدية مثل الأنثروبولوجيا البنيوية ، والمناهج الكمّيّـة ، والطرائق الماركسيـة للتحليل، ويبدون اهتمـامًا حقيـقيًا بها وينـجحون فى تطبيـقها فى حالات كـثيرة[٢٧] . وهم يبدون حساسية ووعيًا خاصًا بأشكال الخطاب الاستشراقى المتسمة

بالتحيز العرقى ، ويتميز معظمهم ، بسبب حداثة سنّهم ، بالعمل إلى حد ما خارج نطاق نظام 'الرعاية' الذى يضمن لشيوخ مهنتهم ما ينعمون به من ترف . وقد برزت من صفوفهم 'الحلقة الدراسية البديلة لدراسات الشرق الأوسط' ، كما ظهر مشروع بحوث ومعلومات الشرق الأوسط ، وقد أنشئ كلاهما باعتبارهما منظمتين ترميان بصفة محددة إلى تجنب التواطؤ مع الحكومة وشركات النفط . وقد تشكلت مجموعات مماثلة فى أوروبا ، وترتبط كل هذه الهيئات بعضها بالبعض . ولا ينتمى جميع الباحثين الشبان الذين أشير إليهم إلى هذه الهيئات ، ولكن معظمهم يبتغون تعديل المناهج القائمة وتنقيحها . وهم يسعون جميعًا إلى دراسة الإسلام من منظورات يهملها أو يجهلها من هم أكبر سنا منهم .

وتتكون المجموعة الثانية من باحثين أكبر سنًّا ولكنهم ، لأسباب أكثر من أن تلخص تلخيصًا منهجيًّا ، يتبعون مناهج معارضة للدراسات المعتمدة السائدة فى هذا المجال . وعلى سبيل المثال نجد أن حامد الجار ، من بيركلى ، ونيكى كيدى من جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس ، ينتميان إلى القلة القليلة من الباحثين المتخصصين فى إيران الذين قاموا ، قبل نشوب الثورة الإيرانية بعدة سنوات ، بإيلاء الدور الذى يلعبه علماء الدين (رجال الدين الشيعة فى إيران) ما يجدر به من اهتمام . ويختلف الجار عن كيدى اختلافًا كبيرًا ، وإن كان كل منهما قد أعرب عن تشككه

الكبيـر فى استقـرار نظام الحكم البهلوى . وعلى غـرار ذلك قام إرڤاند إبراهاميان، مـن كلية باروخ ، بإجراء دراسات للمـعارضة العلمانيـة للشاه ، وهى الدراسات التى تضـمنت سلسلة رائعة من النظرات العميقة فى الديناميات السياسية للثورة ، ومن بعده مايكل ج. فيشر من جامعة هارڤارد ، وفريد هاليداى فى انجلترا ، وهما باحثـان دفعتـهمـا دوافع فكرية وأكاديمية إلى الخـروج على نظرية الأغلبيـة إلى إيران ، ومن ثم أجريا دراسـات ذات قيمـة فذة فى إيران المعاصرة(٢٨) .

والطريف أنه من المحـال وضع تلخـيص منصف للخصـائص المنهجـية والأيديولوجـية لهـؤلاء الذين يكتبون هذه الـكتابات عن الإسـلام . ومع ذلك فـمن اللافت للنظر أنه ليـس من بينهم من ينتمى إلى ' مؤسـسة' دراسات الشـرق الأوسط ، ولا يعنى هذا أنهم شخصيات غيـر بارزة أو لا تتمتع بالاحترام ، فهم فى الواقع مبرزون ومـحترمون ، وإن كان يندر أن نجد بينهم من يعـمل فعلاً أو بحكم الوظيفـة مستشـارًا للحكومة أو للشركـات . وقد يكون ذلك هو ما حرّرهم مـن الالتزام بالوضع الراهن ومكّنهم من رؤية ما أهمله وتجاهله الكُتّاب التـقليديون عن الإسلام . لكننا لابد أن نقول إن عملهم ، وعـمل مجموعة الباحـثين الأصغر سنًّا والمشار إليهم آنفًا ، لن يحقق ما هو قادر عليه من تأثير إلاّ إذا ازداد الدور السـياسـى المنوط بهم فى هذا المجـتمع . أى إن اعـتناقـهم لآراء تميّزهم عن الخبراء ' المعتمدين' لا يكفى ، وعليهم أن يحاولوا أن

يكفلوا الشيوع لآرائهم بين الناس ، وهو جهد يتجاوز كثيراً مجرد كتابة الدراسات ونشـرها ، ومن ثم فهم يواجهون مستقـبلاً حافلا بالنضال السياسىّ والتنظيمىّ .

ونرى ثالثًا مـجموعة من الكُتّـاب والدعاة والمفكرين الذين لا يعتبرون من الخبراء المعتمدين عن الإسلام ، وإن كانت معارضتهم لما هو شـائع بصفـة عامـة هى التى تحـدد دورهم فى المجتـمع ، وهؤلاء هم المناضلون المناهضـون للحرب وللإمـبريالية ، ورجال الدين المنشقـون ، والمفكرون والمعلمون الراديكاليـون وهلم جرا . ونظرتهم إلى الإسلام لا يكـاد يربطها شىء بمذهب المستـشرقين ، وإن كان بعضهم قد تأثر بالاستـشراق الثقافى الشائع فى كل مكان فى الغـرب . ومع ذلك - إذا أخذنـا رجلاً مـثل أ. ف. ستـون مثالاً- فسوف نجد بعض العوامل التى تخفف من التشكك والنفور الثقـافى من الإسلام مثل إدراك طبـيعة الإمبـريالية، وهو الإدراك الذى تنجم عنه مشاعر أقوى وأصلب ، ومـثل إدراك طبيعة المعاناة البـشـرية سـواء كـان من يكابدونهـا من اليـهـود أو المسلمين أو المسيـحيين . وقد تفـرد ستون بالتنبـؤ بعواقب استـمرار الولايات المتحدة فى مناصرة الشاه بعد الثورة ، ولقد كان أمثاله ، لا الخبراء الحكوميون أو الأكاديميون فى شئون إيران ، هم الذين نادوا باتخاذ سياسات المصالحة مع النظام الثورى .

وأما مـا يدعو لـلإعجاب بـهؤلاء الأشخـاص فهـو أنهم لا يحملون شـهادات خبرة رسـمية بالإسلام ولكنهم اسـتطاعوا رغم

ذلك ، فيما يبدو ، أن يتفهمـوا ديناميات معينة داخل عالم ما بعد الاستعمار ومن ثم داخل مناطق أكـبر من العالم الإسلامى . وأما التقسيـمات الجديرة بالاهتمام فى نظرهم فتقـوم على أساس الخبرة البشرية لا على أساس 'العناوين' التى تحد من القدرة على التفكير مثل ''العقل الإسلامى'' أو ''الشخـصية الإسلامـية'' . زد على ذلك أن لديهم اهتمامًا حقيقـيًا بمبدأ التبادل والمبادلات ، واختاروا عامـدين أن يتجـاوزوا ما رسـمتـه الحكومات من خطوط صـارمة للعداوة بين الشعـوب . ويخطر على البال هنا أساسًا قـيام رامزى كلارك بزيارة طهران ، والدور الذى يتسم بالشجاعة الذى نهض به فى أحلك أيام الأزمة الإيرانيـة أفراد مثل ريتشـارد فولك ، ووليم سلون كـوفين الإبن ، ودون لوس ، وغيـرهم ممن لا يحـصيـهم العد، إلـى جانب بعض المنظمـات مثل لجنة خـدمة الأصـدقاء ، ومثل منـظمة ''رجـال الدين والعلمـانيين الذين يعنيـهم الأمـر'' وغيرها من المجموعات المماثلة . وعلينا أن نضيف إلى هذا الحشد من المنشقين شتى المجـلات والمطبوعات و'وكالات الأنباء' البديلة ، ومن بينهـا **سـبعـة أيام والأم چونز** ، **وفى هذا العـصـر** ، **والجارديان**، ووكالة أنباء المحـيط الهادى ، **والمسيـحيـة والأزمة** ، وهى التى فتحت صفحاتها وأتاحت مواردها للآراء المعارضة [للتيار الرسمى] فى قضية إيران ، وبنسـبة أقل ، مع الأسف ، فى قضية الإسلام. وقد تكررت الظاهرة نفسها فى أوروبا .

وأما أهم مـا تتسم به هذه المجمـوعات الثلاث فى رأيى فـهو

أنها تعتبـر المعرفة ، أساسًا ، مطلبًا يسعى المرء جاهدًا إلـى تحقيقه ومجالاً لاختلاف الآراء ، لا مـجرد ترديد سلبى للحقائق والآراء ''المقبولة'' . والصراع بين هذه النظرة ، فى حدود ما يترتب عليها من تأثير فى موقفنا إزاء الثقافـات الأخرى ، وما يترتب عليها من تأثير فى المسائل السياسية الأوسع نطاقًـا ، وبين المعرفة المتخصصة المؤسسية التى تتـبناها القوى المهيمنة فى المجتمـع الغربى المتقدم ، صراع بالغ الأهمية . فـهو يتخطى ويتجاوز كثيـرًا تساؤلنا عما إذا كان أحـد الآراء يؤيد الإسـلام أو يعارضـه ، وعما إذا كـان المرء يتمتع بالوطنية أو يتصف بالخيانة . فكلما ازداد ترابط عالمنا واشتد تشابك أطرافـه ، زاد استحـسان (وازدادت ضـرورة) الرقابة على الموارد المحـدودة ، والمناطق الاستـراتيجـية والأعـداد الكبيـرة من السكان . وأما الحرص على تغذية المخـاوف من الفوضى والتشتت فـمن الأرجح أن يؤدى إلى '' قولـبة'' الآراء وزيادة التـشكك فى العالم ''الخارجى'' ، ويصدق هذا على الـعالم الإسلامى مـثلما يصدق على الغرب . وفى تلك المرحلة ، التى بدأت الآن فعلاً، سوف ينهض 'إنتاج' المعرفة ونشرها بدور رئـيسى حاسم بصورة مطلقـة . لكنه حتى يحين مـوعـد تفهـمنا للمعـرفة فى صـورها الإنسانية والسياسية باعتبارها شيئًا نكتسبه لفائدة التعايش والترابط، لا من حيث ارتباطها بأجناس أو أمم أو طبـقات أو أديان معينة ، فلن يبشر المستقبل بالخير .

ثانيا : المعرفة والتفسير :

تعتبر جـميع المعارف الخاصة بالمجتـمع البشرى ، لا المعارف الخاصة بالعـالم الطبيعى ، من المعارف التاريخـية ، ومن ثم فهى تعتمد على الأحكام والتفسيرات . ولكن هذا لا يعنى عدم وجود الحقائق أو البيانات ، ولكنه يعنى أن الحقـائق تكتسب أهميتها من المعنى الذى تكتسبه فى التـفسير . فلا يختلف اثنان حول الحـقيقة التى تقول إن نـابليون قد وجـد وعاش فعـلاً وإنه كان امـبراطورًا فرنسيًا ، ولكن الخلافـات التفسيرية كثيرة حول مـا إذا كان حاكمًا عظيمًا أو حاكـمًا جلب مصائب من لون ما لفـرنسا . وأمثال هذه الخلافات هى المادة التى تتشكل منها الكتابة التاريخية وتُستَقَى منها المعرفة التاريخية . فالتفسيـرات تعتمد كثيرًا على شخص المفسر ، وعلى من يتوجـه إليه هذا المفسـر بالخطاب ، وعلى الغرض الذى يبغى تحقيقه من هذا التفـسير ، وعلى اللحظة التاريخية التى يقوم فيها بالتـفسير . وبهذا المعنى يمكن وصف جميع التفـسيرات بأنها تخضع للسياق أو بأنها **سياقية** ، فهى تقع فى سياق أوضاع ترتبط بها ، ومن ثم فعـلاقةُ هذا السياق ·التفســير علاقةٌ **ارتباطية**(٢٩) . والسيـاق يرتبط بما يقـوله المفســرون الآخرون أيضًـا ، فقد يـؤكد صحتـه ، أو يطعن فيها ، أو يمثـل استمرارًا لما جاء بـه المفسرون الآخرون . ولا يوجـد تفسيـر دون سوابق أو رابطة ما بغـيره من التفسـيرات . وهكذا فكل من يكتب كتـابة جادة عن الإسلام، أو الصين، أو شيكسبير ، أو ماركس ، لابد له أن يأخذ فى اعتباره،

بصورة مـا ، ما سبق أن قيل فـى هذه الموضوعات ، ولو اقتـصر السـبب على رغبـة الكاتب فى ألا يبـدو ما كـتبـه غيـر ذى صلة بالموضوع أو من باب الحشو الذى لا لزوم له . ولا توجد أى كتابة (بل ولا يمكن أن تكون) جديدة إلى الحد الذى يهبها صفة الأصالة الكاملة ، فالكتـابة عن المجتمـع البشرى ليـست حلولاً لمسائل فى الرياضـيات ومن ثم فليس للـمرء أن يطمح إلى تحـقيق الأصـالة 'الجذرية' الممكنة فى ذلك العلم .

وهكذا فإن المعـرفة بالثقافات الأخـرى تتعرض بصفـة خاصة لعدم الدقة، وهى سمة 'غير علمية' كما تخضع لظروف التفسير. ومع ذلك فلنا نقول بصفـة غير قطعية إن المعرفة بإحـدى الثقافات الأخرى ممكنة ، ومن المهم أن نضيف أنها مسـتحبة ، إذا ما توافر شـرطان اثنان ، وهمـا ، بالمناسـبـة ، عين الشـرطين اللذان لا يتـوافـران اليـوم فى دراسـات الشـرق الأوسط أو فى الدراسـات الإسلامية بصفة عـامة . أما الشرط الأول فهو أن على الدارس أن يشعر أنـه مسئول أمام الثـقافات والأشخـاص الذين يدرسهم وأنه على علاقة 'غير جبرية' معهم . وكما ذكرت آنفًا ، كان معظم ما عـرفه الغرب عن العالم غير الغربى قد عرفه فى إطار الاستعمار ، ومن ثم فـإن الباحث الأوروبى كـان يتناول موضـوعه من مـوقع السيطرة العام ، ويقول ما يقوله عن موضوعه دون الرجوع رجوعًا يُعتدّ به إلى ما قاله غيره من غـير الباحثين الأوروبيين . ولقد سبق لى تعديـد الأسباب ، فى هذا الكـتاب وفى **الاستشـراق** ، التى

جعلت المعرفة بالإسلام وبالشعوب الإسلامية تنطلق بصفة عامة لا من موقف سيطرة ومواجهة فحسب بل أيضًا من موقف نفور ثقافى . فالتعريف السلبى للإسلام اليوم يقول إنه القوة التى يختلف الغرب معها اختلافًا جذريًا ، ومن شأن هذا التوتر أن ينشئ إطارًا يحد بصورة 'جذرية' كل معرفة بالإسلام . وما دام هذا الإطار قائمًا استمر الجهل بالإسلام باعتباره خبرةً حيوية يعيشها المسلمون . ويصدق هذا ، للأسف ، وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة ، وكذلك ، ولو إلى درجة أقل قليلاً ، فى أوروبا .

والشرط الثانى يستكمل الشرط الأول ويفى به . فالمعرفة بدنيا المجتمع ، على النقيض من المعرفة بالطبيعة ، هى فى أساسها ما دأبتُ على وصفه بالتفسير : وهى تكتسب مكانة المعرفة بشتى الوسائل ، بعضها فكرى ، والكثير منها اجتماعى بل وسياسى . والتفسير أولاً وقبل كل شىء شكل من أشكال التكوين والإنشاء أى إنه يعتمد على نشاط عمدى إرادى من جانب العقل البشرى ، فهو يصوغ ويشكل ما يسترعى انتباهه بحرص ودراسة . ومثل هذا النشاط يجرى ، بالضرورة ، فى وقت ومكان محددين ، ويقوم به فرد فى موقع محدد ، له خلفيته المحددة ، وفى سياق أوضاع معينة ، لتحقيق سلسلة من الغايات الخاصة. ومن ثم فإن تفسير النصوص ، وهو الذى تبنى عليه أساسًا معرفتنا بالثقافات الأخرى، لا يجرى فى مختبرات يتوافر لها 'التأمين' العلمى

الإكلينيكى ، ولا يطمح إلى تحقيق نتائج موضوعية ، بل هو نشاط اجتماعى يرتبط بروابط متشابكة معقدة بسياق الأوضاع التى نشأ فيها أول ما نشأ ، وهذا السياق هو الذى قد يقرر أنه جديرٌ باكتساب مكانة المعرفة وقد يرفضه استنادًا إلى أنه لا يلائم تلك المكانة . ومن المحال أن يتجاهل التفسير سياق هذه الأوضاع، أو أن يكتمل التفسيرُ دون تفسيرٍ لتلك الأوضاع .

والواضح أن بواعث الإزعاج 'غير العلمية' مثل المشاعر والعادات والأعراف والتداعيات والقيم تعتبر جزءًا لا يتجزأ من أى تفسير ، فكل مفسر قارئ ، ولا يوجد من يمكن أن نعتبره قارئًا محايدًا أو خاليًا من القيم ، أو بعبارة أخرى ، كل قارئ يجمع بين ذاته الخاصة وبين انتمائه إلى مجتمع ما ، وتربطه روابط من شتى الألوان والأشكال بذلك المجتمع . والمفسر فى عمله يخوض غمار مشاعر قومية مثل الوطنية أو النُّعَرَة القومية وأحاسيس شخصية أخرى مثل الخوف أو اليأس ، ولابد من ثَمّ أن يحاول بأسلوبٍ منضبطٍ استعمال العقل والمعلومات التى اكتسبها من التعليمِ الرسمى (وهى التى تمثل فى ذاتها جهدًا مديدًا فى التفسير) حتى يصل إلى مرحلة الفهم . أى إنه لابد من بذل جهد كبير لاختراق الحواجز القائمة بين سياق أوضاع معينة ، وهو السياق الخاص بالمفسر ، وسياق أوضاع أخرى ، وهو السياق الذى كان قائمًا عندما وحيثما كُتب ذلك النص . وهذا الجهد الإرادى الذى يبذله القارئ واعيًا ، أى جهد تخطىّ المسافات والحواجز الثقافية ،

هو الذى يمكّنه من معـرفة المجتمـعات والثقافـات الأخرى - وهو الذى يحد فى الوقت نفـسه من تلك المعرفـة . ففى تلك اللحظة يفهم المفـسر نفسـه فى سياقـه الذاتى ، ويفهم النص فى السـياق الخاص به ، أى فى السـياق الإنسانى الذى نشأ النص فـيه . ولن يتأتـى هذا إلاّ من خلال الوعى بالذات الذى يغـذو الوعى بما هو بعيد وأجنبى وإن كان بشـريًا على كل حال . ولا أظننا فى حاجة إلى تبيـان أن هذا الجهد كله لا عـلاقة له بما يشيـر إليه المستـشرق التقليدى من وجود "معرفة جديدة تختـلف اختلافًا كاملاً" أو بما يذكره الأستاذ بايندر عن "المباحث العلمية" التى تصحح نفـسها بنفسها .

ولابد من ذكر عـنصر آخر من عناصـر هذا الوصف ، الذى يتسم بقـدر ما من التجـريد ، لجهد الـتفسـير الذى يصل المرء فى نهايته إلى المعـرفة ، وهى التى لا تتسم بالثبات والاسـتقرار : من المحال أن يقـدم أحد على التفـسير الذى يـؤدى إلى الفهم ثم إلى المعرفة دون **اهتمام شخصى** . وقد يبدو ذلك من أشد البديهيات ابتذالاً ، ولكن هذه الحقيقة الواضـحة إلى حد كبير هى التى عادةً ما تتـعرض للتجـاهل أو الإنكار . فالباحث الأمـريكى الذى يقرأ ويفسر قصة طويلة معاصرة كتبت باللغة العربية أو اليابانية يبذل فى " الاشتباك" مع موضوع أجنبى جهـدًا يختلف كل الاختلاف عن جهد الكيميائى فى تفسير معادلة كيميائية . فالعناصر الكيميائية لا تثير المشـاعر فى ذاتها ، ولا " تشتبك" مع الأحاسيس الـبشرية

للشخص ، ولو أننا قـد نجد أن هذه العناصر ربما أثارت تداعـيات عاطفية لدى العالِم لأسباب لا تتصل بهذه العناصر ذاتها من قريب أو بعيـد . والعكس هو الصحيح فيـما يمكن أن نطلق عليه صـفة التفسيـر الإنسانى ، وهو يبدأ فعلاً ، وفقًا لمـا يقوله الكثيرون من 'المنظّرين' ، بإدراك أهواء المفـسر ، والإحـساس بأنه غـريب عن النص الذى يفسـره وهلم جرًا . ولقـد كتب هانز-چورچ جادامار يقول :

> يتـأهب كل من يحاول أن يفـهم نصًـا من النصوص لما سـوف يخـبـره به ذلك النص ، ولذلك فـإن كل ذهن مدرّب على التفسيـر لابد أن يكون واعيًا ، منذ البداية ، بصـفـة الجِدّة فى ذلك النـص . ولكن ذلك اللون من الوعى لا يعنى " الحياد" إزاء المادة المطروحـة ولا إلغاء ذات القارئ ، لكنه يعنى أن يتمـثل القارئ واعيًا أهواءه ومعانيه المسبقة [أى المعانى والتـفسيرات القائمة سلفًا فى الذهن نتيجة الخبرات السابقة] وأهم ما فى الأمر هو أن يكون القارئ على وعى بانحيـازه الخاص ، بحيث يقدم النص نفسه إليه بكل ما فـيه من جِدّة ، ويتمكن القارئ بذلك من تأكيد صدق النص بالرجوع إلى المعانى المسبقة فى ذهنه(٣٠) .

وهكذا فإن أول مـا ينبغى أن يتوافـر الوعى به عند قراءة نص أنتجته ثقافة أجنبيـة هو المسافة التى تفصله عنّا ، والشرط الرئيسى

لوجود هذه المسافة (الزمنية والمكانية) هو ، دون مبالغة ، وجود المفسر فى زمنه ومكانه ، وإن لم يقتصر الشرط على ذلك . وكما سبق أن رأينا ، يقوم المنهج المتبع فى دراسات المستشرقين أو فى "دراسات المنطقة" على معادلة المسافة بالسلطة ، أى على إدراج عنصر الطابع الأجنبى للثقافة النائية فى قواعد الكتابة الأكاديمية التى توحى بأنها المرجع الموثوق به ، والتى تتمتع بالمكانة الاجتماعية للمعرفة ، دون اعتراف بما فرضه ذلك الطابع الأجنبى على المفسر ، ودون إقرار بهيكل السلطة الذى مكّن المفسر من أداء عمله . والذى أعنيه ببساطة هو أنه لا يكتب اليوم كاتب فى الغرب شيئًا عن "الإسلام" ، دون استثناء تقريبًا ، وهو يدرك بوضوح أن ذلك "الإسلام" يعتبر ثقافة معادية ، وأن أى شىء يقوله كاتب محترف عن الإسلام يقع فى منطقة نفوذ الشركات والحكومة ، وأن كلا من هذين يلعب دورًا بالغ الضخامة فى إخراج هذه التفسيرات ، ومن بعدها المعرفة بالإسلام ، وجعلها "فى خدمة المصلحة القومية" . وخير مثال على هذا موقف لينارد بايندر، فى الحجة التى قمت بتحليلها آنفًا ، إذ إنه يشير إلى هذه المسائل ثم يجعلها تختفى فى الجملة التى يعرب فيها عن التبجيل لروح المهنة و"المباحث العلمية" التى تعتبر وظيفتها الجماعية الأسلوب الفعال القادر على رفض كل ما من شأنه المساس بقناع الموضوعية العقلانية الذى تضعه على وجهها . وهذا مثال على المعرفة المقبولة اجتماعيًا التى تمحو الخطوات التى أدت إلى إنتاجها .

ولنزد الآن من إيضاح معنى "الاهتمام" باعتباره جانبًا من جوانب التفسير بأمثلة عملية . فالغربى لا يتصادف أن يهتم بالإسلام أو بالثقافة الإسلامية أو المجتمع الإسلامى ، والمواطن الذى ينتمى إلى دولة صناعية غربية اليوم لا يلتقى بالإسلام إلا بسبب أزمة سياسية نفطية ، أو بسبب التركيز الإعلامى المكثف ، أو بسبب التقاليد العريقة للخبراء "بالإسلام" ، أى للمستشرقين، فى شرح الإسلام وإيضاحه فى الغرب . وانظر إلى أى باحث شاب فى التاريخ يرغب فى التخصص فى التاريخ الحديث للشرق الأوسط . إنه يبدأ دراسته للموضوع فى ظل تأثير العوامل الثلاثة المذكورة ، وكلها يشترك فى تشكيل وصياغة السياق الذى يدرك الباحث فيه "الحقائق" أى ما يفترض أنه البيانات الأولية . وبالإضافة إلى ذلك تتدخل عوامل أخرى ، مثل التاريخ الشخصى للفرد ، وحساسيته ، ومواهبه الذهنية ، وهى فى مجموعها تشكّل قدرًا كبيرًا من اهتمامه بالموضوع : ونرى التوازن بين حب الاستطلاع الخالص وبين الأمل فى حصول على وظيفة مستشار بوزارة الخارجية الأمريكية أو بإحدى شركات النفط ، والرغبة فى تحقيق الشهرة فى البحث العلمى ، أو فى "إثبات" أن الإسلام نظام ثقافى رائع (أو حتى رهيب) والطموح فى أن يكون جسرًا بين هذه الثقافة وتلك ، والرغبة فى المعرفة . وإلى جانب ذلك نرى أن النصوص والأساتذة والتقاليد البحثية ، واللحظة التاريخية المعينة، قد بدأت تطبع بطابعها ما سوف يدرسه الباحث الصغير.

ولابد من النظر إلى أمور أخـرى أيضًا فى نهاية المطاف. فـإذا كان الباحث قد درس تاريخ حيـازة الأرض فى سوريا فى القرن التاسع عشر ، مـثلاً ، فالأرجح أن تكون لدراسة الموضوع ، مـهما تبلغ درجة جفـافها و" موضوعيـتها" ، أهميـة للسياسة المعـاصرة ، خصوصًا للمسئـول الحكومى الحريص على تفهم ديناميات السلطة التقليدية (وهى التى ترتبط بحيازة الأرض) فى سوريا المعاصرة.

لكنه إذا حدث أولاً أن بذل فرد بعض الجهد للاتصال الطوعى بالثقـافة النائية ، وحـدث ثانيًا أن أدرك هذا ' المفسر' كل الإدراك طبيـعة سياق الأوضـاع التى يتولى فيهـا التفسيـر (أى إذا فهم أن المعرفة بثقافـة أخرى ليست مطلقة بل نسبية أى تعـتمد إلى حد ما على السياق الذى نشـأت فيه) فالأرجح أن يتبـيّن المفسر أن النظرة المعتمدة إلـى الإسلام وإلى الحضارات " الأجنبية" نظرةٌ محدودة وقاصرة إلى حد بعيد . وفى مقابل هذا نجد أن المعرفة بالإسلام ، من وجهة النظر المضادة ، تقطع فيـما يبدو شوطًا بعيدًا على طريق التغلب على أوجه القصور فى النظرات المعـتمدة. ورفض الباحثين المضادين لضـرورة إخضـاع المعرفة بالإسـلام للمصالـح السياسـية الحكومية هو الذى يجعلهم يؤكدون التواطؤ بين المعرفة والسلطة . وفى غمار ذلك يسـعون إلى إقامة علاقـات بالإسلام تختلف عن العلاقات التى تأمر بها مقتـضيات السلطة . والبحث عن علاقات بديلة معناه البحـث عن سياقات تفسـيرية أخرى ، ومن ثم يتكون لديهم وعى منهجى أقرب كثيرًا إلى الدقة .

ومع ذلك فلن نستطيع أن نجد أبدًا مخرجًا أو مهربًا مُيسّرًا مما وصفه بعض النقاد بأنه دائرة التفسير المغلقة . ونقول بإيجاز إن المعرفة بدنيا المجتمع من المحال أن تتفوق يومًا ما على التفسيرات التى تقوم عليها . فمعرفتنا بأى ظاهرة بالغة التعقيد والمراوغة ، مثل الإسلام ، تأتينا من خلال نصوص وصور وخبرات لا تجسد الإسلام تجسيدًا مباشرًا حاضرًا (وهو الذى لا نفهمه إلا من خلال الأمثلة عليه) بل تعتبر تفسيرات له أو حالات تمثله . وبعبارة أخرى ، تأتى المعرفة بالثقافات أو المجتمع أو الأديان الأخرى من خلال التمازج بين الأدلة غير المباشرة وبين الوضع الشخصى للباحث الفرد ، وهو الذى يضم الزمن والمكان والمواهب الشخصية والأوضاع التاريخية ، إلى جانب الظروف السياسية العامة . وأما ما يجعل تلك المعرفة دقيقة أو غير دقيقة، أو يقطع بأنها فاسدة أو صحيحة أو أدنى من سواها فيتعلق أساسًا بمتطلبات المجتمع الذى تنشأ فيه هذه المعرفة . ويوجد ، بطبيعة الحال ، مستوى بسيط للصدق الواقعى يستحيل دونه وجود أى معرفة ، فكيف يتسنى للمرء مثلاً أن "يعرف" أحدٌ شيئًا عن الإسلام فى المغرب دون أن يعرف اللغة العربية ، ولغة البربر ، ودون الإحاطة ببعض المعلومات عن البلد والمجتمع الذى يعيش فيه ؟ أما إذا تجاوزنا هذا المستوى فسوف نرى أن المعرفة بالإسلام فى المغرب لا تنحصر فى مجرد اتفاق ما يوجد هناك مع ما نراه هنا ، أى التوافق بين شىء لا حياة فيه وبين من ينظر إليه ، بل هى تفاعل ما بين الاثنين

(عادةً) لتحقيق غرض هنا : مثل كتابة مقال متخصص ، أو إعداد محاضرة ، أو إسداء المشورة لأحد واضعى السياسات. فإذا تحقق الغرض اتجه الرأى إلى أن المعرفة قد توافرت. وتوجد أوجه انتفاع أخرى بالمعرفة (ومن بينها الانتفاع بعدم نفعها ذاته) ولكن الأوجه الأساسية هى توظيفها أو التوسل بها لتحقيق غاية ما .

وهكذا فإن ما نعتبره معرفة يتكون فى الواقع من عناصر شديدة التنوع ، وتتحكم فيها الحاجة الخارجية إليها أكثر مما تتحكم فيها الحاجة الداخلية (والتى نادرًا ما تكون داخلية على أية حال) . وهكذا فإن دراسة الصفوة أو النخبة الإيرانية فى ظل نظام الحكم البهلوى التى يقوم بإعدادها دارس أكاديمى أمريكى ذو مؤهلات معتمدة قد تكون ذات نفع لواضعى السياسات الذين يتصدون للتعامل مع ذلك النظام الإمبراطورى ، ولكن الخبير بالشئون الإيرانية الذى لا يأخذ بالنظرة 'المعتمدة' سيجد هذه الدراسة ذاتها غاصة بالأخطاء والأحكام الفاسدة[٣١] . ولكن معايير الحكم التى تختلف اختلافات جذرية فيما بينها لا تعنى أننا فى حاجة إلى معايير أفضل ، ومطلقات أشد ثباتًا ، بل علينا أن تذكرنا أن من طبيعة التفسير أن تعود بنا إلى المشكلات التى يثيرها التفسير نفسه، وإلى طرح الأسئلة التالية : لمن ، ولأى غرض ، ولماذا نجد أن هذا التفسير أشد إقناعًا فى هذا السياق من سواه ؟ إن التفسير والمعرفة ، بل ، كما قال ماثيو أرنولد ، والثقافة نفسها ، دائمًا ما تكون ثمرة للمنازعات لا هبة أنعمت بها السماء علينا !

وهكذا فـإن القضيـة التى أطرحهـا فى هذا الكتـاب تقول إن التغطية 'المعتـمدة' للإسلام التـى نجدها فى الدوائر الأكـاديمية ، ترتبط بما نجده فى الحكومة وفى أجهـزة الإعلام بروابط متداخلة ، وإنها **أشد** انتشارًا **وأشد** ، فيما يبـدو ، إقناعًا ونفوذًا فى الغرب عن أى "تغطية" أو تفسير آخر . ومن الممكن أن يعزى نجاح هذه التغطية إلى النفـوذ السياسى للأشخاص والمؤسـسات التى تتولاها وليس بالضرورة إلى صدقها أو دقتـها . كما أقمت الحجة على أن هذه التغـطية قد سـاعدت فى تحـقيق أغـراض لا تتصل بالمعـرفة الفـعليـة للإسـلام إلاّ بأوهـن الروابط . وكـانت النتيـجـة هى الانتصارت لا لنوع خاص من **المعرفة** بالإسلام فحسب بل **لتفسير** خاص لم يسلم على أى حال من الطعن فيـه ، ولم تثبت حصانته ضد اختراق الأسـئلة التى وجهتها الأذهان المتفتـحة الوقائية 'غير المعتمدة' !

ومن ثم فـقد يكون من الخـير أن أحـدًا لم يسـتطع الانتفـاع "بالإسلام" بصـفة خـاصة فى تفـسيـر نشوب الحـرب بين إيران والعراق ، تمامًا مثلمـا لم تُجْدِ الأفكار الخاصة "بالعقلية الزنجية" فى تفسـير خبرات الأمـريكيين من ذوى البشرة السـوداء فى القرن العشريـن . فإن هذه المفاهيم الشمـولية ، بغض النظر عن الرضى النرجسى الذى يستقيه الخبير منهـا وكثيرًا ما يعتمد فى كسب رزقه عليها ، لم تنجح فى مسايرة قوة الأحداث نفسها أو القوى المعقدة التى أدت إلى وقوع هـذه الأحداث . وكانت النتـيجـة هى اتساع

الفجوة باطراد بـين ما تؤكده هذه المفاهيم التى تفـرض أو تفترض التجانس وبين ما يتسم به التـاريخ الفعلى من حقائق ونقاط انقطاع أشد قوة . وأحـيانًا ما كنا نرى فردًا ينفذ مـن هذه الفجوة ليطرح أسئلة تتصل اتصالاً مباشرًا بالواقع ويتوقع إجابات معقولة .

لا يستطيع أحـد أن يحيط بكل شىء عن العـالم الذى نعيش فـيه ، وهكذا لابد أن يسـتمـر تقسـيم العـمل الفكرى قائمًـا فى المستقبل المنظور . فالعمل الأكاديمى يتطلب هذا التقسيم ، والمعرفة نفسها تقـتضيه ، وتنظيم المجتمع فى الغـرب يقوم عليه ، ولكننى أعتقد أن معظم أشكال المعرفة بالمجـتمع البشرى متاحة ، فى نهاية الأمر ، لذوى الإدراك السليم – وأقصـد به الإدراك الذى ينشأ من الخبـرات الإنسانية المشـتركة – وأنه يخـضع ، بل لابد أن يخضع حقًا ، لِلَوْنٍ ما من التقييم النقدى . وهاتان الصفتان ، أى الإدراك السليم والتقـييم النقدى ، هما ، فى آخر المـطاف ، من الصفات الاجتـماعية والفكرية الـعامة المتاحـة للجميع ويسـتطيع كل إنسان غرسهـا وتنميتها فى ذاته ، وليـست من امتيازات طبقـة خاصة أو حكرًا على حفنة من "الخبراء" المعتمـدين . ومع ذلك فلابد من الدراسة الخاصة إن أراد المرء أن يتعلم اللغة العربية أو الصينية ، أو إذا أراد المرء أن يفـهم معـنى التيـارات الاقـتصـادية والتـاريخيـة والسكانية . والجـامعة هى المكان الذى يتيح مـثل تلك الدراسة ، ولا شك عندى فى ذلك على الإطلاق . وأما المتـاعب فتنشأ حين تؤدى الدراسة إلى تكوين طوائف مـغلقة ، يفقد أعـضاؤها الصلة

بحقـائق المجتمـع الواقعيـة ، والحصافـة ، والمسئوليـة الفكرية ، فيعملون على تعزيز الطائفة بأى ثمن أو يجعلونها ، طائعين ودون طرح أسئلة ، فى خـدمة السلطة . وفى كلا الحالين ينتـهى الأمر بالمجتمـعات أو الثقافـات الأجنبية ، مثل الإسلام ، إلـى التغطية بالمعنى الحرفى أكثر مما تنال مـن الإيضاح أو الفهم . بل إننا نواجه هنا خطر اختراع أكاذيب جديدة ، وترويج أنواع لم يسمع بها أحد من "المعلومات" الخاطئة .

لم يتوقف سيـل الأدلة المتاحة للجميع ، فى أى لحـظة تقريبًا على امتداد السنـوات القليلة الماضية ، على أن العالم غـير الغربى بصفة عامة ، والإسلام بصفة خاصة ، لم يعودا يلتزمان بالأنساق التى وضعـها علمـاء الاجتمـاع والمستشـرقون وخبـراء المناطق من أمريكيين وأوروبيين فى السنوات التى أعقبت الحـرب العالمية الثانية مباشرة . ومن الصـحيح قطعًا أن العالم الإسلامى بصـفة عامة لا يتخـذ مواقف العداء الكامل لأمـريكا والاتحاد السـوفييـتى ولا هو موحّـد فيما يفـعله بل ولا يمكن التنبؤ بما يفـعل . ولم أحاول أن أقدم وصفًا كاملاً لهذه الـتغييرات ولكننى قلت إن معناها هو بروز حقائق واقعـية جديدة 'غير منتظمة' فى العالم الإسلامى . ومن الصحـيح أيضًا أن مظاهر "عدم انتظام" مشـابهة قـد برزت فى المناطق الأخرى التى تحررت من الاستـعمار فى عالم اليوم ، وهو ما عكّر صـفو الهدوء النظرى الذى سـاد الحديث عنه فى السنوات السـابقة . ومن الحـمق ، بطبـيعـة الحال ، إعـادة تأكيـد وترديد

القوالب القديمة عن ''التخلف'' و''العقلية الأفروآسيوية'' ، ولكن ربط هذه القوالب سببيًا (أى إرجاع أسبابها إلى) ما يقال عن التدهور المحزن للغرب ، والنهاية المؤسفة للاستعمار ، والتقلص الذى يؤسى له للقوة الأمريكية ، معناه - ولابد أن أصوغ ذلك بأشد لهجة ممكنة - حمق فاحش . ولنقل وحسب إنه من المحال إرغام مجتمعات تبعد آلاف الأميال مكانًا وهويةً عن عالم الأطلسى أن تلتزم بما نريده منها . ويمكن اعتبار ذلك حقيقةً محايدة حتى دون اعتبارها (كما أعتبرها أنا) من الحقائق المفيدة . وعلى أى حال فإن الخطر المتمثل فى الجمع بين فقدان إيران وتدهور الغرب فى أحاديثنا هون أن نغلق فى وجوهنا إمكانية معظم سبل العمل - إلا صعود نجم الغرب واسترجاع أماكن معينة مثل إيران والخليج. وأما النجاح الذى أصابه فى الآونة الأخيرة أولئك الخبراء الذين ينعون فى غمار عملهم نهاية السيطرة البريطانية أو الأمريكية أو الفرنسية على العالم الإسلامى فيعتبر ، فى رأيى ، شهادةً مخيفة على ما قد يختفى داخل عقول واضعى السياسات ، وعلى ما يغذوه فى الحقيقة هؤلاء ''الخبراء'' ، عن وعى أو دون وعى ، من حاجة عميقة الجذور إلى العدوان وإعادة الغزو(٣٢) . وأما وجود البعض من أبناء تلك البلاد ' المطيعين' الذين يقومون فى العزف فى الفرقة الموسيقية نفسها فينتمى إلى التاريخ البذئ للتعاون مع الغزاة وليس (كما يزعم البعض) من دلائل النضج الجديد فى العالم الثالث .

ولو لم تكن أغـراض الغزو المذكـورة كامنة مـا قيل مـا يقال بصفة عامة عن "الإسلام" فى الغرب اليوم . وعلينا فورًا تقديم البديل : فإذا كان تعبير "الإسلام" لا يحمل لنا من الدلالات إلاّ مـا يقل كثـيـرًا عمـا ينبغـى أن يحمله ، وإذا كـانت ' التغـطية' باستخدام هذا التعبير تغطّى ، بمعنى تُخفى ، أكثر مما تظهر ، فأين عـيـانا ، أو بالأحـرى كيف نسـتطيع أن نجد المعلومـات التى لا تَحُضُّ على أحلام جديدة بالقوة أو تُنَمِّى المخاوف وضروب التحيز القديمة ؟ لقد ذكرت فى هذا الكتـاب ووصفت أحيانًا أنواع البحث التى تعود بأجلّ الفائدة فى هذا الصدد ، وقلت إن نقطة الانطلاق فيها جميعًا هى اعتبار أن كلَّ مـعرفةٍ تفسيرٌ ، وأن على التفسير أن يكون شديد الحساسية فيما ينتهجه من مناهج وما يضعه من أهداف حتى يتحـلّى باليقظة وبالتراحم الإنسانى ، وحـتى يصل أيضًا إلى المعرفة . ولكن كل تفسير للثقافات الأخرى ، وخاصة للإسلام ، ينطوى أساسًا على الاختيـار الذى يواجهه الباحث الفرد أو المفكّر الفرد : هل يسخّـر الفكر لخدمة السلطة أم لخدمة النقـد والمجتمع والحسّ الأخلاقى . وهذا الاختـيار يجب أن يكون أولى خطوات التـفسـيـر اليـوم ، ولابد أن يؤدى إلى اتخـاذ قرار مـا ، لا إلى التأجيل وحسب . وإذا كان تاريخ المعـرفة بالإسلام فى الغرب قد ارتبط ارتباطًا وثـيقًا بالغـزو والهيمنة ، فلـقد آن الأوان لقطع هذه الروابط قطعًا مبـرمًا . ولا نستطيع مهما قلنا أن نبـالـغ فـى تأكيد ضرورة ذلك . هذا وإلا فـسوف نجد أننا لا نواجه التـوتر فقط بل

وربما الحـرب أيضًا ، بل سـوف نقدم إلى عـالم المسلمين ، وإلى شتى مجتمعاتهم ودولهم ، احتمال نشوب حروب كثيرة ، ومعاناة لا يتصورها العقل ، وفـورات تأتى بالفواجع ، وليس أقلها خطرًا مولد نوع من "الإسلام" المتأهب تمامًا للنهوض بالدور الذى أعدته له قوى الـرجعيـة ، والتزمّت واليـأس . وحتى لو حكمنـا بأشد المعـاييـر إغراقًـا فى التـفاؤل فلـن نجد مـا يثلج الصـدر فى هذا الاحتمال .



■ قائمة المراجع الأجنبية ■

Notes

INTRODUCTION

1. Edward W. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon Books, 1978; reprint ed., New York: Vintage Books, 1979).

2. Edward W. Said, *The Question of Palestine.* (New York: Times Books, 1979; reprint ed., New York: Vintage Books, 1980).

3. For a reference to this see Robert Graham, "The Middle East Muddle," *New York Review of Books,* October 23, 1980, p. 26.

4. J. B. Kelly, *Arabia, The Gulf, and the West: A Critical View of the Arabs and Their Oil Policy* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1980), p. 504.

5. Thomas N. Franck and Edward Weisband, *Word Politics: Verbal Strategy Among the Superpowers* (New York: Oxford University Press, 1971).

6. See Paul Marijnis, "De Dubbelrol van een Islam-Kennen," *NRC Handelsblad,* December 12, 1979. Marijnis's article is a report of research done on Snouck Hurgronje by Professor van Koningveld of the Theological Faculty at the University of Leiden. I am grateful to Jonathan Beard for bringing this item to my attention, and to Professor Jacob Smit for his help in translating it.

7. For a very full account of the over-all context, see Noam Chomsky and Edward S. Herman, *The Washington Connection and Third World Fascism* and *After the Cataclysm: Postwar Indochina and the Reconstruction of Imperial Ideology,* vols. 1 and 2 of *The Political Economy of Human Rights* (Boston: South End Press, 1979). For a valuable analysis of the nineteenth-century picture see Ronald T. Takaki, *Iron Cages: Race and Culture in 19th Century America* (New York: Alfred A. Knopf, 1979).

8. For a well-presented account of how giant corporations intervene in the university, see David F. Noble and Nancy E. Pfund, "Business Goes Back to College," *The Nation*, September 20, 1980, pp. 246–52.

CHAPTER ONE: ISLAM AS NEWS

1. See Edward W. Said, *Orientalism*, pp. 49–73.

2. See Norman Daniel, *The Arabs and Medieval Europe* (London: Longmans, Green & Co., 1975); also his earlier and very useful *Islam and the West: The Making of an Image* (Edinburgh: University Press, 1960). There is a first-rate survey of this matter, set in the political context of the 1956 Suez War, by Erskine B. Childers in *The Road to Suez: A Study of Western-Arab Relations* (London: MacGibbon & Kee, 1962), pp. 25–61.

3. I have discussed Naipaul in "Bitter Dispatches From the Third World," *The Nation*, May 3, 1980, pp. 522–25.

4. Maxime Rodinson, *Marxism and The Modern World*, trans. Michael Palis (London: Zed Press, 1979). See also Thomas Hodgkin, "The Revolutionary Tradition in Islam," *Race and Class* 21, no. 3 (Winter 1980): 221–37.

5. There is an elegant account of this theme, done by a contemporary Tunisian intellectual: see Hichem Djaït, *L'Europe et l'Islam* (Paris: Éditions du Seuil, 1979). A brilliant psychoanalytic/structuralist reading of one "Islamic" motif in European literature—the seraglio—is to be found in Alain Grosrichard, *Structure du sérail: La Fiction du despotisme asiatique dans l'Occident classique* (Paris: Éditions du Seuil, 1979).

6. See Maxime Rodinson, *La Fascination de l'Islam* (Paris: Maspéro, 1980).

7. Albert Hourani, "Islam and the Philosophers of History," in *Europe and The Middle East* (London: Macmillan & Co., 1980), pp. 19–73.

8. As an instance, see the penetrating study by Syed Hussein Alatas, *The Myth of the Lazy Native: A Study of the Image of the Malays, Filipinos, and Javanese from the 16th to the 20th Century and in the ideology of Colonial Capitalism* (London: Frank Cass & Co., 1977).

9. Not that this has always meant poor writing and scholarship: as an informative general account which answers principally to political exigencies and not mainly to the need for new knowledge about Islam, there is Martin Kramer, *Political Islam* (Washington, D.C.: Sage Publications, 1980). This was written for the Center for Strategic and International Studies, Georgetown University, and therefore belongs to the category of policy, not of "objective," knowledge. Another instance in the January 1980 (vol. 78, no. 453) special issue on "The Middle East, 1980" of *Current History*.

10. *Atlantic Community Quarterly* 17, no. 3 (Fall 1979): 291–305, 377–78.

11. Marshall Hodgson, *The Venture of Islam*, 3 vols. (Chicago and London: University of Chicago Press, 1974). See the important review of this by Albert Hourani, *Journal of Near Eastern Studies* 37, no. 1 (January 1978): 53–62.

12. One index of this is the report "Middle Eastern and African Studies: Developments and Needs" commissioned by the U.S. Department of Health, Education and Welfare in 1967, written by Professor Morroe Berger of Princeton, also president of the Middle East Studies Association (MESA). In this report Berger asserts that the Middle East "is not a center of great cultural achievement . . . and therefore does not constitute its own reward so far as modern culture is concerned. . . . [It] has been receding in immediate political importance to the U.S." For a discussion of this extraordinary document and the context that produced it, see Said, *Orientalism*, pp. 287–93.

13. Quoted in Michael A. Ledeen and William H. Lewis, "Carter and the Fall of the Shah: The Inside Story," *Washington Quarterly* 3, no. 2 (Spring 1980): 11–12. Ledeen and Lewis are supplemented (and supported to a degree) by William H. Sullivan, "Dateline Iran: The Road Not Taken," *Foreign Policy* 40 (Fall 1980): 175–86; Sullivan was United States ambassador to Iran before and during the revolution. See also the six-part series by Scott Armstrong, "The Fall of the Shah," *Washington Post*, October 25, 26, 27, 28, 29, 30, 1980.

14. Hamid Algar, "The Oppositional Role of the Ulama in Twentieth Century Iran," in Nikki R. Keddie, ed., *Scholars, Saints, and Sufis: Muslim Religious Institutions Since 1500* (Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press, 1972), pp. 231–55. See also Ervand Abrahamian, "The Crowd in Iranian Politics, 1905–1953," *Past and Present* 41 (December 1968): 184–210; also his "Factionalism in Iran: Political Groups in the 14th Parliament (1944–46)," *Middle Eastern Studies* 14, no. 1 (January 1978): 22–25; also "The Causes of the Constitutional Revolution in Iran," *International Journal of Middle East Studies* 10, no. 3 (August 1979): 381–414; and "Structural Causes of the Iranian Revolution," *MERIP Reports* no. 87 (May 1980), pp. 21–26. See also Richard W. Cottam, *Nationalism in Iran* (Pittsburgh, Pa.: University of Pittsburgh Press, 1979).

15. This is especially true of Fred Halliday, *Iran: Dictatorship and Development* (New York: Penguin Books, 1979), which is nevertheless one of the two or three best studies of Iran done since World War II. Maxime Rodinson, in *Marxism and the Muslim World*, has nearly nothing to say about the Muslim religious opposition. Only Algar (note 14 above) seems to have been right on this point—a remarkable achievement.

16. This is the argument put forward in Edward Shils, "The Prospect

for Lebanese Civility," in Leonard Binder, ed., *Politics in Lebanon* (New York: John Wiley & Sons, 1966), pp. 1–11.

17. Malcolm Kerr, "Political Decision Making in a Confessional Democracy," in Binder, ed., *Politics in Lebanon*, p. 209.

18. See the extraordinarily rich material found in the Moshe Sharett *Personal Diary* (Tel Aviv: Ma'ariv, 1979); Livia Rokach, *Israel's Sacred Terrorism: A Study Based on Moshe Sharett's Personal Diary and Other Documents*, intro. by Noam Chomsky (Belmont, Mass.: Association of Arab-American University Graduates [AAZG], 1980). See also the revelations about the CIA role in Lebanon by former CIA advisor Wilbur Crane Eveland, *Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East* (New York: W. W. Norton & Co., 1980).

19. Élie Adib Salem, *Modernization Without Revolution: Lebanon's Experience* (Bloomington and London: Indiana University Press, 1972), p. 144. Salem is also the author of "Form and Substance: A Critical Examination of the Arabic Language," *Middle East Forum* 33 (July 1958): 17–19. The title indicates the approach.

20. Clifford Geertz, "The Integrative Revolution: Primordial Sentiments and Civil Politics in the New States," in *The Interpretation of Cultures* (New York: Basic Books, 1973), p. 296.

21. For an interesting description of "expert" illusions about Lebanon on the eve of the civil war, see Paul and Susan Starr, "Blindness in Lebanon," *Human Behavior* 6 (January 1977): 56–61.

22. I have discussed this in *The Question of Palestine*, pp. 3–53 and *passim*.

23. For a brilliant account of this collective delusion see Ali Jandaghi (pseud.), "The Present Situation in Iran," *Monthly Review*, November 1973, pp. 34–47. See also Stuart Schaar, "Orientalism at the Service of Imperialism," *Race and Class* 21, no. 1 (Summer 1979): 67–80.

24. James A. Bill, "Iran and the Crisis of '78," *Foreign Affairs* 57, no. 2 (Winter 1978–79): 341.

25. William O. Beeman, "Devaluing Experts on Iran," *New York Times*, April 11, 1980; James A. Bill, "Iran Experts: Proven Right But Not Consulted," *Christian Science Monitor*, May 6, 1980.

26. As opposed to scholars during the Vietnam War who made a stronger case for themselves as "scientists" willingly serving the state: here it would be good to know why Vietnam specialists were consulted (with no less disastrous results) and Iran experts not. See Noam Chomsky, "Objectivity and Liberal Scholarship," in *American Power and the New Mandarins: Historical and Political Essays* (New York: Pantheon Books, 1969), pp. 23–158.

27. See Said, *Orientalism*, pp. 123–66.

28. On the connection between scholarship and politics as it has affected

the colonial world, see *Le Mal de voir: Ethnologie et orientalisme: politique et épistémologie, critique et autocritique*, Cahiers Jussieu no. 2 (Paris: Collections 10/18, 1976). On the way in which "fields" of study coincide with national interests see "Special Supplement: Modern China Studies," *Bulletin of Concerned Asia Scholars* 3, nos. 3–4 (Summer–Fall, 1971): 91–168.

29. See Edmund Ghareeb, ed., *Split Vision: Arab Portrayal in the American Media* (Washington, D.C.: Institute of Middle Eastern and North African Affairs, 1977). For the British counterpart see Sari Nasir, *The Arabs and the English* (London: Longmans, Green & Co., 1979), pp. 140–72.

30. James Peck, "Revolution Versus Modernization and Revisionism: A Two-Front Struggle," in Victor G. Nee and James Peck, eds., *China's Uninterrupted Revolution: From 1840 to the Present* (New York: Pantheon Books, 1975), p. 71. See also Irene L. Gendzier, "Notes Toward a Reading of *The Pasing of Traditional Society*," *Review of Middle East Studies* 3 (London: Ithaca Press, 1978), pp. 32–47.

31. An account of the Pahlevi regime's "modernization" is to be found in Robert Graham, *Iran: The Illusion of Power* (New York: St. Martin's Press, 1979). See also Thierry-A. Brun, "The Failures of Western-Style Development Add to the Regime's Problems," and Eric Rouleau, "Oil Riches Underwrite Ominous Militarization in a Repressive Society," in Ali-Reza Nobari, ed., *Iran Erupts* (Stanford, Calif.: Iran-America Documentation Group, 1978). Also Claire Brière and Pierre Blanchet, *Iran: La Révolution au nom de Dieu* (Paris: Éditions du Seuil, 1979); this book has an interview with Michel Foucault appended to it.

32. There has been an extraordinary reluctance on the part of the press to say anything about the explicitly *religious* formulation of positions and policies inside Israel, especially when these are directed at non-Jews. There would be interesting material found in the Gush Emunim literature, or the pronouncements of the various rabbinic authorities, and so on.

33. See Garry Wills, "The Greatest Story Ever Told," subtitled "Blissed out by the pope's U.S. visit—'unique,' 'historic,' 'transcendent'—the breathless press produced a load of papal bull," *Columbia Journalism Review* 17, no. 5 (January–February 1980): 25–33.

34. See the excellent and exhaustive study by Marwan R. Buheiry, *U.S. Threats Against Arab Oil: 1973–1979*, IPS Papers no. 4 (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1980).

35. This is a peculiarly American syndrome. In Europe, the situation is considerably more fair, at least as far as journalism on the whole is concerned.

36. Fritz Stern, "The End of the Postwar Era," *Commentary*, April 1974, pp. 27–35.

37. Daniel P. Moynihan, "The United States in Opposition," *Commentary*, March 1975, p. 44.

38. Robert W. Tucker, "Oil: The Issue of American Intervention," *Commentary*, January 1975, pp. 21–31.

39. Tucker, "Further Reflections on Oil and Force," *Commentary*, January 1975, p. 55.

40. In *Encounter*, 54, no. 5 (May 1980): 20–27.

41. Gerard Chaliand, *Revolution in the Third World: Myths and Prospects* (New York: Viking Press, 1977).

42. See Christopher T. Rand, "The Arabian Fantasy: A Dissenting View of the Oil Crisis," *Harper's Magazine*, January 1974, pp. 42–54, and his *Making Democracy Safe for Oil: Oilmen and the Islamic East* (Boston: Little, Brown & Co., 1975). For authoritative work on the true oil picture see John M. Blair, *The Control of Oil* (New York: Pantheon Books, 1976), and Robert Engler, *The Brotherhood of Oil: Energy Policy and the Public Interest* (Chicago and London: University of Chicago Press, 1977).

43. *Ayatollah Khomeini's Mein Kampf: Islamic Government by Ayatollah Ruhollah Khomeini* (New York: Manor Books, 1979), p. 123. For a careful, prorevolutionary critique of repression in Khomeini's Iran, see Fred Halliday, "The Revolution Turns to Repression," *New Statesman*, August 24, 1979, pp. 260–64; also his comments in *The Iranian*, August 22, 1979. See also Nikki R. Keddie, *Iran, Religion, Politics, and Society: Collected Essays* (London: Frank Cass & Co., 1980).

44. C. Wright Mills, "The Cultural Apparatus," in *Power, Politics and People: The Collected Essays of C. Wright Mills*, ed. Irving Louis Horowitz (London, Oxford, New York: Oxford University Press, 1967), pp. 405–6.

45. See Herbert I. Schiller, *The Mind Managers* (Boston: Beacon Press, 1973), pp. 24–27.

46. Herbert Gans, *Deciding What's News: A Study of "CBS Evening News," "NBC Nightly News," "Newsweek," and "Time"* (New York: Pantheon Books, 1979).

47. Gay Talese, *The Kingdom and the Power* (New York: New American Library, 1969); Harrison Salisbury, *Without Fear or Favor: The New York Times and Its Times* (New York: Times Books, 1979); David Halberstam, *The Powers That Be* (New York: Alfred A. Knopf, 1979); Gaye Tuchman, *Making News: A Study in the Construction of Reality* (New York: Fre. Press, 1978); Herbert I. Schiller, *Mass Communications an. American Empire* (Boston: Beacon Press, 1969), *Communication and Cultural Domination* (White Plains, N.Y.: International Arts and Sciences, 1976), *The Mind Managers*; Michael Schudson, *Discovering the News: A Social History of American Newspapers* (New York: Basic Books, 1978); Armand Mattelart, *Multinational Corporations and the Control of Culture: The Ideological Apparatus of Imperialism*, trans. Michael Chanan (Brighton, Sussex: Harvester Press, 1979).

48. Robert Darnton, "Writing News and Telling Stories," *Daedalus* 104, no. 2 (Spring 1975): 183, 188, 192.

49. This is convincingly demonstrated by Todd Gitlin, *The Whole World Is Watching: Mass Media in the Making and Unmaking of the New Left* (Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press, 1980).

50. See in particular Sacvan Bercovitch, "The Rites of Assent: Rhetoric, Ritual, and the Ideology of American Consensus," in Sam Girgus, ed., *Myth, Popular Culture, and the American Ideology* (Albuquerque: University of New Mexico Press, 1980), pp. 3–40.

51. This is well described by Raymond Williams, "Base and Superstructure in Marxist Cultural Theory," *New Left Review* 82 (November–December 1973): 3–16.

52. A series of recent studies dealing with American experiences involving Indians, various foreign groups, and "empty" territory make this point tellingly: see Michael Paul Rogin, *Andrew Jackson and the Subjugation of the American Indian* (New York: Alfred A. Knopf, 1975); Ronald T. Takaki, *Iron Cages*; Richard Drinnon, *Facing West: The Metaphysics of Indian-Hating and Empire-Building* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1980); Frederick Turner, *Beyond Geography: The Western Spirit Against the Wilderness* (New York: Viking Press, 1980).

53. See the recent account of this dissimulation by Chomsky and Herman, *After the Cataclysm*.

54. In particular see the works by Herbert Schiller and Armand Mattelart cited above, note 47.

55. For a description of the same verbal action-reaction paradigm, see Franck and Wiesband, *Word Politics*.

56. On the role of Western-style elites in Muslim/Arab societies, see John Waterbury and Ragaei El Mallakh, *The Middle East in the Coming Decade: From Wellhead to Well-Being?* (New York: McGraw-Hill Book Co., 1978).

57. Rodinson, "Islam and the Modern Economic Revolution," in his *Marxism and the Muslim World*, p. 151.

58. *Ibid*., pp. 154–55.

59. As a particularly noteworthy example see the recent work of Mohammed Arkoun: *Contribution à l'étude de l'humanisme arabe au IVe/Xe siècle: Miskawayh, philosophe et historien* (Paris: J. Vrin, 1970); also *Essais sur la pensée islamique* (Paris: Maisonneuve & Larose, 1973); and "La pensée" and "La vie," in Mohammed Arkoun and Louis Gardet, *L'Islam: Hier. Demain* (Paris: Buchet/Chastel, 1978), pp. 120–247.

60. Albert Hourani, "History," in Leonard Binder, ed., *The Study of the Middle East: Research and Scholarship in the Humanities and the Social Sciences* (New York: John Wiley & Sons, 1976), p. 117.

61. See the very useful analysis of this subject as an aspect of the State in dependent societies, by Eqbal Ahmad, "Post-Colonial Systems of Power," *Arab Studies Quarterly* 2, no. 4 (Fall 1980): 350–63.

62. A good sense of this activity is provided for Iran by Michael M. G. Fischer, *Iran: From Religious Dispute to Revolution* (Cambridge: Harvard University Press, 1980). But see also Marshall Hodgson, *The Venture of Islam*.

63. The key ideological document is Bernard Lewis, "The Return of Islam," *Commentary*, January 1976, pp. 39–49; see my discussion of this in *Orientalism*, pp. 314–20. In comparison with Élie Kedourie, however, Lewis is mild indeed: see Kedourie's extraordinary attempt to show that Islamic resurgence is principally a variant of "Marxism-Leninism" in his *Islamic Revolution, Salisbury Papers* no. 6 (London: Salisbury Group, 1979).

64. W. Montgomery Watt, *What Is Islam?* 2nd ed. (London and New York: Longmans, Green & Co., 1979), pp. 9–21.

65. There is an especially cogent description of this in Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798–1939* (1962; reprint ed., London and Oxford: Oxford University Press, 1970).

66. For a recent, albeit partisan, instance see Adonis (Ali Ahmad Said), *Al-Thabit wal Mutahawwil*, vol. 1, Al-Usul (Beirut: Dar al Awdah, 1974). See also Tayyib Tizini, *Min al-Turath ilal-Thawra: Hawl Nathariya Muqtaraha fi Qadiyyat al-Turath al-'Arabi* (Beirut: Dar Ibu Khaldum, 1978). There is a good account of Tizzini's work by Saleh Omar, *Arab Studies Quarterly* 2, no. 3 (Summer 1980): 276–84. For a recent European view of the matter see Jacques Berque, *L'Islam au défi* (Paris: Gallimard, 1980).

67. Hodgson, *Venture of Islam*, 1: 56 ff.

68. Ali Shariati, "Anthropology: The Creation of Man and the Contradiction of God and Iblis, or Spirit and Clay," in *On the Sociology of Islam: Lectures by Ali Shari'ati*, trans. Hamid Algar (Berkeley, Calif.: Mizan Press, 1979), p. 93.

69. Shariati, "The Philosophy of History: Cain and Abel" in *On the Sociology of Islam*, pp. 97–110.

70. See Thomas Hodgkin, "The Revolutionary Tradition in Islam," and Adonis, *Al-Thabit wal Mutahawwil*, on the conflict between official cultures and countercultures.

71. Said, *Orientalism*, pp. 41 ff.

72. Until recently the situation was no different in the representation of other "Oriental" groups: see Tom Engelhardt, "Ambush at Kamikaze Pass," *Bulletin of Concerned Asia Scholars* 3, no. 1 (Winter–Spring 1971): 65–84.

73. Eric Hoffer, "Islam and Modernization: Muhammad, Messenger of Plod," *American Spectator* 13, no 6 (June 1980): 11–12.

74. According to L. J. Davis, "Consorting with Arabs: The Friends Oil Buys," *Harper's Magazine*, July 1980, p. 40.

CHAPTER TWO: THE IRAN STORY

1. Salisbury, *Without Fear or Favor*, p. 158.

2. *Ibid.*, p. 163.

3. *Ibid.*, p. 311.

4. *Ibid.*, pp. 560–61.

5. Kedourie, *Islamic Revolution*.

6. These articles are conveniently found in translation: Rodinson, "Islam Resurgent?" *Gazelle Review* 6, ed. Roger Hardy (London: Ithaca Press, 1979), pp. 1–17.

7. Quoted in Roy Parriz Mottahedeh, "Iran's Foreign Devils," *Foreign Policy* 38 (Spring 1980): 28. See also Eqbal Ahmad, "A Century of Subjugation," *Christianity and Crisis* 40, no. 3 (March 3, 1980): 37–44.

8. See Robert Friedman, "The Gallegos Affair," *Media People*, March 1980, pp. 33–34.

9. William A. Dorman and Ehsan Omeed, "Reporting Iran the Shah's Way," *Columbia Journalism Review* 17, no. 5 (January–February 1979): 31.

10. Fazlur Rahman, *Islam* (Chicago: University of Chicago Press, 1979), p. 37.

11. Kermit Roosevelt, *Countercoup: The Struggle for the Control of Iran* (New York: McGraw-Hill Book Co., 1979).

12. Hamid Algar, "The Oppositional Role of the 'Ulama in Twentieth-Century Iran," in Keddie, *Scholars, Saints, and Sufis*, pp. 231–55.

13. See Richard Deacon, *The Israeli Secret Service* (New York: Taplinger Publishing Co., 1978), pp. 176–77.

14. For alternative views of *Le Monde*, see Aimé Guedj and Jacques Girault, *"Le Monde": Humanisme, objectivité et politique* (Paris: Éditions Sociales, 1970), and Philippe Simonnot, *"Le Monde" et le pouvoir* (Paris: Les Presses d'aujourd'hui, 1977).

15. See Clark's proposal for solving the Iran-American crisis: "The Iranian Solution," *The Nation*, June 21, 1980, pp. 737–40.

16. Almost alone, the Middle East Research and Information Project (MERIP) has attempted to do this: see *MERIP Reports*, no. 88 (June 1980), "Iran's Revolution: The First Year," pp. 3–31, or the study of Afghanistan in no. 89 (July–August 1980), pp. 3–26.

CHAPTER THREE: KNOWLEDGE AND POWER

1. Giambattista Vico, *The New Science*, trans. T. G. Bergin and Max Fisch (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1968), p. 96.

2. Quoted in Raymond Schwab, *Le Renaissance orientale* (Paris: Payot, 1950), p. 327.

3. Ernest Renan, "Mahomet et les origines de l'islamisme," in *Études d'histoire religieuse* (Paris: Calmann-Lévy, 1880), p. 220.

4. Bernard Lewis, "The State of Middle East Studies," *American Scholar* 48, 3 (Summer 1979), 366–67; emphasis added. It is interesting to compare Lewis's disingenuous assertions with Bryan S. Turner, *Marx and the End of Orientalism* (London: George Allen & Unwin, 1978).

5. See, for example, Donald F. Lach and Carol Flaumenhaft, eds., *Asia on the Eve of Europe's Expansion* (Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1965); Donald F. Lach, *Asia in the Making of Europe*; vol. 1, *The Century of Discovery* (Chicago and London: University of Chicago Press, 1965), and vol. 2, *A Century of Wonder* (1977); J. H. Parry, *Europe and a Wider World* (London: Hutchinson & Co., 1949), and *The Age of Reconnaisance* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1963). Certainly one should also consult K. M. Panikkan, *Asia and Western Dominance* (London: George Allen & Unwin, 1959). For interesting accounts of Asians "discovering" the West in modern times, see Ibrahim Abu-Lughod, *Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encounters* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963), and Masao Miyoshi, *As We Saw Them: The First Japanese Embassy to the United States (1860)* (Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press, 1979).

6. There are numerous examples of this, from the career of William Jones, to the Napoleonic expedition to Egypt, to a whole series of nineteenth-century scholar-traveler-agent types: see Said, *Orientalism*, *passim*. See also the revelations about Snouck Hurgronje, note 6, Introduction.

7. See the penetrating review of the work by Bryan S. Turner, *MERIP Reports* no. 68 (June 1978), pp. 20–22. Following Turner's review, in the same issue of *MERIP Reports*, James Paul estimates the cost of the MESA volume at $85.50 per page.

8. See Said, *Orientalism*, pp. 288–90.

9. Leonard Binder, "Area Studies: A Critical Assessment," in Binder, ed., *Story of the Middle East*, p. 1.

10. *Ibid.*, p. 20.

11. *Ibid.*, p. 21.

12. *Proposal to the Ford Foundation for Two Seminar-Conferences*, Program in Near Eastern Studies, Princeton University (1974–75), pp. 15–16.

13. *Ibid.*, p. 26.

14. L. Carl Brown and Norman Istkowitz, *Psychological Dimensions of Near Eastern Studies* (Princeton, N.J.: Darwin Press, 1977).

15. Ali Banuazizi, "Iranian 'National Character': A Critique of Some Western Perspectives," in Brown and Istkowitz, eds., *Psychological Dimensions of Near Eastern Studies*, pp. 210–39. For similar work on a directly related

subject, see the important articles by Benjamin Beit-Hallahmi, "National Character and National Behavior in the Middle East: The Case of the Arab Personality," *International Journal of Group Tensions* 2, no. 3 (1972): 19–28; and Fouad Moghrabi, "The Arab Basic Personality," *International Journal of Middle East Studies* 9 (1978): 99–112; also Moghrabi's "A Political Technology of the Soul," *Arab Studies Quarterly* 3, no. 1 (Winter 1981).

16. See "Special Supplement: Modern China Studies," *Bulletin of Concerned Asia Scholars* 3, nos. 3–4 (Summer–Fall 1971).

17. Dwight Macdonald, "Howtoism," in *Against the American Grain* (New York: Vintage Books, 1962), pp. 360–92.

18. Christopher Lasch, *The New Radicalism in America, 1889–1963: The Intellectual as Social Type* (New York: Vintage Books, 1965), p. 316.

19. For an instance of how ethnic origins are cited as "credentials" by a typical Middle East studies expert, see J. C. Hurewitz, "Another View on Iran and the Press," *Columbia Journalism Review* 19, no. 1 (May–June 1980): 19–21. For a response, see Edward W. Said, "Reply," *Columbia Journalism Review* 19 no. 2 (July–August 1980): 68–69.

20. See my comments on recent books by Rodinson and Hourani in *Arab Studies Quarterly* 2, no. 4 (Fall 1980): 386–93.

21. Irène Ferrera-Hoechstetter, "Les Études sur le moyen-orient aux États-Unis," *Maghreb-Mashrek* 82 (October–November 1978): 34.

22. Richard H. Nolte, *Middle East Centers at U.S. Universities*, June 1979, p. 2 (courtesy of Mr. Don Snook of Esso Middle East, who very kindly sent me a copy of Nolte's report).

23. *Ibid.*, pp. 40, 46, 20.

24. *Ibid.*, pp. 43, 24.

25. Michel Foucault, *The History of Sexuality, Volume One: An Introduction*, trans. Robert Hurley (New York: Pantheon Books, 1978), p. 34.

26. The phrase is partly Harold Bloom's, although of course he uses it in a very different context and calls it "antithetical criticism": see his book *The Anxiety of Influence: A Theory of Poetry* (New York: Oxford University Press, 1973), pp. 93–96.

27. The work of Peter Gran, Judith Tucker, Basem Musallem, Eric Davis, and Stuart Schaar, among others, is representative of this group.

28. See notes 14, 15, and 62, Chapter One.

29. I have discussed the notion of *affiliation* in "Reflections on Recent American 'Left' Literary Criticism," *Boundary 2* 8, no. 1 (Fall 1979): 26–29.

30. Hans-Georg Gadamer, *Truth and Method* (New York: Seabury Press, 1975), p. 238.

31. See Ali Jandaghi's comments on Marvin Zonis's study of the Iranian elite, in "The Present Situation in Iran," *Monthly Review*, November 1973, pp. 34–47.

32. As instances, there is J. B. Kelly, *Arabia, the Gulf and the West,*

who bewails the departure of the British east of Suez; there is Élie Kedourie, who attacks de Gaulle for having "given up" Algeria—see his review of Alistair Horne, *A Savage War of Peace: Algeria, 1954–1962* in the *Times Literary Supplement*, April 21, 1978, pp. 447–50; and there is Robert W. Tucker and a whole string of followers who have been advocating an American invasion of the Gulf for at least five years (see notes 34 and 38, Chapter One). Behind much of this is the work of Edward N. Luttwak: see the model presented in his book *The Grand Strategy of the Roman Empire: From the First Century A.D. to the Third* (Baltimore and London: Johns Hopkins University Press, 1976).

■ محتوى الكتاب ■

الصفحة